

# صفى الدين الهمداني

جمهورية العراق

كلية التربية

ساعدت على نشره وزارة المعارف

مطبعة المعارف - بغداد

١١/٢٨

# صفحة الدين الجميلة

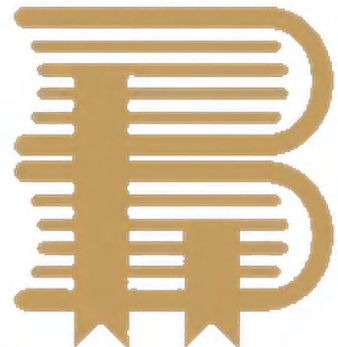
مكتبة  
الدين  
الجميل  
بغداد  
١٩٥٩ م

جمال الدين علي

كلية التربية

ساعدت على نشره وزارة المعارف

شبكة كتب الشيعة



مطبعة المعارف - بغداد

١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م

shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net



## الأهداء

ومن أسمى بالأهداء من والديّ العزيزين ؟  
أبي الزى كرمٌ ونعْبَ من أجلي .  
وأسمى اتى قاست ما قاست فى سبيلي . .  
فأنا ثمرة أُنْعَاهِما ، وهذا الكتاب ثمرة مجهودى ،  
فقد أقدم ثمرة أُنْعَاهِى الله لمن كنت ثمرة لأُنْعَاهِما . .

لصتُ ( كالبحتريّ ) أنغر بالشعر وأتني عطفِي في الإبراد  
وإذا ما بليتُ بيتاً تبخرت كأني بليت ( ذات العماد )  
( صفي الدين الحلبي )

حبذا من إمام لفظٍ وفعلٍ      نشر الذكر في البلاد دعاته  
ناظم يشتكي ( الوليد ) قعوداً      حين تلو رواه أياته  
( ابن نباتة المصري )

# تصدير

هذا بحث متواضع دأبت على عمله في كلية الآداب بجامعة القاهرة خلال أكثر من عامين ، وقد تقدمت به للحصول على درجة الماجستير في الآداب في أواخر كانون الأول من عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف للميلاد (١٩٥٣) وبعد مناقشة عليية ، نلت الدرجة بتقدير ( جيد جداً ) وقد كانت لجنة المناقشة مؤلفة من : ( ١ ) الاستاذ المشرف الدكتور شوقي ( رئيساً ) ( ٢ ) الاستاذ مصطفى السقا ( عضواً ) ( ٣ ) الدكتور محمد كامل حسين ( عضواً ) .

ولا يصحني اليوم إلا أن أشكر أعضاء لجنة المناقشة المحترمين لحسن توجيهاتهم ، وصائب ملاحظاتهم ، ولما بذلوا في قراءة الكتاب ونقده من جهد مشكور ، وبحق لي أن أغر بأنتي ، قبل أن أقدمه للطبعة ، استطعت أن أحقق معظم رغباتهم ، وأن أصح بكثير من توجيهاتهم ، وأن أسد الثغرات التي سلطوا عليها ضوءهم أثناء المناقشة فظهرت واضحة . . وبهذا يكون هذا الكتاب المتواضع بين يدي القارئ الكريم ، في شكله الأخير ، بعد إجراء شيء من التنقيح والزيادة ، ولكنها - والحق يقال - زيادة بسيطة ، وتنقيح يسير ، لا يمس أصل البحث ولا يغير شيئاً من منهجه . . وهذا ما قاله لي أساتذتي الأجلاء وقد أرادوا أن يكون الكتاب خالياً ، إلى حد ما ، من العيوب والهفوات ، والسكال لله وحده . لا بد لي أن أشير هنا إن « كتاب العاقل الحالم والمرخص العالي في الأزجال والموالي » لصفي الدين كان مخطوطاً إلى وقت قريب ، وقد طبع أخيراً فلزم أن أشير إلى طبعه في الموضع المناسب ،

كما ان ديوان صفي الدين قد أعيد طبعه سنة ١٩٥٦ في النجف ، فوجب أن أبين هذا أيضاً .

هذا ولا يمكن أن أعتبر هذا البحث - الآن - قد استكمل من جميع الوجوه ، فلا بد أن هناك الكثير من الميوب التي تحتاج إلى الاصلاح ، ولعل هذا من العوامل التي عجلت في طبعه وإخراجه للنور ، فأنا لا أعتبر طبع الكتاب خاتمة المطاف ونهاية البحث ، وإنما اعتبره بداية الشوط ، إذ يلقي - وهو بين يدي القراء الأفاضل - من التوجيه السديد ، والنقد الشديد ، ما يقوم اعوجاجه ، ويصلح خطأه ، ويكمل نقصه . . . ولهذا فأنا أرحب بكل نقد وكل توجيه .

وختاماً لا يسعني إلا أن أشكر وزارة المعارف الجليلة التي كانت المحفز الرئيسي في طبع هذا الكتاب إذ شملته برعايتها ، وقدمت له مساعدتها ، وهذا جهد محمود للاسهام في خدمة الأدب والثقافة من وزارة للعلم والمعرفة . والله أسأل أن يميننا ويهديننا سواء السبيل .

---

## المقدمة

لا شك أن حب الوطن غريزة سامية يفرسها الله في نفس كل كائن حي منذ تدب فيه الحياة ؛ فالطير يحن إلى وكره ، والأسد يمتاز بمرينه ، والظبي يأنس بكناسه ، والانسان ، لما وهبه الله من عقل مفكر وقلب شاعر ، يحب وطنه ويفديه بروحه . هذا الوطن الذي يضمه وإخوانه المواطنين ، فيلم شعثهم ويهي لهم ما يحتاجون اليه من مطالب الحياة الكثيرة . فيؤمن لهم الغذاء والكساء في أحوال تلائمهم وترضيهم . وهم يترعرعون فوق ربوعه ويمتظلون بسائه ويمتشنشقون هواه ويرتوون مائه . فوجب على الانسان ألا يشعر بماطفة حب الوطن فحسب بل عليه أن يقوم بمخدمته حتى يكون أبناء الوطن جميعاً كالبنيان المرصوص ، يصدون عنه كل إعتداء ، ويعالجون فيه كل داء ، للدفاع عنه في كل حين وبذل المساعدة لجميع المواطنين . وقدیمًا قال الشاعر العربي :

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وقومي وإن شحوا عليّ كرام

ومن تلك الخدمات التي يقدمها الانسان إلى وطنه ، بل من الواجبات التي على المرء أن يؤديها نحو بلده ؛ إظهار المواهب الأدبية الملموسة فيه فالأدب هو حياة الأمة ، وقلبها النابض ، لانحيا بدونه ؛ لأنه غذاء الروح والوجدان والركن الوطيد من أركان بناء النهضة . وهو المرآة التي تنعكس عليها عمار العقل والقلب فتظل تحفظها الأجيال تلو الأجيال .

وقد نمر بالانسان ظروف تجعله يحس إحساساً دقيقاً بواجبه نحو وطنه ، ويشعر شموراً عميقاً بحبه وحنينه إلى بلاده ، ويفكر تفكيراً صادقاً فيه



تقديم ما يستطيع من مساعدة لأبناء قومه . ومن هذه الظروف إبتعاد  
الإنسان عن وطنه مدة من الزمن ، طالت أم قصرت ، فهنا يتجسم في قلبه  
حبه لوطنه واعتزازه به ، وهنا يتجلى شوقه لمواطنيه وخدمته إياهم . وهنا  
يعرف حق المعرفة خير بلاده . ويدرك تمام الإدراك فضل أبنائها .

وقد شعرت بكل هذا منذ اليوم الذي غادرت فيه أرض وطني الحبيب لأنهل  
العلم من مصر ، رأيت لزماً عليّ أن أخدم وطني في إظهار آداب العظيمة للناس ،  
وإخراج آثار أدبائه الخالدين للنور ، وتعريف الناس بتلك النهضة الأدبية  
الرائعة التي سررت بالعراق عامة والحلة خاصة . وهأنذا اليوم أقدم هذه الدراسة  
لشاعر الحلة ومفخرتها العظيم ، الذي طبقت شهرته الآفاق في زمانه ، وذاع  
صيته بين الناس ، وصار الملوك والسلاطين يتمنون مديحه ، حتى قال فيه جميع  
الذين كتبوا عنه : إنه شاعر عصره على الإطلاق .

وليس هذا فقط ما حدا بي إلى دراسة ( صفي الدين ) ، بل هناك أسباب  
أخرى هامة ، فبعض الظروف التي مر بها الصفي سررت بها أنا أيضاً . وعلى  
ذلك فاني أستطيع أن أفهم البيئة التي عاش فيها الصفي ، وأعرف أثرها في ترجمة  
حياته وشعره : فالحلة التي ولد فيها الصفي ولدت فيها ، وقد عاش فيها الصفي  
عقدين من حياته وغادرها بعد ذلك طلباً للنجاة ، وعشت فيها مثل ذلك  
وغادرها طلباً للعلم . وجاء الصفي إلى مصر وبقي فيها مدة غير قصيرة ، وقد  
أثرت فيه كثيراً وأحبها حباً صادقاً ، وجمع ديوان شعره فيها وهأنذا في  
مصر ألتقي الدرس وأنهل العلم . وقد زار الكثير من المدن العربية التي زرتها  
أنا أيضاً ورأيت فيها ما رأي . فانتقالي هو بعض انتقال الصفي وعلى هذا  
سأستعين بمعلومات شخصية كثيرة لتفسير كثير من الظواهر التي سببها انتقاله  
بين هذه البلاد ، وإن كان الزمن بيني وبين الصفي بعيداً .

وقد جعلت موضوع رسالتي هذه « شعر صفي الدين الحلي » ومعنى ذلك  
أنني سوف أدرس الشعر فقط دون أن أتعرض للنثر أو أهميته ، هذا

صحيح ، ولكن ... هناك شيء آخر أبعد من هذا . فاني سأحاول أن أدرس حياة الصفي وثقافته وعقيدته من شعره نفسه ، فالمرجع الأول لهذه الفصول هو الديوان . وإني على طول بحثي وتنقيبي ، وكثرة تسألني وقراءتي ، لم أجد من المراجع ما أستعين به على كتابة شيء ذي بال عن حياته ، وكذلك ثقافته وعقيدته ؛ فشكل ما هناك نتف بسيطة متفرقة هنا وهناك ، لا نضمن ولا ثغني من جوع ، فوق ما فيها من تضارب واضطراب . ولا أبالغ إن قلت : إن خير وثيقة عن حياة الشاعر ديوانه ، خصوصاً إذا كان الشاعر قد جمعه ودّونه بنفسه ، كما فعل الصفي ، ولهذا فديوانه أهم الوثائق التي تبنى عليها أحكام دراستنا لحياته وثقافته وعقيدته . وهو فعلاً غني بالمعلومات التي تضيء لنا الطريق وتهدينا الصبيل . ففيه نسبه وبلده وذكر أيام صباه ورحيله عن وطنه وحينه اليه ورحلانه المختلفة وكل ما يتعلق بحياته . وشعره كالمرآة يعمكس لنا ثقافته المتنوعة من علوم العربية وآدابها وعلوم الدين وغيرها . ويظهر شعره كذلك تمحيزه للإسلام واهتمامه بأمور المسلمين ، واستنهاضه السلاطين للذود عن الإسلام والذب عن حياضه ، وبجلب مذهب وتشييعه ، وحبه لملي وآل علي .

ولكن ... هل الديوان يغنيننا عن أي مرجع آخر فلا نحتاج لغيره ؟ وهل يجيب عن كل سؤال يمكن أن يثار ، أو يرد على كل اعتراض يمكن أن يقف في الطريق ، فلا يترك ناحية لا يوضحها تمام التوضيح ؟ أفلا توجد بعض النواحي ، قليلة كانت أم كثيرة ، في حياته لم يشر إليها الديوان ؟ في الحقيقة أنه لا يمكن أن نعتمد على الديوان فحسب دون أن نرجع إلى مراجع أخرى ، ولو من باب التأكيد والاستعانة ، ولهذا رجعت إلى مراجع وراء الديوان لتساعدني على كشفه وتوضيحه ، وأكثر هذه المراجع مراجع طامة في التاريخ والأدب ، استعنت بها على دراسة عصر الصفي أو بيئته ، حيث البيئة الطبيعية والحياة السياسية والحياة الاجتماعية وغيرها .

واستطعت بواسطتها أن أرسم صورة تقريبية لهذه البيئة . فراجع العراق في هذا العصر قليلة نادرة . لأن المغول أحرقوا وأتلفوا المكتبات المطبوعة في بغداد وغيرها من مراكز العلم . وبعض هذه المراجع قديم مثل الكامل في التاريخ لابن الأثير . والحوادث الجامعة لابن الفوطي وغيره . وبعضها حديث كان لابد أن أرجع إليه . أما المصادر الخاصة للصفي وسيرته فقليلة وليس بها سوى بضعة سطور لا تكاد تصور شيئاً . ومن أجل ذلك كله كان الديوان هو المرجع الأول والأخير .

وقد جعلت بحثي هذا في تمهيد وباين :

التمهيد : ويشمل البيئة الطبيعية . والحياة السياسية . والحياة الاجتماعية . والحياة الاقتصادية . والحياة العلمية . والحياة الأدبية .

والباب الأول في سيرة الصفي من شعره ، وهو فصلان : الأول في حياته والثاني في ثقافته وعقيدته .

والباب الثاني في شعره وهو خمسة فصول . الأول في آثاره الشعرية وهي : ديوانه . وكتاب دور النحور ، والبدعية . والثاني في مراحل شعره وهي : ابتداء صنعة الشعر . ظهور التعميق ، اشتداد التعميق ، صفات عامة . والثالث في موضوعات شعره وهي الحماسة والمديح والرناء . . الخ . والرابع في الفنون المستحدثة وهي الموشح والمسمطات والأزجال والموالي وغيرها ، والخامس في منزلته في الشعر العربي . ودرست فيه تقليده وإبداعه ومنزلته وأثره في أخلافه . وذيلت البحث بمخاتمة بينت فيها ملخص الرسالة ، وأشارت فيها إلى الجديد الذي استحدثته بنفسني وأوجدته بدراستي الشخصية .

والله أسأل أن يجعل هذا البحث بداية بحوث أستطيع بها أن أظهر ما لبلدي من فضل في الأدب . وأن أطلع الناس على آثاره الأدبية والعلمية ، فأكون بذلك قد استطعت أن أرد بعض الجليل . والله المستعان .

# تمهيد

## ١ - البيعة الطبيعية :

ولد الصفي في الحلة ١١ وهي مدينة من أمهات مدن العراق ، كانت في عصر من عصور التاريخ قبلة العلماء والأدباء ١١ وطلبة التجار وسائر أرباب الحرف . وأصبحت لها مكانة مرموقة بين مدن العالم الاسلامي وتنافس بغداد في مركزها وسطوتها وجاها .

هذه هي مدينة الصفي ١١ ففيها ولد ، وين أهلها ترعرع ، ووسط جوها المعطر بهذا العلوم والآداب تنقف واكتسب علمه وأدبه ١١ وباسمها يلقب . فيقال صفي الدين الحلي .

وتقع الحلة على بعد أربعة وستين ميلاً إلى الجنوب الغربي من بغداد ، وعلى بعد أربعين ميلاً إلى الشمال الشرقي من الكوفة وعلى بعد بضعة أميال من أطلال بابل العظيمة ١١ وعلى موقع جميل من نهر الفرات . وتكتنف هذه المدينة بساتين النخيل الباسقة ، وأشجار الفاكهة الشبه . وقد وصفها ياقوت الرومي بقوله : « مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد ، كانت تسمى ( الجامعين ) ، طولها سبع وستون درجة وسدس وعرضها اثنا وثلاثون درجة ، وتعدل نهارها خمس عشرة درجة ، وأطول نهارها أربع عشرة ساعة وربيع . . . . وكان أول من عمرها ( سيف الدولة صدقة الأسدي ) سنة ( ٤٩٥ هـ ) . وكانت أجمة تأوي إليها الصباع فتزل بها بأهله وعساكره وبني بها المساكن الجميلة والدور الفاخرة » (١) .

وقال عنها ( ابن بطوطة ) : « ... مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو شرقيها ، ولها أسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات ، وهي كثيرة العمارة وحداثا النخيل منتظمة بها داخلاً وخارجاً ودورها بين الحدائق » <sup>(١)</sup> فهي تمتد مع الفرات فيكسبها جمالاً رائعاً ، ويجعلها منظرأ ساحراً من مناظر الطبيعة الفتانة « ويصلها بالمدن الشمالية والجنوبية . كما تصل بينها وبين المدن الأخرى طرق برية حسنة » فالطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يمينا وشمالاً ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تنسرب وتسقيها » <sup>(٢)</sup> وكان للمدينة « جسر عظيم معقود على سراكب كبار متصلة إلى الشط تحف بها وبجانبيها سلاسل من حديد كالأذرع المفتولة عظماً ترتبط إلى خشبة مثبتة من كلا الشطين » <sup>(٣)</sup> ومناخها جميل وهواؤها عليل ، تهب عليها الأنسام التي يلففها نهر الفرات ، وتنقيها الأشجار السكينة التي على ضفتيه . وفي شتائها شيء من البرودة تنسيك قسوتها أيام الربيع الدافئة الرائمة ، وكثير من المطر الغزير تخففه حرارة الصيف الشديدة وشمسه الساطعة . وفي صيفها حرارة تكسر من حداثا الظلال الوارفة تحت الأشجار النظرة .

أرضها خصبة وتربتها غنية بالمواد اللازمة للزراعة . وماؤها وفير يزيد عن الحد المطلوب في كثير من الأحيان « فالسماء تدر عليها الكثير في كل عام » والفرات ماؤه لا ينضب وإن كان غالباً ما يغضب فيفيض ويدمر . وماؤه عذب كاسمه ، قال عنه ابن جبير : « هو من أخف المياه وأعذبها » . بسايتها الواسعة ملائى بشتى أنواع الفواكه والخضروات والحبوب ويربى الكثير من الحيوان في المراعي الشاسعة التي تحيط بها فتجعلها ذات ثروة عظيمة .

\*\*\*

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١٣٣

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢١٣

(٣) المرجع السابق ص ٢١٣

وحين سقطت الخلافة العباسية في أيدي المغول سنة (٦٥٦ هـ) وحلت الكوارث في أكثر مدن العراق ، نجت الحلة من هذا الدمار . لأن أهلها أرسلوا وفدأ إلى هولاكو يسألونه حقن دماهم ، وكان مكوناً من كبار رجال البلد وأعيانه وعلمائه والملوين ، ومعهم الهدايا والأموال الكثيرة فأجابهم هولاكو إلى طلبهم<sup>(١)</sup> . وعين لهم شحنة فازدهرت الحلة ازدهاراً عظيماً وارتقى الحليون أسمى المراتب وتقلدوا أعلى المناصب في الدولة . واتسمت النهضة الأدبية والعلمية في الحلة . وحين ولد الصفي في هذا المجتمع أقاد منه كثيراً . ولكن حين تفاقمت الأحوال في العراق في أواخر أيام حكم المغول سنة (٧٠٠ هـ) . واضطرب الأمن اصاب الحلة ما اصاب غيرها من مدن العراق فكثرت فيها القتل والاعتقال ؛ فقتل ( أبو المحاسن خال صفي الدين غيلة فأخذ الصفي بثأره سنة (٧٠١ هـ) وهاجر إلى (ماردين) فففى فيها كثيراً من أيام شبابه .



و (ماردين) مدينة ذات قلعة حصينة تقع على قنة جبل في الجزيرة . وقد لعبت دوراً عظيماً في تاريخ الاسلام في القرن السادس والسابع والثامن للهجرة ، فكانت عاصمة لمملكة إسلامية قوية ، كانت تحكم مساحات واسعة امتدت إلى الموصل وحلب ، واستطاعت أن ترد هجمات الافرنج مرات عديدة وتوغل في أراضيهم .

وهي تقع على جبل حصين . تشرف على (ديفيس) و (دارا) و (نصيبين) . في جنوب تركيا اليوم . وتطل على فضاء فسيح يمتد فيه البحر إلى مدى بعيد . ذلك هو سهل الجزيرة الذي يدهش الناظرين . ويبلغ ارتفاع هذه الهضبة خمسمائة قدم في الجنوب الغربي من ديار بكر وتمتد هذه المرتفعات الصخرية البازلتية نحو الشرق في اتجاه ( جزيرة ابن عمر ) وتساب من

المنحدرات الجنوبية لهذه الجبال المجاري المائية الكثيرة التي ما يلبث تقعها بعد مسيرها قليلاً أن يتصل بعضها ببعض فيكون أنهاراً صغيرة تختلط فتكون نهر الخابور<sup>(١)</sup> .

وقد وصف ياقوت دور أهلها بقوله : « ودورهم فيها كالدرج كل دار فوق الأخرى وكل درب فيها يشرف على ما تحته من الدور »<sup>(٢)</sup> فهي كغيرها من المدن الجبلية مبنية على هيئة مدرجات تضم الدور والدكاكين والأبنية الأخرى ، ويشرف بعضها على بعض ، وطرقها تلف وتلتوي حول هذه الدور . وتحيط بماردين بساتين واسعة ، تحترقها وديان كثيرة منها : ( وادي باغ الفراء ) و ( وادي الشيخ ) و ( وادي شجالا ) وغيره . وكل هذه الودية تروي البساتين الملاصقة بالسكروم والفواكه المتنوعة<sup>(٣)</sup> . وماردين نفسها قليلة الماء فأكثره من ماء المطر لأنهم يجمعونه في صهاريج كبيرة ويحتفظون به للاستعمال وهناك أيضاً بعض القنوات التي تسقى المدينة بالماء الذي تأخذه من العيون المنتشرة حول المدينة .

وماردين جميلة المناخ لطيفة الهواء ، وكان حسن مناخها سبب اعتبار الأطباء لها كوصحة ( لماردين ) ابن ملك الفرس<sup>(٤)</sup> .

وقدر ( الاصطخري ) سراقى ماردين بفرسخين ( ابن حوقل ) قدره بفرسخين<sup>(٥)</sup> وتتصل ماردين بما حولها من مدن بعدة طرق من أهمها : طريق ديار بكر - نصيبين الذي ينعطف في اتجاه جزيرة ابن عمر والموصل . وهي في موقع مهم تتقاطع فيه عدة طرق هامة وكانت تعتبر مركزاً هاماً للقوافل التجارية إلا أنها فقدت مركزها<sup>(٦)</sup> .

(١) دائرة المعارف الاسلامية - النسخة الانجليزية ج ٣ ص ٢٧٣

(٢) معجم البلدان ج ٤ ص ٣٩٠

(٣) تاريخ ماردين لمبد السلام المارديني ( خ ورقة ١٠٢ ) .

(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية - بالانجليزية ج ٣ ص ٢٧٤ .

(٦) المرجع السابق ونفس الجزء والصفحة .

وقد تأسست ماردین قبل ظهور الاسلام ، وفتحها المسلمون في زمن الخليفة ( عمر بن الخطاب ) وحكمها أمراء وولاء عديدون حتى جاء الارتقيون سنة ( ٥٤٩٧ هـ ) فحکوها .

وكان محيى الصفي اليها في زمن مليکها ( المنصور ) ثم ابنه الملك ( الصالح ) بعده . وكانت تتمتع يومذاك بهدوء وطمأنينة .

## ٢ - الحياة السياسية :

جاء القرن السابع الهجري والخلافة العباسية قد تناهى بها الضعف واستبد بها الهرم ، وغدت البلاد الاسلامية يتنازعها الأتراك السلاجقة في الشرق والاكراد الأيوبية في مصر والشام ، والبربر في المغرب والأندلس . ورأى ذلك أعداء الاسلام ففرحوا به لأنهم يريدون أن ينقضوا على البلاد الاسلامية . فأغار السكرد والأرمن من الشمال للسلب والنهب ، وهجم الفرنج والصليبيون من الغرب هجوم الفاتح الغازي ، أما من الشرق فقد جاء التتر المغول المتوحشون وهم قبائل بدوية كانت تقطن شرق آسيا ، ثم تكتلت واستطاعت أن تغزو معظم آسيا في فترة وجيزة ، وأن تدخل العراق بقيادة ( هولاكو ) وتسقط الخلافة العباسية وتحتل بغداد وتقتل الخليفة ( المستعصم بالله ) سنة ( ٦٥٦ هـ ) . وهكذا أصبح العراق إمارة تابعة للمغول بعد أن كان قلب العالم الاسلامي النابض . وكان هؤلاء المتوحشون يحكمون بكل وحشية وقسوة ، فهم عتاة غلاظ القلوب ، وكان من آدابهم الطاعة للسلطان غاية الاستطاعة<sup>(١)</sup> ، فالسلطان حاكم مستبد يخضع له الجميع وليس عنده من النظم والقوانين ما يسير عليه إلا ذلك القانون العرفي الذي وضعه أبوم الأكر



( جنكيز خان ) « ويتميز بروح القسوة والعنف ويقضي بقتل من يرتكب أبسط الأُمُور »<sup>(١)</sup>.

ولد الصفي في كنف هذا الحكم « وشب فرأى الاضطراب السياسي والانحطاط الشامل لكل مرافق الحياة . فبعد أن انتهى حكم الخلافة العباسية وحل محله حكم المغول لمعظم هذه البلاد العربية والاسلامية لم تعد هناك أي رابطة تربط بينها سياسياً « ولا أي صبغة توحد بين ألوان الحكم فيها ، وقد أصبح في كل دولة أمير يحكمها مستمداً سلطته من قوته . فاذا جاء من هو أقوى منه نجا وجلس مكانه . وحاول هؤلاء الحكم تطبيق نظام وراثة العرش فلم يفلحوا لأن الحكم للأقوى . وكانت هذه المنازعات تقع حتى بين الاخوة وأبناء العمومة « وبين الأبناء والآباء « وكثيراً ما أدى هذا إلى القتل بالطرق الوحشية الفظيعة والسلب والمصادرة . ولهذا كان الشك بعلاء القلوب ويشحن الصدور : شك السلطان في حاشيته وحتى في أهله وأقرب الناس إليه « فهو لا يأمن خيانتهم وغدرهم . وشك الحاشية في أميرهم فهم لا يأمنون غضبه ، ولا يعرفون في أي ساعة يشور فيقضي عليهم جميعاً وشك الأمير في رعيته فلا يدري متى تنور عليه وتنحيه وهكذا .

لهذا كان الفلق سائداً كل شيء في هذا العصر ، الناس في قلق فهم لا يعرفون هدوء العيش ، والحكم في قلق فليس فيه استقرار ، والحكام في قلق إذ أنهم لا يعرفون الهدوء السياسي « فكثيراً ما ينقل الأمراء أو موظفو الدولة وكثيراً ما يعزلون « وكثيراً ما يقضي عليهم بالقتل والمصادرة « وكانوا قبل لحظات في أعلى المناصب . وتبعاً لهذا الاضطراب السياسي اضطرب الأمن « فالسلطة غير قادرة على حكم البلاد « والحكام والموظفون لا يعرفون مصيرهم في غد أو بعد غد .

• • •

ولم يكن نظام الحكم فى الاصل الاسلامى منتظماً على أسس سليمة أو يتبع قوانين معينة . فالحكم إذاً استبدادى . والسلطان حاكم مطلق يفعل ما يشاء ويأمر بما يريد . دون أن يوجد من يحاسبه أو يعارضه لأنه أقوى من حوله . وكان أكثر هؤلاء السلاطين يبررون حكمهم باسم الدين بالرغم من أن القوة لا غير هي التي أوجدتهم في مناصبهم . فكانوا يجمعون حولهم الكثير من رجال الدين ولا يعملون عملاً إلا ويحذون له ما يبرره أو يحمله في الدين . وبذلك يجب على الشعب أن يرضى به ، لأن علماء الدين قد ارتضوه . واستغل السلاطين هذا وصاروا يجبرون علماء الدين على إعلان الرضى عن أعمالهم فكان الكثير يرضخ لحكمهم والقليل هو الذي يقاوم فيلقى الاضطهاد والمذاب . وقد كان ذلك لارضاء الشعب . فهل معنى هذا أن الرأي العام كان قوياً ، أو لم يكن يحسب له أي حساب عند السلاطين ؟ لقد كان السلاطين يرفعون بعض النواحي التي تهم الشعب . فهم إن أرادوا جمع المال خافوا عصيان الشعب أو ثورته فأشاروا على علماء الدين أن يفتوهم بأمر هذه الضريبة ويحللوها ليرضخ الشعب لهم . فرضى العامة وسخطهم ليس مهماً ، ولكنه ليس مهماً كذلك بالدرجة التي كان يخافها السلاطين . فالسلطان بمحكم ومم مطيعون . دون أن يكون له مجلس شورى يعبر له عن رأيهم عند الفصل في الأمور . وكانت أكثر هؤلاء السلاطين المتظاهرين بالتدين لا يتورع عن ارتكاب أعظم المنكرات في المجالس الخاصة . يعرفون فيها الأموال الطائلة على لذائذهم ومباهجهم دون الالتفات إلى الشاريع التي تنفع الشعب وهم يكنزون الذهب والفضة والمال والسلاح يستمينون به عند الملعات .



وفي (ماردين) كان الأرمن يقيمون ، وكانوا أيضاً يحكمون ديار بكر وحصن (كيفا) و (خربوط) منذ أواخر القرن الخامس فقد استطاع جدهم (ياقوتي) حفيد (أرتق بن أكسب) مملوك السلطان (ملكشاه السلجوقي) أن

يستولي على (ماردين) سنة (٣٩٧ هـ) ويؤسس فيها ملكاً للأرتقيون<sup>(١)</sup> وانسمت أملاكهم وقوى نفوذهم . وحين قضى المغول على الخلافة العباسية أصبحت (ماردين) تابعة لهم إسمياً ويخضع لهم على المنابر . سكن السلطان الفعلي ظل بيد الأرتقيين . لذا كانت تتمتع بهدوء وطمأنينة لا مثيل لها في البلاد الإسلامية الأخرى . خصوصاً في عهد الملك المنصور وقد ظل يخضع للمغول ورحل في خدمة السلطان (غازان) للغولي إلى الشام ، لكنه كان ينصح الملك الناصر محمد بن قلاوون سراً وتزوج ابنته<sup>(٢)</sup> . وهو الذي التجأ إليه صفي الدين الحلي فأواه وأحسن وقادته . ومات سنة (٧١٢ هـ) فلك بعده ابنه الملك الصالح . وكان من أجل ملوك (ماردين) حزمًا وعزمًا ورأيًا وكرمًا ودهاءً . كانت حسن السياسة بحب المديح وبجيز عليه<sup>(٣)</sup> . وهو الذي قطع الخطبة للمغول واستقل بالحكم سنة (٧٣٧ هـ) وتوفي سنة (٧٦١ هـ) .

وهذه الدولة حريصة منذ تأسيسها سنة (٤٩٧ هـ) وظلت كذلك حتى انقرضت سنة (٨٠٢ هـ) . وملوكها كلهم فرسان شجعان . وكانت جيوشهم من التركان ولاغرو فالعائلة المالكة تركمانية ، وكان الجندي شديد المراس قوي البطش عظيم الصبر لذا استطاع الملوك أن يطبقوا نظام ورائة العرش . وحين خضعوا للمغول لم يغيروا شيئاً من حكمهم سوى الخطبة لهم على المنابر .

### ٣ - الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع الاسلامي في هذا العصر مجتمعاً مفرطاً في غاية التدهور والانحطاط ، فكما كانت الحياة السياسية فاسدة مضطربة كانت الحياة

(١) الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ١٣٦

(٢) المنهل الصافي - مخطوط - ج ٢ ورقة ٥٠٢

(٣) المنهل الصافي - مخطوط - ج ٢ ورقة ٢١١

الاجتماعية كذلك . فاذا كانت السياسة مضطربة والحكم فاسداً فكيف يكون المجتمع صالحاً وحياة الناس هادئة طبيعية ؟  
فالمجتمع الاسلامي إذاً كان مضطرباً كل الاضطراب ، منحلاً أسوأ الانحلال ، اجتمعت فيه مساوي الأمم المختلفة فأصبح خير مثال لشر فعاد وتفكك .

واضطراب الأمن واختلال النظام كان يسود البلاد الاسلامية ، فكثرة القتل كانت متفشية تفشياً عجيباً بين جميع الناس وفي كافة الطبقات ومختلف المجتمعات : فقتل ( عماد الدين القزويني ) أحد حكام بغداد سنة ( ٦٦٠ هـ ) وقتل ( علي بن بهادر ) شحة بغداد سنة ( ٦٦١ هـ ) . وقتل ( نجم الدين بحى ) سنة ( ٦٦٩ هـ ) إلى آخر ذلك من القتل الشنيع . وفي مصر قتل من المماليك ( إيبك ) و ( قطز ) و ( كتبغا ) و ( سلار ) و ( لاجين ) وغيرهم . وكانوا يتذكرون للقتل والتمثيل أبشع الطرق وأشنع الصور ؛ فهذا ( مجد الملك ) يسلم إلى الصاحب ( علاء الدين ) فيقتله وتحمل أطرافه إلى البلاد ويسلخ رأسه وتحمل إلى بغداد ويشوي أتباع ( السلطان خربنده ) لحمه ويأكلون منه ويشربون الخمر في قطعة من رأسه<sup>(١)</sup> . وكثر الانتحار أيضاً ؛ ففي سنة ( ٦٧٨ هـ ) وجد في قبة المؤذن بالمدرسة النظامية جثة رجل صلب نفسه . وفي سنة ( ٦٧٩ هـ ) صلبت امرأة نفسها في دارها بمحلة الجعفرية . وفي سنة ( ٦٨٦ هـ ) طولب ( نجم الدين ) كاتب الجريد بالحساب على بقايا وجبت عليه فلما عجز وخشي العقاب قتل نفسه ؛ وكان شاباً حمن الصورة<sup>(٢)</sup> .

وهناك حوادث أخرى متنوعة تدل على فساد المجتمع . ففي سنة ( ٦٨٨ هـ ) دخل الأعراب يوم الجمعة إلى الجامع بالمحول فأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم قصدوا ناحية الحارثية وكبسوها ليلاً وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة

(١) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٣٩١

(٢) نفس المرجع ص ٤٠٨ — ٤٥١

من أهلها . فلم يزل شحنة العراق يبحث عنهم حتى ظفر بأكثرهم وضرب أعناقهم . وبنى رؤسهم في قبة الجسر . وجعل وجوههم ظاهرة ليعتبر بها كل مفسد<sup>(١)</sup> . ولولم يكن ذلك شائماً لما اضطرت شحنة العراق إلى بناء رؤوسهم في الجسر ليخيف أمثالهم . وفي مصر كثر فساد العربان فقطعوا الطرق وفرضوا الأتاوات على التجار وأرباب العيش بالصعيد . واستخفوا بالولاية ولبسوا الأسلحة وأخرجوا أهل السجون فاضطر السلطان للخروج لقتالهم<sup>(٢)</sup> .

ومن مظاهر هذا الاضطراب ظهور الشطار في بغداد وغيرها ، ففي سنة ( ٦٧٧ هـ ) ظهر صبيان من الشطار يعرف أحدهما ( ابن الحماس ) والآخر ( بالتاج الكفني ) وانضم اليهما جماعة من الجهال فقويت شوكتهم وانتشر ذكركم فاحتال صاحب الديوان حتى أحضر ( ابن الحماس ) إليه وعين عليه والياً من الشرطة فبقى على ذلك أياماً ثم استعفى فأعطاه وجعله ملازماً باب داره . . . ثم ثبت إفسادها فأمر بقتلها وطيف برأسيها . فكبس بعض رفاقها على ( قتادة ) نائب الشرطة وهو جالس على شاطئ دجلة في الرقة فقتله وبعض أصحابه . فأمر صاحب الديوان أن ينبش ( ابن الحماس والكفني ) وتحرق جثتهما<sup>(٣)</sup> . وهذه بلا شك حيلة العاجز .

وكان هذا المجتمع يزخر بشتى الأجناس ، وبموج بأخلاق مختلفة من الناس ، فقد التقى فيه أناس من أقصى الشرق بأناس من أقصى الغرب . واختلطت هذه الأجناس المتباينة فكونت هذا المجتمع الجديد الذي لا تعرف له لوناً ولا جنساً ولا شخصية خاصة . فقد امتزجت في الحروب الصليبية وحروب المغول وغيرها شتى الحضارات والديانات والأفكار والعلوم والمعادن والتقاليد . وتداخلت وكونت هذا المجتمع الجديد . فوجدنا عادات المسلمين بجانب عادات الوثنيين دون نحر ج أو توقف .

(١) الحوادث الجامعة ص ٥١

(٢) التجويد الزاهرة ج ١٠ ص ١٤

(٣) الحوادث الجامعة ص ١٠٣

فليس هذا المجتمع بمجتمع عربي ، تغلب عليه العروبة ، وليس الناس كلهم من العرب بل ليس معظمهم عرباً . وإنما كان هناك فرس وترك ومغول وغير ذلك من الأقوام . وكانت الغلبة في المراق للمغول لأنهم الغاثمون المسيطرون . وكانت الغلبة في مصر والشام للمماليك الأتراك لأنهم حكام البلاد ، كذلك في (ماردين) ، فالحكام ترك لا شك في ذلك . ضعف إذاً شأن العربية ولم تبق لها تلك الصولة ولم تعد صاحبة الخطوة . لأن الحكماء أو معظمهم لا يتكلمون بها فعلى الشعب أن يخاطبهم بلغتهم التركية وعليه أن يتعلمها فتزاحم العربية في كل ميدان . ولكن بالرغم من هذا بقي للعربية شيء من الأهمية لأنها لغة القرآن ولغة الدين الذي يدين به أغلب السكان ويدين به معظم الحكماء . وحتى حكام المغول فيما بعد .

ولم يكن هؤلاء الناس جميعاً من طبقة واحدة ، فكانت هناك طبقات متفاوتة يختلف بعضها عن بعض وهي أربع طبقات : الأولى طبقة السلاطين والحكام والأسماء . وهي الطبقة العليا المتميزة في كل شيء . والثانية طبقة علماء الدين ويلون الحكماء في المنزلة وكانت لهم مكانة بين الناس لذا كان السلاطين يحترمونهم ويقربونهم إليهم ويستشيرونهم في الأمور . والثالثة طبقة كبار التجار ، وهم المثرون من الأغنياء . ويرتقون إلى منزلة الخاصة وبجاسون الأسماء والسلاطين وكانت لهم مميزات خاصة وبها كون أمام الحكماء لا أمام القضاة كما يحاكم سائر الناس . والرابعة طبقة العامة وهم الصناع والزراع وصغار التجار وبقية الناس وهم أقل الطبقات .

وهناك من يقسم الناس تقسيماً آخر : حكى أن السلطان (هولاكو) لما كان بوطأة حران وقف له جمع من الفقراء فقال لنصير الدين : ما هؤلاء ؟ قال : فضلة في العالم . فأمر بقتلهم فقتلوا . وسأله عن معنى قوله فقال : « الناس أربع طبقات : بين إمارة وتجارة وصناعة وزراعة فمن لم يكن منهم

كان كلاً عليهم<sup>(١)</sup> . فهو يقسمهم إلى : ( ١ ) الأسماء ( ٢ ) التجار ( ٣ ) الصناع ( ٤ ) الزراع . ولا يجعل لعلما الدين طبقة ، وربما كان ذلك تواضعاً منه لأنه من علماء الدين وأكبر علماء عصره . ويعتبر غير هؤلاء الأربعة ليسوا من الناس ويجب أن يقضى عليهم .

فليس المجتمع إذاً وحدة شاملة وقوة متراسة ، وإنما هو مجزء مفكك ، وليس هذا التقسيم الطبقي هو الظاهرة الوحيدة لهذا التفكك فهناك ظواهر متعددة ؛ فكل طبقة من هذه الطبقات مفككة هي الأخرى فطبقة الحكام مقسمة إلى أحزاب تتناحر وتتنافس ، كل يريد أن يستأثر بالسلطة ، وكل يريد أن يجمع حوله الأنصار ، وكل يريد أن يفرق عن غيره الأعوان ، وطبقة العلماء منقسمة على نفسها ، فهؤلاء علماء يسيرون في ركاب السلطان ويؤيدون كل أعماله ويوجبون على الشعب طاعته مهما تكن الظروف ، وأولئك علماء يخالفون هذا ولا يرضون بكل أعمال السلطان ويكفرون العلماء الذين يؤيدون السلطان . والطبقات الأخرى مجزأة أيضاً .

وليس عسيراً أن نعرف أسباب هذه الفقرة ، فقد عرفنا أن في المجتمع أخطالاً مختلفة ، وأن الأحوال مضطربة وأن الروابط بين أجزاء الأسرة قد اندرست ، وحتى الأسرة تفككت وكادت تمحي معالمها ، فقد رأينا الحروب والخلافات بين الأخوة والأبناء والآباء . وقد سبب ذلك أشياء كثيرة قوي خطرهما في هذا العصر ؛ فالرق وتعدد الزوجات من مختلف الأجناس ، من عربيات وروميات وتركيات ، وانتشار التسري انتشاراً فظيماً ، وظهور الكثير من الشذوذ الجنسي كافتناء الفلمان وغيره من اللهو والمبت وكثرة إنتشار الخمر والمكيفات الأخرى . وهذا ( ابن القوطي ) يروي حادثة تبين أثر تعدد الزوجات فيقول : « تزوج رجل يعرف ( بابن البيضاء ) امرأة مغنية ببغداد ونقلها إلى قريته وأسكنها بجوار دار زوجته وكانت ابنة عمه

فدخلت اليها وضربتها بدبوس فقتلتها . وخرج صه اليه فضر به بنشابه قات من ساعته ، فعلم ولده بذلك فضر به صم أبيه بسيفه فقتله « (١) كل هذا يدعو إلى انحلال الأسرة وتفسخها لعدم وجود الروابط التي تربطها وتحافظ على كيانها ، ففسدت الأجيال وفسدت أخلاقها أي فساد . فلم يمد للفضيلة أي وجود ولم يبق للأخلاق الحميدة أي أثر . وانتشرت الخلاعة والمجون والدطارة والفسق . وتفشت بين الناس أخلاق جديدة فيها الخداع والمكر والدسيسة والغدر والكذب وحب الاعتداء على الغير وغير ذلك من شرور .

ولم لا يكون هذا والناس لا رادع لهم من سياسة أو دين ؟ فالسياسة فاسدة ، والدين لم يصد ذلك العامل القوي الذي يسيطر على قلوب الناس ويوجههم في كل أمهاتهم ، فقد تغيرت الحال وأصبح الإنسان أضعف من أن يوجههم ؛ فالخاصة تتظاهر بالدين تظاهراً خصب أما في الباطن فتأتي كل ما ينهى عنه الدين ولا تعمل شيئاً مما يأمر به . أما العامة فقد أصبح الدين عندهم أضعف من أن يصل إلى أعماق النفس وأهون من أن يسيطر على الضمائر وأعجز من أن يوجه الأعمال ، سواء أكانت من علاقة المرء بربه أو علاقته بأخيه فلم يبق من الدين عندهم إلا القشور لذا رأينا إنتشار الموبقات وتفشي المنكرات وعمل المحرمات ؛ فالخمر مباحة بشرها الجميع . واللهو والعبث يقام في وضح النهار دون محرج .

وقد كثرت الخرافات وانتشرت انتشاراً عجيباً حتى شغلت الناس عن كل شيء . وقليل من علماء الدين من أحس بالخطر وشخص الداء وعرف الدواء لكنهم كانوا أضعف من أن يعملوا . فاكفوا بأضعف الإيمان . وكثير منهم انساقوا في ركاب الأسراء ليجزوا لهم المطاء وليتمتعهم بدار الفناء . لهذا رأينا كثرة الفرق الدينية والمذهبية وكثرة تطاحن هذه الفرق مما لا ظائل تحته وبما يؤدي إلى المنازعات والمراك . ووقعت الحروب الكثيرة بين هذه



الفرق الاسلامية وهذا بلاء ما بعده من بلاء ، كان السبب في هدم كيان الأمة وهدم المجتمع الاسلامي . فالتعصب للمذهب فحسب هو أساس المناظرات . وكان سببه عمى البصيرة وظلام القلب وخمول العقل . فقد قامت الفتن بين الشافعية والحنابلة ووقعت الحروب بين الشيعة والسنة ، وكانت السلطة بدورها تنصر فريقاً على الآخر وتفضل مذهباً على الثاني مما يزيد النار اشتعالاً .

هذا هو المجتمع الذي عاش فيه صني الدين فكان لا بد أن يتأثر به ، وكان لا بد أن يظهر ذلك في حياته وفي شعره . فقد نقم على هذا المجتمع ونقم على كثير مما فيه من فساد . ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يقاوم التيار الشديد فانساق فيه على نحو ما سنرى فيما بعد .

## ٤ - الحياة الاقتصادية :

لم تكن الحياة الاقتصادية بأحسن حظاً من الحياة السياسية والاجتماعية ، وأقل فساداً واضطراباً منهما ، فالفساد في السياسة والمجتمع لا بد وأصل الحياة الاقتصادية في كل مظاهرها . فليس هناك أدنى شك في أن الحياة الاقتصادية في كل بلد تتوقف على الأمن والسلم والعدل في ذلك البلد من حيث الشدة والرخاء . وليس هناك أدنى شك أيضاً في أن الحروب تجر البلاد إلى انهيار اقتصادي . فتكثر المجاعات ويحل القحط فيضطر الناس إلى أكل ما لا يؤكل وعمل ما لا يعمل . والحروب التي جرت في معظم البلاد الاسلامية في هذا العصر وما سبقه من العصور حروب مدمرة لا تبقى ولا تذر . فاضطربت الأحوال الاقتصادية في سائر هذه البلاد وحملت المجاعات الخفيفة التي اضطرت بعض الناس إلى أكل أوراق الشجر ونبات الأرض وورق القصب والحلفاء ونجوع أكل لحوم الفيران والقطط وذبح الأطنال وبيع لحومهم ، وباع الفقراء

أولادهم ، وانتحر أناس كثيرون « حتى أن امرأة ألفت بنفسها إلى دجلة لأنها كانت تطلب فلم يعطها أحد شيئاً فأثرت الموت »<sup>(١)</sup> .

ونتيجة لهذه المجاعات كانت الأسعار ترتفع ارتفاعاً فاحشاً مما لا يدع في استطاعة الناس العاديين ومتوسطي الحال شراء حفنة من طعام . ( فابن الفوطي ) يذكر لنا من غلاء الأسعار ما يفوق كل تصور في الأعوام : ٦٦٨ و ٦٧٨ و ٦٧٩ و ٦٨٤ و ٦٨٥ و ٦٨٨ .. الخ . ويضرب الأمثال لغلاء الأسعار فيذكر في سنة ( ٥٦٦٨ ) أنه بلغ الكرم من الحنطة ١٥٠ دينار<sup>(٢)</sup> وفي سنة ( ٥٦٨٤ ) بلغ الكرم من الحنطة ١٨٠ دينار والشعير ١٠٠ دينار ، وبيع الخبز ثلاثة أرطال بدرهم<sup>(٣)</sup> . وفي دمشق بلغ رطل اللحم عشرة دراهم ورطل الخبز درهمين ونصف وأوقية الجبن بدرهم وكل خمس بيضات بدرهم<sup>(٤)</sup> .

وكانت الطبيعة كانت عوناً لهذه الحروب ، فكانت تصيب الزروع والنبات بأنواع الآفات . فتتلف المحاصيل وتزيد في غلاء الأسعار . فتارة يظهر الجراد فيأكل كل الغلات ويقضي حتى على خوص النخل وورق الشجر<sup>(٥)</sup> ، وتارة تفيض الأنهار فتغرق الزرع وتتلف الضرع ، فـكم مرة فاض نهر دجلة فأغرق عدة مدن ووصل الماء إلى ( الحبانية ) - في الصحراء - وتهدمت جدران البساتين وهلكت الأشجار وظهر بعد ذلك ذباب كثير<sup>(٦)</sup> . وكان الفرات يفعل فعل دجلة أيضاً . فقد زاد مرة في سنة ( ٥٦٨٤ ) زيادة عظيمة ففرقت أعمال الكوفة والحلة ونهر الملك وعيمى والأنبار وهيت وزهاب من

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٤٧ .

(٢) الحوادث الجامعة ص ٣٦٦ .

(٣) البداية والنهاية . مخطوط ج . ورقة ١٨٧ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٤٩ .

(٥) الحوادث الجامعة ص ٣٨١ .

(٦) نفس المرجع ص ٤٤٢ .

الاموال شي' كثير<sup>(١)</sup> . هذا مع ملاحظة أن هذه المدن تقع في البادية التي يمكنها أن تستوعب مقادير عظيمة من المياه . ومرة كانت تهب الأعاصير الباردة القارسة فيتجمد الماء ويتلف الزرع وتموت المواشي والأغنام والطيور<sup>(٢)</sup> . ويسقط الثلج والبرد فيميت الحيوان ويتلف النبات ، فكان يتعذر على كثير من الناس الحصول على القوت « لندرة الغذاء وللحاجة والفاقة مع غلاء الاسعار فكان يحتالون بكل طريق للحصول على الدراهم . حتى نسب إلى جماعة من أهل بغداد ضرب الدراهم المزيفة ، فأخذ بعضهم وضرب فأقر على ذلك وكان بين هؤلاء ( نجم الدين حيدر ) وهو من أعيان المتصرفين<sup>(٣)</sup> . وكانت السلطة تضطر في كثير من الأحيان إلى إبطال النقود وتغييرها وضربها ما تعود إليها ثم تستبدلها بمجديدة فيسبب ذلك قلقاً عند الناس واضطراباً في معاشهم . ووضع ( صدر الدين ) صاحب ديوان المال بتبريز سنة ( ٦٩٣هـ ) ( الجار ) وهو العملة الورقية « بدلاً من الدنانير والدراهم وأمر الناس أن يتعاملوا بها قسراً ، فاضطربت أحوالهم وتعدرت الأقوات عليهم فلما عرف ذلك السلطان ( كيخانو ) أمر بإبطالها<sup>(٤)</sup> . وهكذا كان يحل بالناس كل بلاء من فقر مدقم « وجوع شنيع ومرض مريع .

ولم يكن الحكام ليصلحوا هذا الفساد ويرعوا هذا الحال « بل على العكس من ذلك كانوا يرهقون الأمة بالضرائب الفاحشة التي تزيد عن الحد المعقول . ففي سنة ( ٦٧٧هـ ) « ورد تقدم الى ( علاء الدين ) صاحب الديوان لاستيفاء خمسين ألف دينار من بغداد وأعمالها على وجه المساعدة « فشرع في استيفاء ذلك من الناس بالمسف والقهر « ثم أمر بانبات الدور في بغداد فأثبتت جميعها

(١) نفس المرجع ص ٤٤٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٨٤ .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٩٥ .

(٤) نفس المرجع ص ٤٧٧ .

فطالبوا أربابها بالأجرة عنها عن شهرين « وانفرد (مجد الدين بن الأثير) باستيفاء ما قرر على الناس فأغلقت الاسواق واختفى أكثر العالم ، وطولب النساء بما قرر على رجالهن ولم يتخلص من هذا أحد حتى العلويين والقضاة المدول استوفى منهم بالقهر والضايقة «<sup>(١)</sup> . وفي مصر كان (قطز) وغيره من المالك يضطرون إلى جمع المال فيفرضون الضرائب الجديدة على غير سند ، فكانوا يجيرون علماء الدين على الافتاء بصحة هذه الضرائب وشرعيتها .

هكذا كان الحكم يرهقون الشعب في جمع المال بالفساد والقوة والعنف دون مراعاة لضعف حاله « وقلة ماله « وندرة غذائه . وكانت هذه الاموال تكثر وتصرف على ملذات الأمرأه ومجالس لهوم وبناء قصورهم الشاحنة وشراء الخيل والعبيد والحلي والمجوهرات . وليقع للشعب ما يقع فلن يضيرم أي شيء ما داموا رافلين في نعيم مقيم ولهذا كانت هناك طبقتان من الناس : طبقة الأغنياء الثريين وهم قلة ، ويعملون أموالاً طائلة ويعيشون في حياة أشبه بالأحلام ، وطبقة الفقراء المعدمين وهم الأغلبية الساحقة « ويعيشون في فقر مدقع وبؤس عظيم « فمنهم من يضطرون إلى بيع فلذات أكبادهم دفعا لغائلة الجوع والفاقة . ومن أولئك الاغنياء من يموت فيخلف الآلاف المؤلفة من الذهب والمجوهرات والخيل والعبيد فالامير (سلار المصري) خلف بعد موته ثمانمائة ألف دينار عدا المجوهرات والحلي والخيل والسلاح<sup>(٢)</sup> .



ونحسنت الحالة الاقتصادية في السنوات الأخيرة ، نوعاً ما « وإن كان هذا التحسن بسيطاً ، وخصوصاً في الأيام الأولى لحكم السلطان (غازان) . فقد جاء العراق سنة (٨٦٩٦ هـ) وشمل الناس بالعدل والاحسان ولم يتعرض أحد لما جرت عليه العادة من رعي الزروع وغير ذلك وأمر العلويين بمال كثير

(١) نقس المرجع ص ٣٩٨ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٠ .

في النجف و كربلاء وغيرها<sup>(١)</sup> . وفي سنة (٦٩٨ هـ) أمر أن يصنى الذهب والفضة من الفس و يبالغ في ذلك ، وأن تضرب الدراهم والدنانير متساوية الوزن ليتعامل بها الناس عدداً . وأمر أن يعمل ذلك في جميع الممالك<sup>(٢)</sup> . وبدأت الإصلاحات العمرانية تأخذ طريقها أيضاً . فأعيد بناء أكثر العمارات التي هدمت عند هجوم التتار . وبنيت كذلك عمارت جديدة كالأربطة والمدارس والجوامع والمساجد والمآذن وغيرها . فهدأ الناس بعض الهدوء والتفتوا إلى الزراعة واهتموا بالمهارة بعض الاهتمام . وأما التجارة فقد ازدادت حركتها شيئاً فشيئاً ، خصوصاً أن المغول يهتمون بالتجارة ، ويحافظون على الطرق التجارية ، ويرسلون الجنود لحراسة القوافل التجارية . فقد كانوا منذ أيام ( جنكيزخان ) يحترمون النظم الاقتصادية ويسمحون إلى توطيد العلاقات التجارية مع جيرانهم . وحرص ( جنكيزخان ) على حراسة القوافل التي تسير عبر بلاده ، واستمرار هذه العلاقات التجارية بينه وبين جيرانه . وأكبر دليل على هذا تلك المعاهدة التجارية التي قامت بينه وبين ( علاء الدين خوارزم شاه ) والتي لم يحترمها الخوارزميون ففضب جنكيزخان<sup>(٣)</sup> . وقد سهل حكمهم اتصال شرق آسيا بغربها تجارياً فصار التجار يتجولون في طول آسيا وعرضها يبيعون ويشتررون .



ولابد من الإشارة هنا إلى أن الحياة الاقتصادية في مصر كانت أحسن منها في أي بلد آخر ، وبخاصة في أيام ( الملك الناصر محمد بن قلاوون ) . فقد نعمت البلاد برخاء اقتصادي ، وكانت الخزانة مملوءة بأكداس مكدة من المال وهذا مما تأخذه الحكومة من : الخراج وضرائب استخراج المعادن

(١) الحوادث الجامعة ص ٤٩٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٩٨ .

(٣) الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ حمدي ص ٢٥٨ .

والزكاة والتركات الحشرية وضريبة الجوالي والمسكوس<sup>(١)</sup> . وما دامت هذه الضرائب تعود على الخزانة بمال وفير إذا فلابد من وجود رفاه اقتصادي نوعاً ما . وكانت خزائن أسراء الممالك غاصة بالأموال حتى صارت حياتهم الخاصة والعامة حافلة بكثير من ألوان البذخ والترف والنعيم ، يظهر ذلك من عنايتهم بالصيد والسباق والرماية وتربية الخيل والموسيقى والغناء . ومن فرش منازلهم بأنفس الطنصافس والبسط وتزيين أبوابها وسقوفها بالمعاج وتطعيم الأواني بالذهب<sup>(٢)</sup> . فالأمير ( بيمري بن عبدالله الصالحى ) كان له دار عظيمة بين القصرين ، وكان عليه رواتب لجماعة من مماليكه ومواليه وخدمه ، وكان يرثب لبعضهم في اليوم سبعين رطلاً من اللحم وما يحتاج إليه من الثوابل ، وسبعين عليقة . وكان ما يحتاج اليه في كل يوم لصنائه ولدوره ثلاثة آلاف رطل من اللحم وثلاثة آلاف عليقة<sup>(٣)</sup> .

فحالة مصر الاقتصادية في ذلك العصر حسنة بدليل الانتعاش الذي شمل جميع مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة فقد اهتم معظم سلاطينهم بالزراعة فعنوا بأمر مقاييس النيل . وأمرُوا بإنشاء الجسور في كافة أنحاء البلاد<sup>(٤)</sup> وارتقت كذلك بعض الصناعات في مصر وأصبحت لها شهرة عظيمة كصناعة النسيج من أقشة وفرش وبسط . وازدهرت حركة التجارة فقد كانت تمر بمصر تجارة الهند إلى الغرب وبذلك تحسنت تجارتها وراجت أسواق صناعاتها وزادت ثروتها وصار التجار يقصدونها من جميع أنحاء العالم .



وكان الصفي من هؤلاء التجار الذين قصدوا مصر ، فقد جاء إليها مرتين « وبقي فيها زمناً غير قصير وهو تاجر ذو ثروة عظيمة كان يحبوب البلاد المختلفة للتجارة .

(١) تاريخ الممالك البحرية — علي ابراهيم حسن ص ٣٢٢

(٢) تاريخ الممالك البحرية — علي ابراهيم حسن ص ٣٣٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٦ .

(٤) تاريخ الممالك البحرية — علي ابراهيم حسن ص ٣٣١ .

## ٥ - الحياة العلمية :

ليس هناك أدنى شك في أن الحرب تحدث هلعاً في النفوس ، وبليلة في الافكار ، وخملاً في العقول . مما يجعل الحياة العقلية مضطربة إن لم تكن متدهورة . وهذا العصر الذي اصطبغ بالهول والذعر . عصر المذابح والتدمير ، أحدث اضطراباً عنيفاً في الحياة العقلية في العالم الاسلامي كله ، فكم قتل هولاء من العلماء ، وكم أتلف من المكتبات ، وكم أحرق من الكتب . وكم خرب من المدارس ودور العلم والجوامع . وكم قضى على معالم المدنية والعلم والعرفان ! ولكن بالرغم من هذا كله لم يقض على الثقافة العربية الاسلامية القضاء التام . وكل ما حصل هو أن مراكز العلم انتقلت من الشرق إلى الغرب ، من العراق وخراسان إلى مصر والشام . فبعد أن بسط المغول نفوذهم على الأراضي الواسعة من بلاد المسلمين هاجر الكثير من العرب المسلمين إلى مصر وكان من بينهم العلماء العظام والصناع المهرة . وكان كثير منهم يحمل معه الكتب الثمينة والمخطوطات النفيسة لكي يحافظ عليها من الحرق والفناء . وهكذا قضى على العلم والعرفان في البلاد الاسلامية التي سيطر عليها المغول . ولم يعد هناك من يشجع العلم والادب ، ويرعى العلماء والادباء . بل لقد قتل المغول من أهالي البلاد من كانوا نواة الحضارة الاسلامية وتركوا البلاد بين شرذمة من الأتراك لا يعرفون للحضارة طمعا<sup>(١)</sup> .

أما مصر فقد أصبحت مركز الثقافة الاسلامية ، وكمية العلماء والادباء . يحجون إليها من كل حذب وصوب . لاهتمام المماليك - أو بعضهم - فيها بالعلم والأدب ورعايتهم العلماء والادباء . وقد تكاثرت المدارس فيها وفي الشام حتى صارت تعد بالآلاف ، وأهمها في القاهرة ودمشق . وأول من أنشأ

المدارس في الشام السلطان ( نور الدين زنكي ) واقتدى به من جاء بعده من الملوك والسلاطين . وتنوعت المدارس حسب أغراضها ومذاهبها ، فللتفسير والحديث ، والفقه للشافعية والحنفية ، والمالكية والحنبلية ، وللطب والفلسفة والرياضيات . ونخرج في هذه المدارس الكثير من العلماء <sup>(١)</sup> ، فطالب العلم إذاً يجد في المدرسة كل العلوم ؛ علوم الدين واللغة والطبيعة وغيرها . يجد كل ذلك في المدرسة ويحصل عليه بسهولة ودون أيّ عناء . لأن الأساتذة في المدرسة منصرفون إلى العلم والتعليم ، والطلبة منكبئون على الدرس والتحصيل وحتى وسائل العيش كانت مكفولة للطلاب والأساتذ . فكانت توفّر أوقاف كثيرة للصرف على المدرسة ، وترتب للأساتذة والطلاب المرتبات الوافرة . والجراية الدارة . والأغذية من اللحم والحلوى والفاكهة والعابون . وكان للمدرسة أطباء وصيادلة ومكتبة <sup>(٢)</sup> ، وقد اتسمت المكتبات واحتوت أنفس الكتب ، واقتنى السلاطين وغيرهم الكثير من الكتب المفيدة ، فأصبح من السهل الحصول على الكتب ونسخها والنقل منها . وهكذا أصبح طلب العلم سهلاً ميسوراً في مصر وكثرت مراكز العلم فيها . فصارت في القاهرة والاسكندرية والفيوم وغيرها بعد أن كانت في بغداد وبخارى ونيسابور والري <sup>(٣)</sup> .



وقد تحسنت الأحوال في العراق فلم تستمر كما كانت عند ما سقطت بغداد وهوت الحضارة العباسية ، فبعد أن استقر المغول في البلاد الإسلامية استطاعوا أن يتفهموا تدريجاً كنه الحضارة التي وجدوها في هذه البلاد . فدعاهم ذلك إلى العناية بالعلماء ، وخاصة بعد أن تأسست أسرة ( البخانات

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجرحي زيدان ج ٣ ص ١١٥

(٢) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٥٨

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجرحي زيدان ج ٣ ص ١١٣



المغول ( في فارس ) إذ تطبع أفرادها بالطابع الاسلامي ، وكانوا في الوقت نفسه يرتبطون باخوانهم المغول في شرقي آسيا برابطة الدم ، وأدى ذلك إلى سهولة تبادل الثقافات بين شرقي آسيا وغربها <sup>(١)</sup> .

أجل ، فإن الحروب والغزوات تصحبها فترات خمول في النفوس واضطراب في العقول ، ولكن هذا الاضطراب والخلول لا يلبث أن يزول ، إذ أن بالتقاء الشعوب تحتك الحضارات فيؤثر بعضها في بعض ، تؤثر حضارة الغالب في المغلوب ، وتأخذ حضارة الغالب من حضارة المغلوب . وبعد فترة صراع بين الحضارتين تنتج حضارة جديدة مطمعة من هاتين الحضارتين تحتوي على مزايا عديدة . وبعد أن استقر المغول لم يدم ذلك الخمول العقلي والركود الفكري في البلاد الاسلامية إلا فترة محدودة ، إذ أن النشاط في الميدانين العلمي والأدبي لم يلبث أن عاد بعد أن هدأت عاصفة المغول ، ويرجع ذلك إلى أن بعض المؤلفات العلمية نجت اتفاقاً من أيدي المغول وخاصة ما كان منها في المدن الجنوبية من الدولة الخوارزمية ، ثم أن المغول أخذوا يتقبلون آراء المسلمين وأفكارهم ، ورجعوا تدريجاً في اعتناق المدنية الاسلامية والدين الاسلامي ، فبرز الكثير من العلماء والأدباء بفضل تشجيع المغول <sup>(٢)</sup> . ( فنصير الدين الطوسي ) العالم الفلكي العظيم كانوا يحترمونه ويرعونه ، وأسرة ( الجويني ) أسبغوا عليها أكبر الفضل فكان لها قصب السبق في نشر العلم وبرز منها أمثال ( علاء الدين عطا ملك ) ، وكذلك ( رشيد الدين ) صاحب كتاب « جامع التواريخ » . وهكذا انتج هذا الاختلاط بين العرب والمسلمين وبين المغول حضارة جديدة ظهر فيها طابع الحضارة الصينية ، فما لا شك فيه أن المغول تأثروا بالصينيين ونقلوا الكثير من معالم حضارتهم واقتبسوا منهم الشيء الكثير مما غيّر طبائعهم

(١) الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ حمدي ص ٢٦٨ .

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

الوحشية . وهكذا استطاع المسلمون - ولو بعد حين - أن يستعيدوا بعض ما فقدوا ، وأن يعمدوا بناء بعض ما هدم الغول وأن يصلحوا ما أفسدته أيديهم . ليعيدوا حضارتهم العظيمة ، ونهضتهم المباركة ، ولكن المكافأة الأولى بين الدول الإسلامية بقيت لمصر وحدها .



ومما لا شك فيه أن اضطراب الحياة في كل مظاهرها كان يفعل فعله في الحياة الفكرية والعلمية ، فهي مرآة تنعكس عليها شتى مظاهر الحياة المختلفة . فكانت الحياة الفكرية إذاً « بعد تلك المذابح المخيفة والمعارك الدامية والدمار المبيد » متشعبة متضاربة . انشعبت فيها المناهج واختلفت الطرق « وتناحرت فيها الآراء واصطرعت الأفكار . فالعلماء اختلفت مناهجهم وتضاربت آراؤهم وتباينت مبادئهم ، فاشتبكوا في مجادلات عنيفة ، والتحموا في معارك فكرية حامية . وامتدت هذه المنازعات إلى جميع الفرق من دينية وعلمية وسياسية ، فكان النزاع على أشده ، كل فريق يؤيد رأيه بالحجج والبراهين . ولكن أساس هذه المجادلات لم يكن الاقناع الصحيح ، ولم يكن الجدل علمياً بحثاً مبنياً على الحقيقة وطلبها . بل كان أساسه التعصب لفكرة معينة أو التشبث برأي خاص ، لذلك فقد هذا الجدل أم فوائده ، فإما كان ينتج إلا المداوات والمنازعات والمشاحنات والتفرقة بين الناس ، وصاروا فرقاً وأحزاباً . وجرم هذا إلى الدس والوقعة والمؤامرة والخديعة . ولكن قد لا تخلو هذه المنازعات والمنافسات من فائدة ، فقد ساعدت على نشر العلم والمعارف بين الناس ، لأن كل جماعة تريد أن تنشر مبادئها وعلومها وآراءها ، فترغب الناس في التعليم وتساعدهم عليه ، وقد اهتموا بعمل الوسائط الكبيرة التي تضم أشتاتاً مختلفة من العلوم والمعارف والآداب . فهي كتب جامعة تبحث في كل شيء : ( كنهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ) ، و ( صبح الأعشى للقلقشندي ) ، و ( مسالك الأبصار للحمري ) . وكانت هذه الموسوعات

أشبه بدوائر المعارف ■ يجد فيها طالب العلم والأدب كل ما يحتاج إليه .  
ولا جدال في أن العلوم طرأ عليها شيء من التغيير . فبعضها قد تطور  
وبعضها قد توسع ■ ومنها ما ضعف الاهتمام به ■ ومنها ما زادت العناية به .  
ومال الكثير من الناس إلى العلوم الدينية لأن الاضطراب الذي حدث والمذابح  
التي وقعت في هذا العصر دعت الناس إلى الالتجاء إلى باري الخلق مبتلين إليه  
أن ينقذهم من هذه المحن وبخلصهم من هذه الكوارث ، وتقربوا إليه  
بالعبادة وترتيل القرآن والاهتمام بعلوم الدين والتعمق في التصوف ■ وحتى  
العلوم الأخرى أخضعوها للدين ، ولكن لا شك أن هناك من خلط حقائق  
الدين وأصوله بقشور لا صلة للدين بها ، وهو منها براء .

فكانت هناك علوم التصوف والتفسير والقرآن والحديث والفقه ■ وقد  
ألقت فيها المجموعات الضخمة ونبغ فيها الكثير من العلماء . وكان هناك علوم  
اللغة ؛ من نحو وصرف وعروض وبيان وما إلى ذلك ■ وقد كتبت فيها  
الكتب العظيمة ونبغ فيها كثير . وهناك العلوم الأخرى كالتاريخ والجغرافيا  
وعلوم الكلام والطب والهندسة والفلسفة . . .



وكان في الحلة نهضة علمية عظيمة بدأت منذ تأسيسها واستمرت حتى عصر  
المغول . وقد حملت طوال هذه العصور مشعل الحضارة إلى جانب بغداد ،  
وكانت مركزاً عظيماً للثقافة العربية الإسلامية ، خاصة لعلوم الشيعة الإمامية .  
وظلت جذوة العلم لا تنطفئ في الحلة بالرغم من الكوارث التي مرت بالعالم  
الإسلامي ، والمحن التي حلت به . وقد ساعد على هذه النهضة عوامل  
عديدة أهمها :

١ - إن الأمراء المزيديين الذين أسسوها كانوا محبين للعلم فشجعوا العلماء  
وساعدوا على انتشار العلوم والمعارف وبذلوا الاموال الطائلة لهذا الغرض ،  
فأصبحت الحلة جامعة علمية يقصدها الكثيرون من أقصى البلاد لينهلوا العلم بها .

٢ - نجاه الحلة من كواوث هولاء كو . فسلمت الثقافة ودورها ، من مدارس ومكتبات ، من دمار محتم . واستطاعت أن تظل تتدرج في سلم الرقي والمجد فأزدهرت في زمن انهيار كثير من مراكز العلم الاسلامية كبغداد وغيرها .

٣ - استطاع الحليون أن يفتنوا المخطوطات النادرة والكتب النفيسة والموسوعات الفريدة بعد المذابح التي أوقعتها هولاء كو بأهل بغداد ، إذ كانوا يصدرن الأطعمة إلى بغداد ويبيعونها بأثمان باهظة يشترن بها هذه الكتب ويدرسونها . فساعدتهم كثيراً على الاطلاع على آخر ما وصل إليه العلماء من علوم وعرفان وصناعات .

٤ - سهولة اتصال الحلة . منذ تأسيسها ، بما كثر العلم الأخرى بطريق الفرات - كالبصرة وغيرها - وعن طريق البر - كبغداد والنجف - فكانت تزود منها بالعلم وتقابل معها العلماء والكتب . وكانت بينها وبين تلك المدن منافسة شديدة .

كانت هذه النهضة مزدهرة أعظم ازدهار . وظلت ترقى في زمن المغول في شتى العلوم ، فكانت لعلوم الدين مكان مرموق واهتمام عظيم من تفسير وحديث وأصول وفقه ، وبخاصة فقه الشيعة . وكان لعلوم اللغة أيضاً منزلة عظيمة من نحو وصرف وعروض وبيان . وكان هناك اهتمام بالتاريخ وأيام العرب وأخبارهم وحروبهم ، وبالعلوم الطبيعية والفلسفية وغيرها .

وكان العلماء الذين نبغوا في هذه العلوم كثيرون ، فازدهر القرن السابع بعلماء الامامية ومؤلفي علم الكلام وغيرهم ، منهم : ( الحسن بن معالي الباقلائي ) وكان من أئمة العربية . و ( ابن بطريق الأسدي ) وكان من المتكلمين وله مصنفات كثيرة ، و ( ابن نما الربيعي ) شيخ فقهاء عصره . و ( رضي الدين ابن طاووس ) زعيم آل طاووس أهل العلم والتقى ، و ( أبو القاسم المحقق ) الذي حاز من المكانة العلمية ما لم يحزه غيره . وغيرهم كثيرون . وفي القرن الثامن نبغ منهم : ( تقي الدين بن داود ) العالم النحوي المحقق الكبير .

و ( تاج الدين بن معيه الديباجي ) العالم الفاضل الفقيه الحاسب ، و ( العلامة الحلي جمال الدين أبو منصور ) الذي طار صيته في الآفاق وأكبر علماء الامامية ، ومنهم شاعرنا ( صفي الدين الحلي ) الذي تأثر بهذه النهضة المباركة .



وكان في ( ماردین ) نهضة علمية أيضاً حين دخلها الصفي ، فمع أنها ذات حضارة عريقة إذ تقلبت على حكمها أُمم مختلفة من فرس وروم وعرب وأنراك ، أبت كل أمة كثيراً من معالم حضارتها فيها . فقد كانت ملوكها كذلك يشجعون العلم ويرعون العلماء منذ القديم : ( كأحمد بن مروان ) وغيره . وأنشأوا فيها المدارس الكثيرة والجامع العظيمة . ولم يدخر الأرتقيون جهداً لتشجيع العلم فرعوا العلماء وأنشأوا المدارس والمكتبات ، إذ أنها ( حسام الدين تيمور طاش ) المدرسة الحسامية ، وقد دفن فيها لجه للعلم ، وكذلك كان ( الملك المنصور ) الذي عاصره صفي الدين الحلي محباً للعلم مشجعاً للعلماء بكرمهم ويعلي قدرهم ، يهتم بالمدارس والمكتبات ، وقد أكرم الصفي وأعلى من منزلته لعلمه وفضله . وكانت ابنة ( الملك الصالح ) يترسم خطاه فكان يجالس العلماء ويقربهم إليه ، ويقضي لهم حاجاتهم فلقي منه الصفي ما لقي من أبيه من تشجيع وتقدير .

## ٦ - الحياة الأدبية :

إذا كان العلم قد استطاع أن يجد معيماً له في محنته التي أصابته في هذا العصر ، لحافظ على شيء من مستواه وأبعد عنه القضاء المحتم الذي كاد يفنيه عند هجمات المغول على العالم الاسلامي ، ووجد بعض العوامل التي حفظته وصانته ، فان الأدب لم يتهيأ له مثل ذلك ، فقد انتهى عصر عشاق الأدب

من أسماء وخلفاء وغيرهم من كانوا يطلبون العلم ويتلذذون بسماع الشعر ويضطربون له ، وكثيراً ما ينظمون الأشعار . وبينما كان الشاعر والأديب يشتهر بقصيدة أو حكاية واحدة أصبح السلاطين المغول اليوم يهتمون بتدوين حسابات دولتهم « وخط المخرج والدخل » وتدريب الجند . وقد اهتموا بالطب لحفظ الأبدان « والأمرجة » والنجوم لاختيار الأوقات<sup>(١)</sup> . وكذلك كان الاهتمام بالعلوم الدينية لالتجاء الناس إلى الله هرباً مما حل بهم من عن وكوارث « فارتقت هذه العلوم واستطاعت أن تحافظ على مستواها - وإن لم يكن ذلك المستوى الرفيع الذي تمتعت به في أيام العباسيين - إذاً فلا عسر ما كان الاهتمام بالعلوم « أما الأدب فلم يكن هناك من يهتم به « ولم يكن هناك من يرمى المشتغلين به ، وكيف يرمى المحكّام الأدب والأدباء وهم لا يعرفون العربية ؟ فمعظمهم أتراك يتكلمون التركية ويلوون ألسنتهم بالعربية فلا يستطيعون أن يلفظوا بعض ألفاظها .

وهكذا أصاب الأدب خمول وركود ، وطنى على القرائح ضعف وهمود ، وسيطر على الأذهان عجز وخمود « واستولى على النفوس رعب وهجود . فلم تعد دولة الأدب تلك الدولة العظيمة ، ولم يعد للشعر ذلك الميدان الواسع وتلك الثروة الكبيرة . ولم تعد نجد من الشعراء ذلك العدد الضخم الذي تعرفه في العصور السابقة . وإن وجد عدد منهم فلم تكن لهم تلك المنزلة الرفيعة التي كانوا يستطيعون بها أن يفعلوا ما يشاؤون لأن كلماتهم مسموعة عند الخليفة نفسه . ولم تعد تجري عليهم تلك المعطآت السخية والأموال الوفيرة « التي تغنيهم عن أي عمل للحصول على المال وتوفر لهم أكثر القوت - وبخاصة بعد أن أوجد لهم الخليفة الناصر ( ديون شعراء الديوان ) ورتب لهم المرتبات الدائمة - في حين أن شعراء اليوم لا يجدون حتى لقمة يسدون بها رمقهم إذا انكسروا على العمر وحده ولم يشتغلوا بعمل آخر . اللهم إلا في مصر التي كانت

أحسن حالاً وأوفر حظاً من الأقطار العربية الأخرى . إذ كانت الممالك يقربون الشعراء ويرعون الأدباء ويمنون بالشعر لكنهم صرفوهم إلى التأليف في الآداب والعلوم ، وآثروا على شعرهم أناشيد الرجالين ، لأن عجزهم عن فهم العربية الفصحى حجب اليهم الزجل فأناشوا أصحابه فكثرت القول فيه وانتشر . وصار الناس يتغنون به دون الفصحى . وكثرت القول أيضاً في الموشحات لقربها إلى العامية وسهولتها على العامة .

وفي هذا العصر تولد أيضاً ضرب من الشعر اقتضاه فساد الفصحى لكثرة الأتاجم فتولدت طبقة من الشعراء المستعجمة كانوا ينظمون أغراض الشعر المعروفة بلغتهم التي تخلو من الأعراب وتحتوي على كثير من الألفاظ العامية . يبتدي الشاعر في هذه القصائد بذكر اسمه ثم يستطرد إلى النسب فالموضوع الذي يريد النظم فيه . وأهل المغرب يسمون هذه القصائد ( الأصمعيات ) نسبة إلى الأصمعي الراوية . وأهل المشرق يسمونها ( الشعر البدوي ) . وربما يلحنون فيه ألحاناً بسيطة ويسمون الغناء به ( الحوراني ) نسبة إلى حوران من أطراف العراق<sup>(١)</sup> . وجدت أيضاً فنون أخرى من الشعر العامي غير ( الزجل ) ( كالموالي ) و ( القوما ) و ( السكان وكان ) . وقد نشأت في بغداد وانتقلت إلى غيرها من البلدان خصوصاً مصر . وقد نظم صفي الدين في كل هذه الفنون الشعرية وألف كتاباً خاصاً بها سماه ( الماثل الحالي والرخص العالي في الأزجال والموالي ) درس فيه فنونه وأنواعه .



ولما كان الشعر مرآة الحياة ، تنعكس عليه مظاهرها المختلفة . فقد ظهر فيه الانحطاط الذي دب في كل مظاهر هذا العصر ، فبان الضعف فيه . بل خرج من عليائه إلى الخفض . وفقد جماله ورواه وصار كالشجرة التي ألقها

الحريف حين تماطت أوراقها الزاهية فصارت مجموعة عيدان جرداء . وفقد ذلك الروح القوي وتلك الحيوية المتدفقة . وصار جسداً لا حياة فيه لا يهز قلباً ولا يحرك عاطفة . فهو ليس صادراً عن طبع شمري وصدق عاطفي . ويغلب عليه التكلف والتحمل ويصطبغ بالصنعة والتقليد . فاقصيدة عبارة عن ألفاظ مرصوفة وكلمات مرصوفة . فلا عاطفة ولا وجدان ، ولا موسيقى ولا أي ميزة من ميزات الشعر . فكأن الشعر يقال للصناعة لا لغيرها فالتجنيس والطباق والمجازات الغريبة والاستعارات المعجبية ، والأبيات المعجمة أو المهملات . والشعر الذي يقرأ طرداً وعكساً وغير ذلك من الصناعات التي لا تخطر على بال . وكان لصفي الدين وأضرابه السهم الأوفر في مثل هذه الصناعات بمختلف أنواعها ، وكان هم الشعراء في هذا العصر التقليدي ، فكانوا يقلدون الشعراء القدامى فكثرت المـارضات للقصائد المشهورة وكثر التخميس والتشطير والتضمين والاقتباس وسرقة المعاني وما شا كل ذلك .

وأما أغراض الشعر في هذا العصر فهي نفس الأغراض المعروفة في الشعر العربي . إلا أن هناك بعض أغراض زاد الاهتمام بها والاكتثار من النظم فيها ، فالمجون . زاد زيادة كبيرة للضعف الأخلاقي الذي زاد في المجتمع . والانحطاط العام الذي طغى على الحياة . فكان الشعر الماجن الخليع الذي أوغل الشعراء به في الخلالة ، وأسرفوا في وصف الأخبار الفاحشة ، وتفننوا في استعمال الألفاظ البذيئة التي تقهر لها الأبدان . وكثر الغزل بالمذكر وكان يمجج الذوق ويأباه الطبع السليم . وإلى جانب هذا الشعر كان شعر الزهد والتصوف فهناك طبقة مالت إلى التعبد وفزعت إلى الله تشكو إليه ليدفع عنها الكرب ويرفع البلاء العظيم وكانت وسيلتها التمسك والزهد والعبادة فكثير شعر التصوف الذي يمر به هؤلاء عما يحسون به ويفـكرون فيه . وكثر كذلك مدح الرسول وآل البيت وتغنى الشعراء في ذكر القصص التي دعتهم إلى نظم هذه القصائد . واخترع صفي الدين ( البديعية ) في مدح الرسول . وبجانب ذلك



كانت الأغراض المعروفة من مدح وهجاء وغزل ورناء ونخر وحماسة ...

وأما المعاني فكانت سطحية أكثرها قديم مسروق من معاني الشعراء المتقدمين . فحول القرائح قطع عليهم الابتكار والتجديد في المعاني ، فكانوا ينقبون عن شعر من سبقهم فإذا وقعوا على معنى طريف تزاحموا عليه يقلدونه فيأتي تقليد ممتحاً مشوهاً لا روح فيه . ولما كانوا يتمبون أنفسهم في الصناعة البديعية كانت معانيهم تخدم تلك الصناعة .

وأما الألفاظ فكانت في منتهى الضعف والركاكة ، فأصبح الشعر غاية في الاسفاف ، وكثر فيه اللفظ العامي والشبيه بالعامي ، فلم يمد اللفظ يعبر عن المعاني التي يحسها الشاعر وإنما يكمل الصناعة أيضاً .

هكذا كان حال الشعر في هذا العصر ، لكن ... يجب أن لا ننسى أن جذوته لم تنطفي بل ظل بصيص منها متقدماً لينقل الروح الشعري إلى أجيال قادمة تقوم بالنهضة الأدبية الشعرية كما يجب . فلا يمكن أن يضع أدب أمة لها ما للأمة العربية من تراث خالد ، ولها ماضٍ حافلٌ بمئات الأطوار الشاخنة من الأدباء والشعراء . فكان في كل بلد عدد ضئيل من الشعراء المجيدين الذين كانوا هم الشعلة التي أضاءت والنور الذي سطع في عالم الأدب والشعر . وكان من هؤلاء شاعرنا ( صفي الدين ) الذي ظل في شعره شيء من فصاحة اللغة ورشاقة الأسلوب وجمال المعنى وحلاوة التعبير .

ولم يكن النثر بأحسن حالاً من الشعر ، فكلاهما دبٌ فيه الضعف ونخره الفساد ، وكلاهما رزي بما جعله ينوء بأثقال جسام وكلاهما عديمُ فرسانه المجلين . وربما كان النثر أوفر حظاً من الشعر من حيث كثرة المتطفلين الذين داسوا حرمة وأهانوا كرامته فدنسوا أنوفهم فيما ليس لهم فيه ناقة ولا جمل . صحيح إن الذين تطفلوا على الشعر - وهو منهم براء - كثيرون ولكن الذين تطفلوا على النثر أكثر ، فقد اقتحم ميدانه كل من هبٌ ودبٌ لسهولته وخلوه من شروط الوزن والقافية وغيرها مما يشترط في الشعر . وخر من عليائه

ذلك النثر الجميل الذي كان يفخر به الكتاب ، كمبد الحيد إلى الكتاب وابن المقفع... حتى القاضي الفاضل « وجاء مكانه كلام أشبه باللفظ ، تختلط فيه البجمة والرطانة ويمتاز بالركاكة والتفكك ويمتلي صناعة بديعية « ولا يكاد يخلو من السجع الذي يريد كاتبوه أن يخلّوه به أو يقربوه من الشعر . وكان محمواً بأبيات الشعر للاستمانة بها على تجميل الأسلوب ، دون جدوى . وكانت أنواع النثر هي : إنشاء الرسم ، وإنشاء المصنفين ، والخطابة . والجميع سواء في التدهور والضعف والاعطاط .

\*\*\*

وكان في ( الحلة ) نهضة أدبية امتدت جذورها منذ تأسيسها ، وساعد على ازدهارها عوامل عديدة منها :

( أولاً ) أن الأسماء المزيدين الذين أسسوها كانوا محبوبون الأدب ويكرمون الأدباء والشعراء ويميزون لهم المعطاء « وقد شاركوا مشاركة فعلية في النهضة الأدبية فكان الكثير منهم شعراء وأدباء . وكانوا يعقدون النوادي الأدبية ، ويستمعون إلى قصائد الشعراء وينقدون ما يستحق النقد . ( ثانياً ) إن بيئة الحلة عربية خالصة لأنها قريبة من البادية موطن الفصحى الأول « ولأن المزيدين عرب أقحاح فهم من بني أسد .

( ثالثاً ) لأن الحلة تمتاز بجمال مناظرها الخلابة ، وسحر طبيعتها الفاتنة « وهذا مما ينشط القرائح ويرهف الاحساس ويعمق الشعور ويدفع الانسان دفعاً إلى التعبير عما يحس بشعر رقيق جميل .

وقد سملت هذه النهضة الأدبية حين نجت الحلة في هجمات المغول من الدمار والحرب فظلت النهضة سائرة في طريق التقدم والرقى « وظلت شعلة الأدب ساطعة تكشف الظلام . وقد شملت النهضة هذه كل فنون الأدب وأنواعه . وكان هناك كثير من الادباء والشعراء وطلّ رأسهم صني الدين ،

فقد ولد بهذه البيئة المهيبة بمطر الأدب الركي « فنبت في الشعر وصار شاعر  
عصره على الإطلاق .



وفي (ماردين) كان الملوك يعملون للنهوض بالأدب « فكانوا يرمون  
الادباء ويشجعون الشعراء ويجزلون لهم العطاء ويقربونهم اليهم . كما فعل ذلك  
الملك المنصور مع صفي الدين ، إذ آواه وأكرم وفادته وأحسن ضيافته . وكان  
الملك الصالح ابنه يجالس الأدباء والشعراء ويحفظ الشعر وينقده ، وله ذوق  
في اختيار أجود الشعر وقد سار مع الصفي سيرة أبيه فكان يجله ويوقره .



## الباب الأول

# سيرة من شجرة

لئن نلت حدي صروف النوائب      أظلمت سبكي بنار التجارب  
ولي الأدب الباقي التي      وهبني جزاء ، من الأموال ، من كل ذاهب  
هكم فاية أدرحتها غير جامد      وكم رتبة قد نلتها غير طالب



## الفصل الأول

### حياته

سأظل كل صيحة في همه وأبيت كل مشية في منزل  
وأسير مردأ في البلاد وأنني من حشد جيش عزائي في جفل  
أجفو الديار فأت ركبت وضفي سرج المطهم قلت : هذا منزلي

### ١ - نسبه ومولده ونشأته :

صني الدين سنجي طائي « وطى » قبيلة عربية تنتهي إلى قحطان في اليمن «  
فقد كانت تنزل الجوف من أرض اليمن وهاجرت بعد خروج الأزد عند سيل  
العرم . وساروا إلى الحجاز واستوطنوا الجبلين « وكان رئيسهم يومذاك  
( أسامة بن لؤي بن الفوث بن طي ) . وقيل بل هاجر طي نفسه عند سيل  
العرم ومعه أهله وسار حتى دخل أرض الحجاز « وظل يوغل فيها حتى  
استوطن الجبلين « إذ نزلوا ( فيد ) و ( سمراء ) بجوار بني أسد « ثم غلبهم  
علي ( أجأ ) و ( سلمى ) « وهاجبلان ، فاستقروا بها <sup>(١)</sup> . ثم اتسمت طي  
وكثرت كثرة عظيمة وانتشرت في البلاد . وكانت لها مواقف عظيمة في  
الفتوح الإسلامية في الشام والعراق « لذلك تفرقت شاماً وعراقاً وحجازاً .  
وفي الحرب بين الامام علي ( ع ) ومعاوية كانت كثرتهم مع علي  
- كثير منهم أنصار معتدلون وقليل منهم شيعة متعصبون - وكانت  
قلتهم مع معاوية . . . ثم كان قسم منهم مع الخوارج فيما بعد إذا كان

أبناء طيء منقسمين على أنفسهم في الرأي . ويمثل ذلك كثرتهم العظيمة وعدم تقيد أبنائهم برأي أقر بهم وأنسابهم إذا كانوا يرون بينهم خلافاً في المبدأ والعقيدة . ولما جاء العباسيون واستندوا في دعوتهم إلى إعادة الخلافة إلى آل النبي (ص) ، استمالوا الطائيين فكانوا يساعدونهم كثيراً ويدعون لهم . ثم اعتمدوا عليهم فيما بعد في حماية الثغور .

والطائيون أبطال شجعان أشداء . فحين جاء (زيد الخليل) إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مبموئاً من قومه طام الوفود ، قال لعمر بن الخطاب: أما بنو حبة فلو كننا وملوك غيرنا . . . وهم القادة والحماة الذادة . فسأله عمر ما تركت لمن بقي من طيء شيئاً . فقال : بلى والله . أما بنو ثعل وبنو نهران وجرم ففوارس الغدوة وطلاعو النجدة <sup>(١)</sup> .

والطائيون قوم كرماء يحدون بكل ما يملكون وأعز ما يملكون ، ويكفيهم كرماء أن منهم (حاتم الطائي) . وكان في طيء شعراء كثيرون . وفي كتاب الحماسة لأبي تمام أسماء كثيرة جداً منهم . ويكفي أن يكون منهم (حاتم الطائي) في الجاهلية ، و (الطرماح) في العصر الأموي ، و (أبو تمام) و (البحثري) في عصر العباسيين .

و (سنبس) فرع من فروع طيء . ونفذ من أنفاذا ، له ما لطيء من نثار ومجد وعز وسؤدد . وقد انتشر هذا الفرع في العراق كما انتشر في مصر منهم كثيرون . وكان في سنبس شعراء منهم : (محمد السنبسي) الذي كان شاعر المزيديين في الحلة في أيام (الأمير ديبس) .

وصفي الدين من سنبس ، ورث عن أجداده الشجاعة والاقدام وورث الكرم والفضل . وورث الأدب والشعر . فليس ذلك بمجديد عليه أو غريب عنه . وإنما هو متأصل في أعماق نفسه لأنه عند آبائه الأولين أصيل : وإن أشبهتهم في الفخار خلأتي وفعلني فهذا الراح من ذلك الكرم

فالمصني بصرح بذلك في شعره « ويعرف أنه وارثه عن أجداده . لذلك رأيناه لا يفخر بنفسه فحسب وإنما يفخر بنفسه وبقومه معاً :

إنما مفخري بقومي ونفسي وقناتي وصاري وجوادي

معشر أصبحت فضائلهم في الأرض تُتلى بألسن الحساد

ويظهر لنا أن أم صني الدين طائفة سبسية أيضاً لا ننأ عنه يقول :

فـ كيف ولم ينسب زعيم لسنسب إلى المجد إلا كان خالي أو عمي

فأدام السبسيون أعمامه وأخواله فأمه وأبوه سبسيان . وليس هذا بغريب ، فالعرب يحبون الزواج من أقاربهم ليحفظوا دمهم نقياً دون أن يختلط بدم أجنبي .



وقد ولد الصفي يوم الجمعة الخامس من ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وستائة للهجرة النبوية الشريفة ( ٦٧٧ ) الموافق السادس والعشرين من ( آب ) - أغسطس - سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف ميلادية ( ١٢٢٨ ) . في بيت من البيوت الكريمة في الحلة .

وهذا التاريخ هو الذي أجمع عليه كل من ترجم له وكتب عنه من المتقدمين والمتأخرين « كجمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي في النجوم الزاهرة والمنهل الصافي ، وصلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات وأعيان العصر « وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات ، وابن حجر العسقلاني في الدرر الكامنة وغيرهم . إلا أن جمال الدين بن تغري بردي ينقل في كتابه المنهل الصافي رواية أخرى عن ( البرزالي ) ، أنه ولد سنة ثمان وسبعين وستائة . ولم يذكرها غيره « ولم يشر إليها أحد « ولهذا لن نستطيع أن نأخذ بها « ورجعنا سنة سبع وسبعين وستائة لاتفاق الآراء عليها .





واسمه عبدالعزيز بن سرايا بن أبي القاسم بن أحمد بن نصر بن أبي العز  
ابن سرايا بن باقي بن عبدالله بن العريض النسبي الطائي . وأما كنيته فأبو الفضل  
وأما لقبه فصفي الدين . وقد كان استعمال الألقاب شائعاً في ذلك العصر  
خصوصاً ما يضاف إلى الدين كشمس الدين . ويلقب كذلك بالحلي نسبة إلى  
مدينة الحلة التي أنجبته ، فكان ذلك اعترافاً بحمى البلد عليه . وفخر للبلد  
الذي أنجب أعظم شعراء عصره .



نشأ الصفي في مدينة الفيحاء الزاهرة . وفي جوها العربي الصرف وطبيعتها  
الساحرة ، وبين أهلها الكرام الأعراف ترعرع . وكانت نشأته نشأة مرفهة ،  
لأنه ابن قوم هم أكبر أعيان الحلة فربوه تربية ترف ونعيم . وكانت حياته  
حياة هناء وهنداء بال وطمانينة نفس . وكان محبوباً بين الناس ، عزيزاً بين  
أقرانه . وكثر خلانه وأصدقاؤه حتى رأى ذلك أمراً طبيعياً فقال :

ومن يك مثلي كامل النفس يقتدي قليلاً بمعاديه كثير المصاحب  
وكان يلهم مع أقرانه لهو أولاد الأشراف . فكان يخرج معهم إلى  
الصيد ليمتع نفسه بزهة بريئة أو رحلة مسلية :

فقم ففقدتم لنا طيب الهنا والدمر قد من علينا بالمني  
والعيش قد رقت حواشيه لنا ومسمدي شرخ القباب والمني  
فهو غني موفور الغنى . شاب مملوء حيوية وصحة ، فلم لا يلهم هذا الهو  
ولم لا يسري عن نفسه ؟ وإلى ذلك كله فهو يعود نفسه ، بهذه الرحلات ،  
على شطف العيش وخشونة الحياة ليصبح رجلاً يمكنه أن يعتمد على نفسه  
حين تقسو الظروف ، وليتدرب على مبادئ تنفعه عند خوض المعامع .  
كالرمابة وإصابة الهدف وركوب الخيل ومطاردة وحش الفلاة . لأن عصره  
يتطلب من الرجل أن يكون هكذا . وأكثر لما اصطليح به من الفتن والتفائل  
والاضطرابات . فأتقن الفروسية - وإن كان أولاد الأشراف يتعلمونها على

كل حال - وأصبح فارساً مقداماً ، وبرع في ركوب الخيل أي براعة .  
وصار يشار إليه بالبنان في الشجاعة والبطولة ، حتى كان يود أن يظل طوال  
حياته لابساً الدرع والزرده . لباس الحرب والقتال .

ومسرودة من نسج داود نثرة كلع غدير مأوه غير ذائب  
وأسمر مهزوز المعاطف ذابل وأبيض مسنون الغرايين قاضب  
وعندما كبر الصبي واشتد ساعده ، وانضمت مداركه ، وغدا رجلاً يمكنه  
أن يعتمد على نفسه . بدأ يجرب حفظه في ميمان الحياة ونخوض غمرات  
أعمالها فاشتغل بالتجارة ، وصار يحب البلاد متنقلاً من بلد إلى بلد آخر .  
يبيع ويشتري ، يرجع أو يخسر . واستفاد من هذه الرحلات في اتساع الأفق .  
وعمق التفكير . وكثرة التجارب ، ووفرة المال ، فاقتنى الخدم والماليك ،  
وملك الدور والقصور .

وتزوج صفي الدين ، إلا أنه ليس لدينا ما يوضح هذا الزواج ، كيف كان  
ومتى تم ؟ ومن هي التي تزوج بها ؟ . . . أكبر الظن أن سبب ذلك محافظة  
أهلها وأهله ، فهم عرب يحطون التقاليد العربية ما توجب ، ومسلمون  
يحافظون على تعاليم الاسلام . فلا يمكن أن يترك الصبي مثل هذه الأمور ،  
التي تعتبر سرراً عائلياً . مشاعة للجميع . ولا نعرف كذلك ما رزقه الله من  
أولاد . إلا أننا وجدناه يرثي ابناً له في سنة ( ٢٧٦ هـ ) في قصيدة رثى بها  
ابني عمه وأخاه وصديقه ومملوكه معاً :

أني الست والعشرين أفقد ستة جبلاً غدت من عاصف الموت كالعين  
فقدت ابن عمي وابن عمي وصاحبي وأكبر غلماني ، بها ، وأخي وابني  
ولكن كم كان عمر هذا الولد وما اسمه ، وهل كان له اخوة وأخوات وأين  
كانوا ؟ كل هذا لا نجد ما يدل عليه أو يوضحه .

نشأ الصفي في جو شاعري ساحر ، وببيئة أدبية علمية ، فرق إحساسه ورهف شعوره ، وتهذب طبعه ، وجاشت عاطفته ، فأحب الشعر وهو صبي لم يتجاوز السابعة من عمره ، وحفظ الكثير من شعر الفحول ، كاسمري القيس ، والنابغة ، وزهير ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، والمتنبي وغيرهم . وفي السنة السابعة أو بعدها بقليل قال شعراً حسناً وقد صرح بهذا في مقدمة ديوانه :

« وبمدفاني كنت قبل أن أشب عن الطوق ، وأعلم ما دواعي الشوق لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنىً ولفظاً » (١) .

فهو ينظم الشعر ولم يزل صبياً لم يدرك معنى الشوق ولم يعرف دواعيه بعد . وكان يحبه حباً جماً حتى قال :

وإني لمغرى بالقوافي ونظمها      ويبلغ بي حدّ المرور بليغها  
وأطيب أوقاتي من الدهر ليلة      تريخ القوافي خاطري وأريغها  
فما مرّني إلا كلام أسيفه      بمسمع داعٍ أو معانٍ أصوغها

وقد رثى القاضي ( تاج الدين بن وشاح الحلبي ) الذي توفي سنة ( ٦٩٠ هـ ) بقصيدة عظيمة وكان سنه يومذاك لا يزيد على ثلاثة عشر عاماً ومطلع هذه القصيدة :

لو أقادتنا العزائم حالا      لم نجد حسن العزا . محالا  
كيف يولي العزم صبراً جيلاً      حين وارى التراب ذاك الجمالا

ولكن شعره هذا لم يكن إلا في أغراض خاصة كالحماسة والرناء والوصف والغزل ، أما غير ذلك فهو يتعفف عنه ، ويرفع عن النظم فيه .

## ٢ - في الامصار الاسلامية :

كان لأسرة الصفي الرئاسة في الحلة ، وكان خاله ( صفي الدين بن حمزة بن محاسن ) ( صدرأ ) فيها ، وكان ينافسه على هذا المنصب كثير من وجوه الناس ، فكثير حساده وتمدد أعداء الأسرة . وحين اختل النظام واضطرب الأمن في العراق في أواخر أيام السلطان ( غازان ) استطاع آل أبي الفضل أن يقتلوا الصدر ( صفي الدين عبدالرحمن بن حمزة بن محاسن ) غدرأ بمسجده إشفاه لحسدم .

وكان هذا العمل نازلة كبيرة حلت بآل الصفي ، وهم الأعزة الكرام الذين لا يرضون المذلة ، ويلتجئ اليهم كل خائف ، ويمحون كل طريد . فصاروا يتحينون الفرص للايقاع بآل أبي الفضل . وصار الصفي يترقب اليوم الذي يثار فيه لخاله . وجعل يمرض أخواله وأقاربه على النهوض بأخذ ثأرهم :

لا تتركِ الثأر من قوم مرادم إخفاء ذكر لنا في الناس منقشر

وظل الصفي ينفخ بوق الحرب وبضرم نار القتال ، للأخذ بالثأر محرصاً أقاربه وأنسابه . لكنه بُجّ صوته ولم يجبه أحد . حتى الذين كان معهم في أيامهم المدلهمة . فلنستمع إليه بمخاطب أحد أصدقائه قائلاً :

وعدت جيلاً وأخلفته وذلك بالحر لا يجمل

وقلت بأنك لي ناصر إذا قابل الجحفل الجحفل

وكم قد نصرتك في معرك تحطم فيه القنا الذبّل

وكان أقاربه أول من أخلف الوعد فلم يقدموا له شيئاً من العون ، فيئس

منهم وقال لخاله مشيراً إلى ذلك :

قلّوا لديك فأخطأوا لما دعوت فأبطأوا

وتبرعوا حتى نصول فحين صلت تبرأوا

دعهم لا يصل الأشدّة  
لشدهاء نخباً  
فلديك منا فتية  
عن نأرها لا تفتأ

فالصبي يمرض خاله على خوض الحرب بأهله الأقربين دون الالتجاء إلى الأنساب والأصهار ، وهو يخبره أن في أقاربه الأدين فتية لا تترك الثأراً بدأ . وأخيراً وقعت الواقعة إذ جاء اليوم الموعود ، وكان يوماً له ما بعده . فقد اشتبكوا في القتال فطحن الحرب الفرسان طحناً ، ونحطمت السيوف بأعضاء الرجال ، وسالت الدماء غزيرة . تلك هي ( وقعة الزوراء ) التي وقعت في أرض قفراء واسعة قرب بغداد ، وعند قبر ( عبيد الله بن محمد بن صمر العلوي ) الذي يذكره الصفي بقوله :

وسألي العرب والأتراك ما فعلت في أرض قبر ( عبيد الله ) أيدينا  
وقد خاضها الصفي فأبلى بلاءً حسناً ، وأبدى من البطولات ما يشهد بها الأعداء قبل الأصدقاء . وقتل من أعدائه الفرسان الشجعان . قال في ذلك :

سلي الرماح الموالي عن معالينا واستشهد البيض هل خاب الرجافينا؟  
يا يوم وقعة زوراء المراق وقد دنا الأعادي كما كانوا يدينونا  
بضمّر ما ربطناها مسومة إلا لنغزو بها من بات يغزونا

ولكن الصفي بعد هذا كله أصبح مطالباً بدماء كثيرة وثأر لا ينتهي ، فلم يجد بداً من الرحيل عن المراق ، فقد كثرت أعداؤه وصاروا يترصدون به الدوائر للفتك به ، وليتهم يلقونه في ساحة حرب وميدان جلال ، لكنهم يريدون قتله غدراً كما قتلوا خاله من قبل . فاضطر إلى مغادرة وطنه سنة ( ٥٧٠ هـ ) إلى ( ماردين ) ولسان حاله يقول :

كل الذين غشوا الوقيعة قتلوا ما فاز منهم سالماً إلا أنا  
ليس الفرار عليّ طاراً بعدما شهدوا ببأسي يوم مشبك القنا

إن كنتُ أول من نأى عن أرضهم قد كنت يوم الروح أول من دنا  
أبعدت عن أرض العراق ركابي علماً بأن الحزم نعم المقتنى

\*\*\*

وسار الصني في رحلة طويلة شاقة ■ يقطع الفيافي والقفار يتنقل من بادية  
إلى أخرى ، ويمر بوادٍ تلو الآخر ، وحيداً فريداً ليس معه إلا فرسه وسيفه  
وهو يصور لنا رحلته خير تصوير بقوله :

شفها السير واقتحام البوادي ونزولي في كل يوم بوادي

ومقبلي ظل المطية والتر ب فراشي وساعداها وسادي

وضجيجي ماضي المضارب غضب أصلحته القيون من عهد ماد

أبيض أخضر الحديدة مما شق قدماً مرائر الأجساد

وقيصي درع كأن عراها حبك النمل أو عيون الجراد

وندبمي لفظي وفكري أنيسي وسروري مأني وصبري زادي

ودليلي حسن التوسم في البيد لبادي الأعلام والاطواد

وإذا ما هوى الظلام فسكن لي من نجوم الظلام في الليل هادي

وتنقل في هذه الرحلة من بلد إلى آخر ■ ولكنه كان بحث السير ويسرع

الخطى ، لأن له وجهة يقصدها ، فهو لا يقف في البلد الذي يمرُّ به إلا

ليستريح ويريح مطيته ويتزود بشيء من الزاد ثم يواصل السير من جديد :

جبت البلاد ولست متخذاً بها سمكناً ولم أرض الثريا موطناً

حتى أنحت (ماردين) مطيتي فهناك قال لها الزمان : لك الهنا

فهو يقصد (ماردين) ، ليحتمي بكنف الملوك الأرتقيين ، فهم معشر يشدد

بهم أزره ويأمن من شر الزمان :

ولكن لي في (ماردين) مباشراً شددت بهم ، لما حلت بها ، أزري

ملوك إذا ألقى الزمان حباله جعلتهم في كل نائبة ذخري

ودخل الصني (ماردين) فاستقبله أهلها أكرم استقبال ■ وتلقاه ملكها

( المنصور نجم الدين غازي بن أرتق ) أعظم لقاء ، فقال بخطابه في ذلك :

لاقيتنا ملق الكريم لضيفه وضممتنا ضم الكمي لسيفه

وجعلت ربك للمؤمل كعبة هي رحلة لشتائه ولضيفه

ولنستمع إلى الصني بصف رحلته إلى (ماردين) ودخوله إياها في مقدمة ديوانه :

« ثم جرت في المراق حروب ومحن ، وطالت خطوب وإحن ، أوجبت

بمدي عن عريني » وهجر أهلي وخديني . فلما أحصنت إلى مساوات الزمان ،

وأرضاني سخط الهدنان » بمحط رحالي بفناء الملوك بني الملوك ، كهف الغني

والصعلوك » نغر الأواخر والأوائل » ملوك ديار بكر بن وائل ، الأرتق

راتقي فتق الدين » جابري كسر الاسلام والمسلمين

فقيدتي عندهم أنعم هن قيود الأمل السامح

وولكت فكري بمدحي لهم مكارم المنصور والصالح

فدثبتوا بالاحسان قددي » وصانوا عن بني الزمان وجهي وددي ، حدث

لقصدهم مطايا الآمال . . . » فهو يحدثنا كيف أنجه إليهم » ويصور لنا

إكرامهم له واستقبالهم إياه أعظم استقبال ، فاطمان في أرضهم » وارتاح

في حمام » ونخلص من الهموم التي كانت تملأ نفسه » فكتب لأهله في الحلة

ساعة وصوله :

ألا بلّغ ، هديت ، سراحة قومي بحلة بابل عند الورود

ألا لا تشغلوا قلباً لبمدي فاني كل يوم في ضريد

لأني قد حللت حمى ملوك ربوع عبيدم كهف الطريد

فن يك نازلاً بحمي كليب فاني قد نزلت حمى الأسود



ولعل سؤالا هاماً يثار هنا ، هو : لماذا اختار الصني ماردين دون غيرها

من بلاد المسلمين ■

ترى أنوفق في الاجابة عنه ؟

لاشك أن هناك أسباباً كثيرة جعلت صني الدين يختار ماردین دار هجرة ومحط رحال ولا يفكر في غيرها وهي :

أولاً - كانت ماردین تتمتع بحياة هادئة هدوءاً شاملاً بالنسبة إلى البلدان العربية والأقطار الإسلامية - على الأقل - وخصوصاً في عهد الملك المنصور الذي قال عنه صاحب ( تاريخ ماردین ) : « كان صاحب شوكة وسلطان ... يرى في زمنه الشاة والذيب » وبفسى أوطانه كل غريب ، وأصبحت ماردین به عامرة ، والأسواق كثيرة وافرة ، والأسعار رخيصة متكاثرة <sup>(١)</sup> . فهذا الوصف وإن كان فيه مبالغة لا تقبل إلا أنه دليل أكيد على الهدوء والاستقرار والرفاه الذي كانت تتمتع به ماردین ، فلم لا يتجه الصني إلى هذا البلد البعيد عن الحلة فينعم فيه بالهدوء والاستقرار والأمان ؟ .

ثانياً - كان في هذا البلد بعض بطون طيء المنتشرين في أرض الجزيرة أيضاً ، فلم لا يقصدهم الصني ليحتسبهم ، والعرب يحمون المستجير وإن كان غريباً ، فما بالك بأبن عمهم ؟ .

ثالثاً - كان بين الحلة وماردین صلات قوية وروابط متينة منذ عهد الأمراء المزيديين « وازدادت هذه الروابط قوة بالمصاهرة التي تمت بين ( ديس بن صدقة ) أمير الحلة ( ونجم الدين إيلغازي ) « إذ تزوج ديس الأميرة ( كوهرخان ) ابنة إيلغازي . وكانت هناك حادثة تشبه حادثة صني الدين « فقد التجأ الأمير ( ديس بن صدقة ) إلى الملك إيلغازي عند ما دارت عليه الدوائر في حروبه مع جيوش الخليفة العباسي ( المسترشد ) ولم يجد بداً من الحرب بجلده إلى ماردین . وهكذا أعاد صني الدين نفس الدور بعد قرنين أو أكثر من الزمان « والتاريخ يعيد نفسه .





لقي صني الدين في مارددين من الحفاوة ما لم يكن يحلم به ، فقال في ذلك :

وزرت ملوكاً كنت أسمع باسمهم      فبينهم ضي شوقي وبقيعدي أمني  
فلما تلاقينا وقد برح الخفا      رأيت مقلتي أضعاف ما سمعت أذني

أجل ، فقد كان يسمع بهؤلاء الملوك من آل أرتق ، ويروي الأحاديث الطوال عن كرمهم وجودهم وأخلاقهم فكان يتمنى زيارتهم . حتى إذا اضطُر إلى ذلك ودخل حمام رأى منهم أكثر مما سمع فارتاح عندهم وهداً روعه وأطمأن قلبه . وصار يتمتع بحياة ناعمة . فيها الهدوء والسكينة وفيها الاحترام والاجلال ، حتى تبدل خوفه أمناً ، وجوعه شبعاً :

به تناسيت ما لاقيت من تعب      ولذة الشبع نفسي شدة السغب  
بأدرته وعقاب الهم يطردني      واليوم قد طاد كالعنقاء في الهرب

ويظهر لنا من شعر الصفي أن الأرتقيين قد رتبوا له ( مرتباً ) ظل بحري عليه أمداً طويلاً . ورأى أحد نواب ( الملك الصالح ) أن يقطع عن الصفي هذا المرتب فعاتبه بقصيدة منها :

عذرتك حين حلت وأنت بحر      لأن البحر في مدّ وجزر  
فإن أكُ قد أسأت لك التقاضي      فلا يخفى على مولاي عذري  
بأنني لا بني بالخارج كيمي      ولست أضيع بالتقتير صمري

فالصفي يرى أنه يصرف أكثر مما يكسب من عمله في التجارة . وقد اعتاد هذا فأصبح طبيعة فيه . وهو لا يستطيع التقتير ، فرتب له الأرتقيون مالاً يستعين به على قضاء حاجاته وموازنة مصروفاته .

وقد حرّكت هذه المعاملة الطيبة نفس الصفي . فانبثقت عاطفته نحو الأرتقيين وقال فيهم غرر الشعر ودرر القصيد . ولما كان قد آلى على نفسه ألا يمدح أحداً مهما يكن عظيماً ، فقد أصبح اليوم يقول إنه سيقف شعره - مدبجه - على ( الملك المنصور ) وابنه ( الملك الصالح ) ولن يمدح غيرهما . وقد نظم في

مدح الملك المنصور ديوان شعر سماه ( درر النحور في مدائح الملك المنصور ) وهو تسع وعشرون قصيدة مرتبة على حروف الهجاء .

ويظهر أن هذا العام - ٧٠١هـ - وهو العام الذي قدم فيه الصني إلى ماردين - أغزر أعوامه إنتاجاً في الشعر . فقد نظم فيه كثيراً من القصائد الطوال والمقطوعات القصار . إذ كانت طائفته متدفقة كالسيل النهر . وأرسل شعراً كثيراً إلى أهله وأقاربه وأصدقائه في الحلة وفي العراق يصف لهم حاله وبفتاق اليهم .

وكان الملك المنصور يصحب صني الدين في كل رحلاته وتزهاته ، ليكون معه دائماً ، يطرب سمعه بأغاريده المذبة ويطرفه بنوادره الظريفة . وكان يصحبه كذلك في حروبه لينشد أشعاره الحماسية يلهب بها عاطفة الجند ويشجعهم على القتال . ويصف المعركة بعد أن يتم النصر فيخلده بشعر رائع رصين ؛ فحين ذهب المنصور على رأس جيش لفتح قلعة أربل سنة ( ٧٠٢هـ ) كان الصني معه . وبعد أن تم فتحها أنشد الصني قصيدته التي مطلعها :

لا تخش يا ربع الحبيب همودا      فلقد قد أخذت على المهاد همودا  
وكان شعره يلاقي بالاعجاب والاكرام      فيسري على الألسنة      ويصبح  
ملء الأسماع ، وينشده القاصي والداني ، فأصبحت له شهرة عظيمة وذاع  
اسمه في البلدان . وطار صيته في الآفاق . وصار الملوك يخطبون وده ويطلبون  
صداقته ، ويتمنون مديحه ليخلد ذكركم بقصيده الخالد العظيم . فإذا ما جاءهم  
أكرموا وأدنوا اليهم حتى يصبح واحداً منهم . فيميش عزيز الجانب كبير  
المنزلة :

إذا وافيت يوماً ربع ملك      لي المربع فيه والصفابا  
تلاحظني الملوك بعين عز      وتسكروني وتحسن بي الوصايا  
أجاورهم كأنني بين أهلي      وكل من صراتهم سرايا  
ولم يكن احتفاء الناس به وإكرامهم      له بأقل من احتفاء الملوك وإكرامهم .

فقد أحسنوا تقديره وزادوا في إعترازه . فكان يرى نفسه وكأنه بين أهله وإخوانه ، تخفف ذلك عليه ألم الفراق ، وأنساه الهموم السابقة والمحزن الماضية . ولكنه كان يحنُّ إلى وطنه بين الحين والحين . فلا يمكن أن ينسى ذلك الوطن الذي ولد فيه وترعرع . ورباه على الترف والتعيم والعز والفخار ، فكان يرسل الزفرات الحارة والنفثات المؤلمة والأنات المؤثرة :

طارقت زوراء العراق وإن لي قلباً أقام بربعه المألوف  
فلا تئين عن العراق أعنتني وأطيل في تلك الديار وقوفي  
فيها بدور في خلال مضارب وشموس دجن من وراء سجوف  
.....



وكان للمصني - بطبيعة الحال - بيت في ماردين . وقد وصف هذا البيت بقصيدة يدعو بها أحد أصحابه لزيارته في البيت قائلاً :

ونحن بمنزل لا نقص فيه رحيب الربع مرتفع البناء  
وفي داري بخاري وخيش أعداء للصيف وللشتاء  
فهذا فيه ( شاذروان ) نار وهذا فيه ( شاذروان ) ماء  
.....

فهذه الدار من الدور الفخمة التي يسكنها الأمراء والأعيان ، فهي مرتفعة البناء شاهقة العلو ، وهي كاملة من جميع الوجوه . فيها كل ما يحتاج إليه المرء من حاجات ووسائل . وهي معدة إعداداً خاصاً بحيث تلائم جميع الفصول . فلصيف مكان فيه ما يلطف الجو ويبرد الهواء ويكسر من حدة الحر من نافورات مائية وأحواض وما شاكلها . وللشتاء مكان فيه ما يساعد على التدفئة وطرود البرد ومنع الرياح القارسة من التغلغل في المكان ، ففيه مواقد نارية وشبايك زجاجية تمنع الهواء والبرد وتدخل أشعة الشمس

الدافئة ، ولا بد أن يكون مثل هذا البيت مفروشا بأعلى الطنافس وموثقا بأحسن الأثاث .

وقد وصف الصني بيته هذا في قصيدة أخرى بنفس هذه الصفات وكان يستدعي صديقا آخر لزيارته في بيته ومطلع هذه القصيدة :

فزرنّا إن مجلسنا أنيق يكاد يعيد منظره الشبابا

يقابله بخاري تلظى فتحسب حر آب منه آبا

له تاج يريك النار نجلى وننظر للدخان بها احتجابا

هذا هو البيت الذي كان يعيش فيه صني الدين في ماردين .



وحين هدا الصني وذهب خوفه لم يجد بدا من العمل لكسب قوته ، فهو لا يرضى أن يعيش مالة على غيره ، ونفسه الأبية تأنف أن يكتفي بما يصل اليه من مال من الملوك والأمراء ، قلّ أو كثر . فلا بد إذا من العمل . ورأى أن يعود إلى عمله المحبب . وهو التجارة . فعاد بجوب الأقطار ويرحل إلى البلدان المختلفة وينقل البضائع من مكان إلى مكان ، فتمت ثروته وأصبح ذا غنى وفير . وقد داعبه مرة الملك الصالح بأنه يحب جمع المال لكونه تاجرا وجمع المال من طبائع التجار فأجابه شعرا :

مملوكك اليوم أبو حبة مجتهد في خسة النفس

يزاحم الحمال في قوته ويجمع الفلس على الفلس

وقد أثرت التجارة في نفسه وتفكيره . وصار يفكر كما يفكر التاجر هند عقد صفقة تجارية ، وزن الأمر بميزان دقيق مقارنا بين الربح والخسارة . وأكثر الربح وأقل الخسارة . استمع اليه يقول :

تقول لي العمياء إذ زرت ربعة رويدك كم في الارض تشقى وتكدح؟

إذا كنت ترضى أن تعد بتاجر هلم ففيه تاجر المدح يربح

وقد علمته التجارة أن ينتمز الفرص التي تواتيه ، فهي لن تعود ثانية :

فانتهاز فرصة الزمان فليس المره من جور صرفه في أمان

★ ★ ★

وكان كثير التردد على ( حماة ) لاتصاله بصاحبها ( الملك المؤيد محمد الدين اسماعيل بن الأفضل أيوب ) ، وقد كان يكرمه ويمزه ويحمله ، ويقدم الكثير من الهدايا والتحف . وكان الصفي يشكره على إنعامه لكنه لا يمدحه كدحه للأرتقبيين . أهدى إليه مرة تحفاً كثيرة « وقدم له كسوات البيت ومهامه فشكره بقصيدة مطلعها .

جزاك الله عن حسنالك خيراً وكان لك المهيمن خير راعي  
وعند وفاة ( الملك المؤيد ) كان الصفي في حماة ، فحضر موته وورثاه بقصيدة نحتسأ نونية ابن زيدون المشهورة :

كان الزمان بليقيا كم يميننا وحادث الدهر بالتفريق يثنينا  
فعندما صدقت فيكم أمانينا «أضحى التائي بديلاً من تدانينا»  
« وناب عن طيب لقيانا تحافينا »

وتقلد السلطة بعد ( الملك المؤيد ) ابنه ( الأفضل ) ، فهأه الصفي بقصيدة عصاه :  
طائده في الحب أعوانه وخانه في الود إخوانه  
وقد سلك الأفضل سلوك أبيه في احترام الصفي وإكرامه وإرسال الهدايا إليه . أرسل إليه مرة تحفاً وهدايا إلى ( ماردين ) فشكره الصفي بقصيدة أرسلها إليه وأهداه معها مملوكاً تركياً وقاشاً من نسج ( ماردين ) .

★ ★ ★

وقد استطاع صفي الدين أخيراً أن يدخل العراق ، ولكن يظهر أن دخوله العراق لم يشمل الحلة ، فلم يدخلها ، وقد كان حذراً كل الحذر ، فهو لا يمكث في العراق طويلاً إذ سرعان ما يغادره إلى ( ماردين ) أو غيرها خوفاً من الأعداء المتربصين له . وبالرغم من قصر الوقت الذي كان يمضيه في العراق

كان يرسل إلى الملوك الأرتقيين القصائد الحسان من هناك . فهذه قصيدة أرسلها إلى ( الملك الصالح ) بمدحه فيها :

ما بين سيفك والجفون مواعد فيفي إذا خبرت أني راقد  
وفي إحدى زيارات الصفي بغداد جاءها ( الملك المنصور ) « وكاد الصفي يطير فرحاً ومدحه بقصيدة بدأها بقوله :

كيف الضلال وصبح وجهك مشرق وشذاك في الأكون مسك يعبق  
وتفاء الظروف أن يموت ( الملك المنصور ) في ( ماردين ) سنة ( ٧١٢ هـ ) بينما الصفي في بغداد ، فاكاد يسمع نعيه حتى أسرع إلى ( ماردين ) لحضور العزاء ، وقد أعد قصيدة مصباه يرثيه بها مطلعها :

يا بدوراً نضي تحت التراب وجبالاً تمر مر السحاب

إلا أنه حين وصل ( ماردين ) كان العزاء قد انقضى وطاد أولاد المنصور إلى مجالس الأنس والطرب « فحضر الصفي أحد هذه المجالس وأنشد قصيدة بدأها بوصف الحجرة ورثى بها الملك الراحل :

أدورها بأمن لا يغيرك الوهم وزف على الجلاس ما خلف الكرم



وجاء ( الملك الصالح ) فنهج نهج أبيه في احترام الصفي وإكرامه وتقديره حق قدره ، بل لقد زاد على أبيه في ذلك « فصار يحمله أعظم إجلال وصار الصفي يلزمه دائماً ويقضي معه النهار ومعظم الليل « ويشاوكه في مجالس الأنس والشراب « ويخرج معه إلى الصيد « ويمتدز إليه عندما يطول عنه غيابه . وحين يغادر الصفي ( ماردين ) في رحلاته التجارية يشتاق أحدهما للآخر فيرسل الصفي قصائده مبيناً هذا الشوق ومعبراً عن تلك الهممة للقائه . أرسل إليه من دمشق هذه القصيدة :

أعد ، إذا فارقت مفناك « ناجراً فان إبت ظنوني شريكك في الملك

وهذا البيت وحده كافٍ لتصوير ما كان يتمتع به (ابن سرايا) من حب وتقدير وإجلال عند (الملك الصالح) .

وكان صفى الدين يحسن مجالسة الملوك ، فهو ابن حسب تليد ومجد أصيل ■ يعرف كيف يعاشر الملوك والأمرأه ، وكيف يقضي معهم الأوقات ، فلا يملونه ولا يضجرون منه ، لأنه يعرف كيف يتحدث إليهم فيدعوم إلى الانصات ■ ويحسن الاستماع حين يتحدثون . وهو يجيد اختيار العبارات التي تدل على احترامه لهم وإجلاله إياهم .

وقد أقرم الصفى نفسه ■ مدة شهر ■ حضور مجلس (الملك الصالح) ووصفه ، حين يخيم ظلام الليل ويضاء المجلس بالشموع ، قال في ليلة :

أهلاً بها كالقضب في كثبانها	جعلت شواظ النار من تيجانها
شبه إذا جلت الظلام جيوشها	جلبت جيوش الصبح قبل أوانها
.....	.....

زهر حمكت خد الحبيب وإنما	تحكي فؤاد الصب في خفقاتها
لهبت وقد رأت الظلام ولم تكن	تالله لاهية لضعف جناها
.....	.....

وفي ليلة أخرى :

أهلاً بشهب في سماء المجلس	هتكت أشعتها حجاب المهندس
زهر إذا أرخى الظلام ستوره	فعلت بها كصحيفة المتلئس
هيف القدود تريك بهجة منظر	أبهى لديك من الجواري الكائنس
.....	.....



وكان يمرض الملك الصالح على قتال المغول ويستنهضه لجرهم ، وهو يرى أنهم مفتصبون للبلاد الاسلامية ، وأنهم غزاة ظالمون ، لذا يجب مكافحتهم وطردهم وتخليص البلاد من شرهم :

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال الملا من قدم الحذرا

ومن أراد الملا عفواً بلا تعب      قضى ولم يقض من إدراكه وطرا  
.....  
يا أيها الملك الباني لدولته      ذكر أطوى ذكر أهل الأرض وانتشرا  
كانت عداك لها دست فقد صدعت      حصاة جدك ذاك الدست فأنكسرا  
فادفع إذا غدروا سوط العذاب بهم      يظلُّ يخعلك صرفُ الدهر إن غدرا  
وارعب قلوب العدى تنصر بحربهم      إن النبي بفضل الرعب قد نصرنا  
.....



ولقد استطاع الصفي بمحكم أعماله التجارية أن يزور أكثر البلاد العربية ،  
فرأى لزماً عليه أن يزور ( الحجاز الشريف ) فهو مسلم شديد الإيمان  
بإسلامه يقسّد دينه ويحترم تعالجه ، وهو غني موفور المال ، والاسلام  
يوجب على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً . فأعد الصفي العدة  
لهذا الحج سنة ( ٨٧٢٣ ) وسار ميمماً شطر الحجاز . فودّع ماردّين وداعاً  
مؤثراً ، وودّع ملكها الصالح وداعاً حاراً ، وقد تألم كثيراً لهذا الفراق  
بالرغم من أنه كان يرحل كثيراً طوال العام ، فكأنه كان يحس من أحماق  
نفسه أنه سيتأخر في هذه الرحلة طويلاً ، وأن السفر سيمتد به إلى أمد غير  
قصير . وحين وصل ( مكة ) ودخل الكعبة الشريفة وقف خاشعاً لله وأنشد :  
يا ربّ إني دخلت بيتك والدّاخِل بيت الكريم في حِسه  
لا يَخْشِي سَخَطه عليه ولا يَحْذَر من مَكْره ولا غَضبه  
وحين دخل ضريح الرسول ( صلى الله عليه وسلم ) وقف فيه وأنشد طالباً  
الشفاعة :

بكم يهتدي يا نبي الهدى      وليّ إلى حبّكم ينتسب  
به يكسب الأجر في بعثه      ويخلص من هول ما يكتسب  
وقد أمّ نَحْوَكَ مستشفعاً      إلى الله مما إليه نسب



وحين إنتهى من مناسك الحج واستمد لمغادرة الأرض الطاهرة أرسل قصيدة إلى الملك الصالح :

أني ليطربني المذول فأنتني فيظنُّ أني عن هواكم أنتني  
ونلاحظ أن الصفي لم يذكر في هذه القصيدة شيئاً من مناسك الحج  
وشماثره في حين أنه ذكر ذلك في القصيدة التي هنا بها قاضي القضاة ( بماردين )  
عند عودته من الحج سنة ( ٧٢٥ هـ ) إذ قال :

فقصدت البيت الحرام فأقصيت بسهم الردى قلوب العداة  
ولكم قد حرمت في يوم أحرمت ، لذيذ السكرى عيون البغاة  
ثم لبيت منعماً حين لبيت نداً من دعاك للمكرمات  
وسميت السعي الحنيف وكم قد جزت في المكرمات سعي السعاة  
ورميت الجمار في كبد الأعداء لما رميت بالجرات

.....

وكأنه لم يرد أن يفخر بهذا على الملك الصالح الذي لم تكتب له حجة البيت  
الحرام في ذلك العام . ونلاحظ كذلك أن الصفي لم يحدد تاريخ هذه الرحلة  
متى بدأت ، وفي أي يوم انتهت . وليس هناك سوى ذكر العام الذي نظمت  
فيه هذه القصيدة وهو ( ٧٢٣ هـ ) وغادر الصفي الحجاز ، ولكنه لم يتجه  
إلى العراق ولا إلى ( ماردين ) ولكنه يعم صوب مصر .



كانت مصر منذ أقدم العصور قبلة الشعراء والأدباء ، ومقصد طلاب المال  
والجاه ، فكان كثير من الشعراء يحجون إليها ويعيشون في ربوعها زمناً  
يطول أو يقصر . . .

ففي مصر الأموي وفد إليها : ( كثير عزة ) ، و ( جميل بتينة ) و  
( عبيد الله بن قيس الرقيات ) .

وفي العصر العباسي الأول جاءها : ( أبو نواس ) ، و ( دعبل الخزاعي ) ،

و ( إبراهيم بن العباس بن الأحنف ) « و ( ابن المولى ) « و ( ربيعة الرقي ) ،  
و ( أبو تمام الطائي ) .

وفي العصر العباسي الثاني وردھا « ( المتنبّي ) و ( الناشي الأكبر )  
- أبو العباس محمد بن شرشير - و ( الناشي الأصغر ) - أبو الفضل سوار  
ابن شراعة - .

ولم يكن نصيب الحلة معدوماً في قاصدي مصر من الأدباء « فقد أوفدت  
منها بعض أجلانهم في مختلف العصور ( كراجع الحلي ) . وفي القرن السابع  
جاء إلى مصر من أدباء الحلة : ( محمد بن علي بن الفضل الحلي مذهب الدين  
الطحبي ) « الذي ولد بالحلة وفيها تعلم وثقف ثم رحل إلى مصر فعمل كاتباً  
بالديوان ثم مات بها . و ( ابن بطريق الحلي ) وغيره .

إذاً فهناك اتصال أدبي بين الحلة ومصر قبل أن يجيء الصفي ، فليس الصفي  
بداية هذا الاتصال وإنما هو إحدى حلقاته .

وحين دخل صفي الدين مصر لقيه فيها العلماء والأدباء باحترام وإكبار .  
قال الصفدي : « . . . واجتمع بالقاضي فسيح الدين وبأثير الدين ومشايخ  
ذلك العصر ، ولما دخلت بعده وجدتهم يثنون عليه »<sup>(١)</sup> . وقد كان للصفي  
في مصر أصدقاء أعزاء من الأدباء والعلماء والقضاة ورجال الدولة منهم :  
( صلاح الدين الصفدي ) العلامة الفاضل والأديب المؤرخ ، والشاعر المبدع  
( جمال الدين بن نباتة المصري ) « وقاضي القضاء ( علاء الدين بن الأثير ) «  
وكان يحله ويحترمه ويحب شعره حباً عظيماً ، وهو الذي قدمه إلى السلطان  
( الملك الناصر محمد بن قلاوون ) .

وحين دخل الصفي إلى هذا السلطان العظيم ، وكان السلطان قد سمع بمنزلة  
الصفي العظيمة عند الأتقيين واحترامهم له ، وسمع بعلمه وأدبه وفضله «

وَيُؤَيِّ شَيْئًا مِنْ شَمْرِهِ . أَكْرَمَهُ وَزَادَ فِي إِكْرَامِهِ وَأَعْظَمَ مِنْ إِجْلَالِهِ .  
وهنا يدخل الصفي طوراً جديداً من حياته وحياة شمره ، فقد اضطر إلى  
الحث بأليته التي أقسم بها أن لا يمدح سوى الملك المنصور وابنه الملك الصالح ،  
وها هو اليوم يرى لقاء الملك الناصر له واسباغه عليه أكبر الفضل وأوفر النعم .  
حتى استلب طافقه واستولى على قياده فأوجب عليه مدحه . يقول في مقدمة  
ديوانه : « . . . قذف بي خوف بلادي إلى الديار المصرية » وأهملتُ للشغل  
في الحضرة الشريفة الملكية الناصرية « وشملني من الانعام ما فاجأني به ابتداءً  
ولم أملك له خيراً ، أزميتني المروءة مكافأة تلك الحقوق » ورأيت كفرانها  
كالمقوق « وأن تكفير تلك اليمين أولى من كفران أنعم النعمين ، فنظمت  
في معاليه ، ما طاب لفظه ومعانيه . . . »

فاستقبال الناصر له في الدين هذا الاستقبال اللائق بالأدباء الكبار والعلماء  
المتأزين لا شك مما يثالج صدر الصفي « فقد كان الناصر أعظم سلاطين المسلمين  
وملوكم في ذلك العصر لأنه سلطان مصر زعيمة البلاد الإسلامية ، ومحط آمال  
المسلمين ومهوى أفئدتهم . فهي مركز الخلافة الإسلامية - وإن كانت  
الخلافة إسمية يومذاك - وحاميصة الدين « ورعاية العلم والأدب ، ومهجر  
العلماء والأدباء . وذلك مما اضطر الصفي إلى مدح الملك الناصر مهما تكن  
الظروف التي تحول دون مدحه . وقد وازن الصفي بين كفتين موازنة دقيقة ،  
الأولى : تكفير الأليّة التي توجب عليه أن لا يمدح غير الأرتقيين ، والثانية :  
كفران النعمة العظيمة التي أسبغها عليه الملك الناصر « فرأى أن الثانية عقوق  
وأبي عقوق ، وجحود أعظم الجحود « وأما الأولى فهي أهون خطراً وأقل  
شراً « فدح الناصر بالقصائد العظيمة . وكانت أولى هذه القصائد معارضته  
لبائية المتنبي التي يمدح بها « علي بن منصور الحاجب » ومطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا      اللابسات من الحرير جلابيا

وليس قصيدة الصفي بأقل من قصيدة المتنبي جودة وجالاً ، وقد بدأها بقوله :

أسيلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا  
ويظهر أن الصفي ، بالرغم من أن المدة التي أقام أثناءها في مصر ليست طويلة بحيث يمكنه أن يقوم بكل ما يصبو إليه ، استطاع أن يوطد صلاته بالملك الناصر فأصبح ملازماً له ، يرافقه في تنقلاته ورحلاته . فقد ذهب معه إلى ميدان مصر لحضور اللعب بالكرة وأنشد مقطوعة مدح بها الملك الناصر ووصف اللعب قائلاً :

ملك يروض فوق طرف طارح كرة ( بجوكان ) حكاها ضرابا  
فكأن بدرأ في سماء راكباً برقاً يزحزح بالهلال شهابا  
وذهب معه إلى ( كسر الخليج ) فدحه بقصيدة مطلعها :

خلع الربيع على غصون البان حلاً فواضلها على الكشبان

ورأى الملك الناصر جمال شعر الصفي وروعة قصائده ، فطلب منه أن يجمع شعره في ديوان ليكن أن يطلع عليه من أحب ذلك ، فلم يسمع الصفي إلا أن يجيب طلب الملك الذي أكرمه واحتفى به حفاوة بالغة ، بل اعتبر هذا لفتة كريمة منه إلى للصفي وشعره . فلولا حب الناصر للصفي وشعره لما اهتم به إلى هذا الحد . ولم يسمع الصفي كذلك إلا أن يقدم مدائحه للملك الناصر على غيرها من المدائح . مجاملة لهذا السلطان الذي جمع الديوان بإشارة منه . وتم تدوينه في بلاطه . ولتستمتع إلى الصفي نفسه يتحدث عن ذلك : « ... أشار رئيس وزرائه » وزعيم كتاب إنشائه عن إشارته العالية أن أجمع له أجزاء من جد شمري وهزله « ورقيق لفظي وجزله ، وأب أبوبه أين تبويب فأجبت بالسمع والطاعة . . واقترض الأديب أن أسم الكتاب بوسمه ، وأشرّف باب المديح بتقديم لقبه الشريف واسمه » .

ومع كل هذا الاكرام الذي لقيه الصفي من المصريين حكومة وشعباً ،

فانه لم ينس الأرتقيين بل كان يفكر فيهم ليل نهار لم يغيبوا عن مخيلته لحظة واحدة . ولم يبرحوا ذهنه برهة قصيرة . وكيف ينسى الذين التجأ اليهم فأووه وأكرموه وحافظوا عليه من غوائل الزمان ؟ فكان يرسل اليهم القصائد وهو في مصر . يقول للملك الصالح :

أجرد كي أجرد سيف مدحي      فيذبو عن سواك به لساني  
وأنظم مدح غيرك والقوافي      تمض علي أطراف البنات  
وأظهر حيرة في بسط عذري      وأخفي ما يحزن لكم جناني  
فان أفعل تأملت المعالي      وإن أنسل تظلمت للماني

فالصفي يصور حاله عندما يريد مدح غير الملك الصالح . فلا يستطيع أن يفعل ذلك لأن مديحه يجب أن يقتصر عليه ، وتتدفق للماني في مدح فضائل الملك الصالح وذكر أخلاقه . وهذا الشعر صادق كل الصدق لأن حب الصالح كان قد سيطر على نفسه ونحكم في هواه . فهو في موقف حرج لأنه ليس يدري أيمدح أم يسكت . . ويمدح الصالح أم غيره ؟ ومصادقاً لهذا القول نرى أن مدح الصفي للملك الناصر قليل جداً إذا قورن بمدحه الملك الصالح .



وغادر الصفي مصر عائداً إلى ماردين . وقد قضى في أرض الكنانة أوقافاً سعيدة ، فظل يحفظ عنها ذكريات حلوة ، ويذكر لها كل فضل .  
ويجب أن نذكر هنا أن معظم الشعراء والأدباء الذين وردوا مصر لم يخرجوا منها كما يجب . أي لم يخرجوا كما جاؤا ، بل خرجوا وقد فسدت علاقاتهم بمن جاؤا مصر من أجلهم . وهجوا هؤلاء الذين جاؤا ليمدحهم .  
( فدعبل الخزاعي ) الذي جاء مصر طمعاً في نوال أحد أقاربه ، وهو ( المطلب بن عبدالله الخزاعي ) . وكان والي مصر ، ومدحه بقصيدته التي يقول فيها :

أبعد مصر وبعيد مطلب      ترجو الغنى ؟ إن ذا من العجب

إن كانوا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب  
فولاه المطلب إقليم (أسوان) فكث به أياماً ثم غضب وهجا المطلب فقال :  
أطلب أنت مستعذب حمياً الأفاعي ومستقبل  
وعاديت قوماً فما ضرهم وشرقت قوماً فلم ينبلوا  
وكذلك كان (أبو نواس) ، فقد جاء لمدح (الخصيب) ، ومدحه بمدة قصائد ،  
لكنه هجاه أخيراً ورماه بالبخل . وهذا أيضاً حال (المتنبي) مع (كافور  
الاشيدي) إذ مدحه بغرر الشعر ثم هجاه حين لم ينل منه ما كان يأمل ،  
واضطر إلى مغادرة مصر سرّاً هرباً منه وهو ينشد :

عيداً بأية حالٍ عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيك نجدد

غير أن موقف الصفي يختلف عن مواقف هؤلاء الشعراء ، فقد خرج من  
مصر معزاً مكرماً . خرج والكل يتنى أن يظل في مصر ، والكل يرجو  
أن يعود إليها . وهو نفسه يتنى أن يبقى في أرض الكنانة ، ويرجو أن  
يعود إليها مرات . ولعل أهم الأسباب التي دعت هؤلاء الشعراء إلى فعل  
ما فعلوا ، أنهم وفدوا إلى مصر للحصول على المال أو غيره من الآمال فدحوا  
غير صادقين . ولما خاب ظنهم . أو حصلوا على أقل مما كانوا يأملون ظهرت  
الحقيقة صافرة ، واضطروا إلى إخراج ما في نفوسهم ، وانساقوا بالغضب  
مع هوامم فقالوا شططاً . وهجوا من كانوا قبل أيام يكيلون عليه المديح .  
أما الصفي فلم يكن محتاجاً إلى مال أو جاه . فهو غني موفور الغنى . مشهور  
ذائع الصيت . وهو جليس ملوك ونديم أمراء يحترمونه ويقدرونه حق قدره  
فلم يحجى مصر لطلب مال أو جاه وإنما جاء لزيارتها وزيارة أصدقائه فيها .

وقد زار الصفي مصر مرة ثانية (فصلاح الدين الصفي) يقول في  
(الوافي بالوفيات) وفي (أعيان العصر) : إن الصفي ورد إلى مصر مرتين .  
لكنه لم يحدد تاريخ الزيارتين أو تاريخ واحدة منها ، ولم يذكر المدة بينهما ،  
ولم يذكر كذلك تاريخ عودة الصفي إلى ماريدين بعد أن غادر مصر للمرة

الأولى أو للمرة الثانية . ولكنه « وغيره من المؤرخين ، يقول إنه بعد أن انتهى الصفي من أداء فريضة الحج عرج على مصر . وبهذا يكون قد دخل مصر لأول مرة سنة ( ٧٢٣ هـ ) . غير أن هناك من يقول إن صفي الدين دخل الديار المصرية سنة ( ٧٢٦ هـ ) ولعل هذا تاريخ الزيارة الثانية ، إذ أن الصفي حين رأى إكرام ( الملك الناصر محمد بن قلاوون ) له واحترام الناس إياه واهتمامهم بشعره ، عاد إلى مصر من جديد .. خصوصاً وهو تاجر يتنقل من بلد إلى آخر ، وكانت مصر في ذلك الوقت تتمتع برخاء اقتصادي وهدوء وسلام « ولعل المرة الثانية هي التي جمع الصفي فيها ديوانه إذ أن هذا هو المعقول .

## صفاته وأخلاقه وطباعه :

لم أستطع إطلاقاً أن أعرف صورة الصفي « حتى ولو بشكل تقريبي بالرغم من كثرة بحثي عن هذه الصورة بين ثنايا شعره الذي تحدث فيه عن نفسه « وبين الأسطر التي كتبت عن سيرته . اللهم إلا ذلك البصيص البعيد الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ، والذي جاء في كتاب ( مجالس المؤمنين للرعشي ) وهو أن الفيروز ابادي قال : « اجتمعت سنة ( ٧٤٧ هـ ) بالأديب الشاعر صفي الدين الحلي بمدينة بغداد فرأيت شيخاً كبيراً ، ومن يرى صورته لا يظن أنه ينظم ذلك الشعر الذي هو كالدرّ في الأصداف . « وهذا الخبر لا يخيدنا شيئاً على الإطلاق بل يزيد المسألة تعقيداً . فهو غير واضح المعالم ولا يشير إلى شيء ملموس . فلم لا يظن أنه الذي ينظم الشعر العظيم ؟ أهو قبيح المنظر ؟ لا أعلن ذلك . . . أهو هزيل الجسم ؟ لا أعتقد ذلك ؟ لأنه فارس عظيم وبطل مغوار . . . فلم إذا ؟ أغلب الظن أنه كان قد كبر وصار شيخاً

ضعيفاً ، وربما كان متهدماً . فقد قال (الفيروز ابادي) إنه التقى به سنة (١٧٤٧هـ) .  
وقد ولد الصفي سنة ( ١٦٧٧ هـ ) فيكون قد بلغ من العمر يومذاك سبعين سنة .  
فلا عجب إن كان ضعيفاً هزياً وقد بدت الشيخوخة فيه بأجلى صورها .  
وحتى لو كان الصفي قبيح الشكل ضعيف البنية ، فهل للشكل دخل في  
الموهبة والفن ؟

\*\*\*

أما أخلاقه فقد امتلأ شعره بما يوضحها أحسن توضيح ، ويبينها أجلى  
بيان . وإلى هذا كله فقد كتب الذين ترجموا له مشيرين إلى أخلاقه موضحين  
ما يتمتع به من صفات عالية .

فقد كان الصفي يتمتع بأكرم الصفات وأعظم السجايا ، ولا عجب فهو ابن  
قوم كرام ذوي مجد عريق ، وريب بلد يمتاز بكرم الخلق وحسن الصفات  
فكان إنساناً نبيلاً لا يمكن أن يعتدي على أحد ، وهو صاحب البيت المشهور :  
إننا لقوم أبت أخلاقنا شرفاً أن نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا  
وهو بعد هذا يقول :

فقل للأعادي : ما انتثيت لسبكم ولا طاش ، في ظني ، لغدركم سهمي  
ولهذا كان يجب أن يكون له أعداء :

ومن يك مثلي كامل النفس يقتدي قليلاً بماديه كثير المصاحب  
للمعدى دبت أراقم كيدهم إلي وما دبت إليهم عقاري ؟  
وإنسانيته هذه جعلته يلي دعوة كل داع حتى إذا داه إلى اقتحام  
الموت ، استمع إليه يقول :

لما دعاني للنزال أقارب ليأثم مني لسان المنصل  
وأبيت من أني أعيش بمزهم وأكون عنهم في الحروب بمعزل  
فمنذما قتل خاله غدرأ كان أول مجيب لداعي النار ، لاحقاق الحق وإزهاق  
الباطل .



وقد جعلته هذه الانسانية مخلصاً للصديق ، مخلصاً للقريب ، مخلصاً لمن يؤدي له عملاً ، كبير أو صغير ، فهو لا ينسى ذلك ، ويحاول أن يرد الجليل بأكثر منه . فالملك المنصور صاحب ماردین الذي آواه ، كان عنده بمنزلة لا تعد لها منزلة . ظل يحفظ جميله طوال حياته ، ولم يرَ ما يجازيه به أحسن من أن يقف شعره عليه وعلى أولاده . يقول مبيناً هذا الاخلاص :

مولاي سمعاً من ولبك مدحة عن صدق ودّي في علاكم تنطق  
أنا عبد أنعمك القديم وداده وسوای في أقواله يتملق  
عبد مقيم بالعراق ومدحُه فيكم يغرب تارة وبشرق  
وهو في غاية الاخلاص لأصدقائه جميعاً ، لا ينسأهم حتى في ضيقه وشدته ؛  
حين فادر العراق إلى ماردین ظلّ على اتصال بجميع أصدقائه في العراق ،  
يكتب لهم بين الحين والحين ، ويتسلم منهم الرسائل ، ويسأل عن أخبارهم  
وأحوالهم ، ويعتاب من ينقطع عن زيارته من إخوانه :

لا والذي جعل المودة مانعي عن أن أقابل سيدي بحفائه  
ما حلّت الأيام موثق حبه عندي ولا حالت عهود وفائه  
ودليل قلبي قلبه فوداده كوداده وصفائه كصفائه  
وكان الصفي يتمتع بشجاعة فادرة ، ولا عجب فهو حلي والحلة عرين  
الأسود وموطن الأشبال ، اشتهرت بالشجاعة والنجدة والاقدام . فكان  
الصفي من الشجعان الممدودين ، قال عنه الصفدي : « وهو من الشجعان  
الأبطال قُتل خاله فأدرك ثأره » وفيه آثار الجراحة . « فهذا دون شك  
وسام البطولة ورمز الشجاعة . وقد أبلى في معركة الزوراء بلاه عظيمًا ،  
وأبدى من ضروب الشجاعة والمهارة في القتال والحزم والعزم ما يبينه قوله :

قل لليالي : ولبك ما شئت اصنعي بعدي وللأيام ما شئت افعلي  
لا تسمعن بأن أصرّت مسلماً وإذا سمعت بأن قُتلت فمؤل  
ما الاعتذار وصارمي في طاتي إن لم يكن من دون أمرمي مقتلي

وهذه الشجاعة جعلته لا يصانع في حياته حتى في الحرب وفي غمرة القتال :  
 هناك فجأت الكباش منهم بضربة فرقتُ بها بين الحشا والترائب  
 لدى وقعة لا يقرع السمع بينها بغير انتداب الشوس أو نذب نادب  
 فهو لا يصانع ولا يخادع وإنما بهجم على أقوى القوم فيضربه ضربة تقضي  
 عليه . بعلمته شجاعته الحزم والعزم فكان لا مطلب له إلا العلي . يقول :  
 قليل إلى غير اكتساب العلي نهضي ومستبعد في غير ذيل التقي ركضي  
 فكيف ولي عزم إذا ما امتطيته تيقنت أن الأرض أجمع في قبضي  
 على أن لي عزمًا إذا رمتُ مطلبًا رأيت السما أدنى إلي من الأرض  
 فنهوضه لا ككتساب العلي فحسب . وعزمه الماضي يمتطيه فيقرب له السماء  
 ويجمع له الأرض فتصبح كلها في قبضته :

وكان الصفي يتحلى « مع الشجاعة » بعزة النفس والاباء يقول في ذلك :  
 سمت بي إلى العلياء نفس أبيية ترى أقبح الأشياء أخذ المواهب  
 أو يقول :

أبي لا يقيم بأرض ذل ولا يدنو إلى طرق الدنيا  
 وهذا الاباء هو الذي دفعه إلى ترك وطنه الحبيب ، ومفارقة أهله  
 وأصحابه والرحيل إلى ماردین « فهو إذاً بجشمه أشد المصاعب لدفع الضيم :  
 ذاك أبي لا تقبل الضيم نفسي ولو اني افترشت شوك القتاد  
 وربما غالى كثيراً في الاباء فرأى أن يعف عن كل سؤال حتى السؤال عن  
 الطريق :

ولقد أسير على الضلال ولم أقل : أبني الطريق « وان كرهت ضلالي  
 وأطاف تسأل الدليل ترفعاً عن أن يفوه في بلفظ سؤال  
 وكان الصفي كريماً « ولا غرو فالحلة بلد الأجواد الكرام « بلد صدقة  
 وديس . وهو ابن طي قوم ( حاتم الطائي ) الذي اشتهر بكرمه كما لم يشتهر  
 أحد . وآباؤه وأجداده كرام مشهورون . وهو إلى ذلك كله موفور الغنى

كثير النعم ، فكان يجود على الغريب والغريب :

وإني نوالى في الملقات واصل أباعد أهل الحمى قبل الأقارب  
وجوده بلا من . يقول في ذلك :

أيأ رب قد عودتني منك نعمة أجود بها للوافدين بلا من  
فأقسم ما زالت عطايك حمة ونمائك ، لا خيبت ذا الظن بالمن

\*\*\*

وكان من طبع الصفي الميل إلى اللهو ، ولا عجب فقد كان يعيش عيشة  
الترفين من أبناء الأسماء والأشراف ، فكان يخرج للصيد ويمارس الفروسية  
وألعابها ، ويلعب شتى الألعاب المسلية كالشطرنج والزرده . وكان في ماردن  
يعيش مع الملوك نديماً وجليساً لهم ، فشاركهم في شرب الخمر ، ووصفها  
أجل وصف .

كان الصفي يهتم بالصيد منذ صباه ، وظل كذلك طوال حياته ففي صباه  
كان يخرج مع أقرانه لصيد الطير والحيوانات المختلفة في ضواحي الحلة ، وفي  
ماردين كان يلزم الملوك والأسماء في رحلاتهم للصيد . ويصف ذلك  
في شعره :

لم أنس في ذوب شليل برزنى بين ثقات من رماة الحلة  
وبين صفات الصيادين وما يجب أن يتمتعوا به من أخلاق وميزات  
في قوله :

من كل مقبول المقال صادق قد قبض القوس وللنفس بسط  
يقدمنا فيها قديم حاذق لا كسل يشينه ولا قنط  
بحكم فينا حكم داود فلا ينظر فينا خارجاً عما شرط  
فيجب أن يكون كل منهم حاذقاً نقيطاً ، ولا يشوبه قنوط أو تردد أو  
فتور يقبض قوسه ببسط نفسه .

وكان الصفي يصف الطير وغيره من حيوانات الصيد ، ويعرف طبائعها

وطاداتها • وصفت النعام وضيقه في قصيدة منور لنا فيها يوماً قضاء في هذه  
التسليّة الجميلة :

ورب يوم أدكن المقام	متمزج الضياء بالظلام
مرنا به لقنص الآرام	والصبح قد طوح بالثمام
عن لنا سرب من النعام	مشرفة الأعناق كالأعلام
فاغرة الأفواه للهيام	كأينق فرت من الزمام
وحش على مثنى من الأقدام	تحجم في الحرب عن الاحجام
أراقم قد قرن للخصام	فحين هم السرب بالهزام

إلى آخر القصيدة إذ يصف ضخامتها وطول رقبتها • إلى غير ذلك . ويصف  
البازي والصيد به فيقول :

غليظ خط الجؤجؤ المنكب	ذي عنق خصب ورأس أحذب
قصير عظم الماق ثبت الركب	قليل ريش الصفحتين أربع
فامي الجناحين قصير الذنب	عيونه مثل الجمان المذهب

.....

وواضح أنه يصف البازي وصفاً دقيقاً : شكله العام ، فهو أشبه منتصب  
القامة عالي الكتفين . ويصف أعضائه واحداً بعد الآخر • فالساق قصير ،  
والركبة ثبته • وهو قليل الريش في الجانبين كثيفه في الجناحين . قصير  
الذنب عيونه مثل الثؤلؤ المذهب . ويصف الصقر بنفس صفات البازي .  
ويرسم لنا صورة جميلة لفهد فيرينا أنه أرقط بارز الجبين أفطس الأنف الخ .

مارضته في منتهى السفحين	بأرقط مخطط الأذنين
ناني الجبين ، أهرت الهدقين	أفطس سبط الشعر صافي العين
ينظر في الليل بمجمرتين	ذي كحل سال من المينين

.....

ومجيد كذلك وصف كلاب الصيد برشاقتها ومرعتها وصفاتها التي تميز بها :

وتبعا لمهارة الصفي في الصيد أصبح عارفاً بآلاته جميعها ، يعرف إخصائصها ومميزاتها وصناعتها فيصف البندق وكيف يبرق في الفضاء بسرعة خاطفة ، والقوس ويشبهه بالهلال ؟ .

ولم يفارق حب الصيد صفي الدين بعد شبابه ، فقد ظل مغرماً به في ماردن وفي كل بلد بعد أن كبر ، فكان يخرج للصيد مع الملوك والسلاطين ، مع المنصور والصالح ، مع الناصر والمؤيد ، ويصف هذه الرحلات بغير جميل ، فحين خرج مع ( الملك المنصور ) للصيد بالبندق في ضواحي ماردن سنة ( ٧٠١ هـ ) نظم قصيدة طويلة يصف بها هذه الرحلة بدأها بقوله :

دارت على الراح سلاف القطر فرنحت أعطافه بالسكر  
ونبه الورق نسيم الفجر ففردت فوق الغصون الخضر  
تغني عن العود وصوت الزمر

وحين خرج للصيد في ضواحي ( حماة ) مع ( الملك المؤيد ) سنة ( ٧٤٠ هـ ) نظم قصيدة يصف الصيد ويهنيء المؤيد بعيد القطر :

قم بي فقد ساعدنا صرف القدر وجاء طيب عيشنا على قدر  
فكم علا قدر امري وما قدر فارضع بنا درء الهنا إن تلق در  
فالشهم من حاز السرور إن قدر



وكان يلعب النرد والشطرنج ويمجدهما اعادة تامة ، بحكم كونه جليس ملوك ورفيق أسراء أولاً ، وبحكم كونه من أبناء الطبقة الراقية ثانياً . وقد صور لنا قصة مراهنته لأحد الغلمان في لعبة النرد وهزيمة الغلام في النهاية :

لاعتبه بالنرد ثم وبهتنا رهن قد ارتضت النفوس بقصده

.....

وهناك قصيدة أخرى يصف فيها قصة كاملة مشابهة لهذه القصة ، فقد لب

الطرنج مع غلام كان قد اتفق معه على رهان ، وكان الغلام هو الذي اقترح اللعب :

وغزال فازلته بعد بين ألفت بينه المدام وبيني  
قال لي مازحاً وقد طفت الرا ح وجال التضريح في الخدين :  
قد مللنا فها ت نلعب بالشطرنج كما أريح قلبي وعيني  
قلت : سمعاً وطاعة لك مولا ي ولكن لعننا في رهين

.....

فالصفي هو الذي اشترط الرهان ووافق الغلام ، وبدأ اللعب بتقسيم الجيشين . وهو يصف اللعب وكيف كان يصول ويجول ، بحكم الخطط ويدير خير إدارة ، وكأنه قائد محنك يخوض معركة رهيبه ، حتى انتصر فاستحق الرهان . لكنه عفا عن الغلام عندما بكى وطلب أن يعفيه والعفو من شيم الكرام . وفي أزجال الصفي قصة مشابهة لهذه القصة .

■ ■ ■

وأما مجالس الخمر التي كان يحضرها مع الملوك والأمراء فكان يصفها وصفاً دقيقاً . فهل كان الصفي يشرب الخمر أم كان يقول هذا الوصف محاكاة للشمراء الآخرين ؟ في الحقيقة ■ إن أول ما يتبادر الى ذهن أن الصفي لا يمكن أن يشرب الخمر لأنه رجل فاضل وشيخ جليل ■ درس علوم الدين وتفقه فيها ■ وكانت أسرته من أكرم الأسر ، تتمتع بسمعة حسنة ومنزلة محترمة . فكيف يأتي الصفي هذه المحرمات ؟

إن الذي يبحث في الأسباب الخفية والعمل الداخلية ، يستطيع أن يعرف أن الصفي كان يشربها فعلاً ، فقد انتشرت في هذا العصر انتشاراً كبيراً ، فكان الصفي واحداً من هؤلاء الذين جرفهم تيار المجتمع ، واضطروا الى السير مع تياره الجارف . أضف الى ذلك أن حضوره مجالس الملوك ومناذمته لهم في ماردين وحماة والقاهرة مما يضطره الى شرب الخمر أيضاً فهو مجبر على أن

يصنع ما يصنعون ويأكل ما يأكلون ويشرب ما يشربون ، وإلا فكيف  
يرضون به جليساً إن كان يمتنع عن فعل ما يفعلون ترفعاً منه أو ابتعاداً  
لأنه دنية في نظره .

إذا فالصفي يشرب الخمر فعلاً ، وقد بين ذلك في شعره ، وصرح به  
في أكثر من موضع :

يقولون لي جهلاً: متى تترك الطلي؟ فقلت: إذا ما عاد من فوته أمس  
وكيف أطراحي للدمام وفعلها جلي على الأضرار ليس به لبس  
لكن . . ألم يكن للنشأة الدنية أي أثر في هذا

أجل ، لقد ظهرت آثار هذه النشأة فعلاً ، وكانت توجه تفكيره  
وإحساسه توجيهاً خاصاً ، وكانت هناك ومضات تلعب أحياناً في شعره تدل  
على ذلك ، فكان يذكر أسباب تحريم الخمر ويقول إنها محملة إذا شربت بقلّة  
واعتدال :

وأعجب أن السكر في كل ملة حرام وإن أسمى إليها محبياً  
وتكثر منها الملهون بسكرها وتترك نفعاً في القليل مجرباً  
وإن نظروا يوماً لببياً مداويها بها الهم قالوا : نافلاً متطبباً  
فالقيل منها - عنده - حلال ، لأنه يعتبره دواءً للهموم والدواء حلال .  
وهو يجب لماذا يكثر منها الناس ، ويسخرون ممن يشرب منها القليل ،  
ويرمون به بالبخل ؟! ويحملها أيضاً بالزج لأنه يرى أن الزج يفقدها خصائصها ،  
لذلك كان لا يشربها إلا ممزوجة بالماء :

جرّد الزج عليها سيفه عندما سأت على الليل ظباها  
وإلى ذلك كله فهو يتشبث بمدح القرآن للخمر ويتعلق به أشد التعلق  
فيقول :

جاء نص الكتاب بالنفع فيها لو خلت من مآثم الشبهات  
مشيراً لقوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع

لنّاس . « فهو إذا يشرب الخمر . ولكن بعد أن يحلل شربه لها » وبعد أن يبين فائدها ومنافع شرّبها . وقد رأيناها لا بشرّبها في رمضان لأنّه يحرم ذلك إذ يقول :

قلت « شهر الصيام قد جاء والشر ب ، ولو في دجاء ، عندي حرام  
فلشأته الدينية لم تختف حتى في مثل هذه الأحوال » ورأيناها يعالج  
المشكلة علاج رجل دين « غير أنه كان يحرم ويحلل كما تتطلب منه الظروف  
ويتبع هذا التحليل والتحريم .

وكان يشرب الخمر بجميع أنواعها فنراه تارة يصفها بالبياض ، وتارة يصفها  
بالصفرة كالذهب ، وتارة يصفها بالحمرة كالياقوت « وتارة يقول انه  
النبيذ . . . وهكذا .

وهو لا يشربها في مكان واحد وإنما يشربها في كل مكان « مع الملوك في  
مجالسهم » وفي بيته ، وفي الحانات وغير ذلك . فكان ينادم الملوك ويسامرهم  
ويتحدث إليهم أحاديث الأديب واسع الاطلاع على نوادر المتقدمين من  
الظرفاء والأدباء والمجان ، ويقرأ وصف الخمر ومجالسها . وكان يصف هذه  
المجالس وصفاً جميلاً دقيقاً ، فيذكر الحمرة المعتقة والطعام الجيد والفاكهة  
الذيذة والزهور الجميلة وغير ذلك مما يجب أن يتوفر في المجلس كالندمان  
والمغنين والمغنيات . ويمدد شروط الندمان وشروط الشرب وانعقاد المجالس  
وغير ذلك .

\*\*\*

وربما جمع في المجلس بين الحشيش والخمر أو كما يقول بين الخضراء والحمراء:  
في نشوة الخضراء والحمراء أمن من السوداء والصفراء  
فالحشيش كان منتشراً في ذلك العصر « ومعروف أنه يدعو إلى الخمول  
والكسل ، ومعروف أن الخمر تبعث في النفس النشاط والقوة ، خصوصاً إذا



شربت باعتدال فهو يجمع بينهما ليفوز بمفعوليهما معاً . وربما استغنى عن  
الحمر بالحشيش فهو يقول :

في الكيس لا في الكاس لي قهوة • من ذوقها أسكر أو شـمها  
لم ينه نص الذكر عنها ولا أجمع في الشرع على ذمها  
فمدم تحريراً نصاً هو الذي يدفعه إلى شربها بدل الحمر التي يعترف بأنها  
محرمة فيحتال لتحليلها .

غير أن الصفي حين كبر وانهمك في مشاغل الحياة الكثيرة ، وانقطع عن  
الملوك ومجالسهم • بادراً إلى ترك الحمر . ولم تك هذه التوبة بذت ساعتها  
- على ما يظهر من شعره - وإنما جاءت بعد مقدمات ومحاولات ، فقد بدت  
منه هفوة في أحد المجالس فهمم بالتوبة لكنه عدل عن هذا الرأي . وظل  
يفكر في التوبة طويلاً حتى تاب أخيراً . وحضر مرة مجلساً من مجالس  
أصدقائه فأجبروه على شربها فأثرت فيه وآذته وبدرت منه غلطة مع أحدهم •  
فاعتذر إليه قائلاً :

ضعف رأسي وقلة الإيمان . أوجبا ما رأيت من هذيان  
والجنون الفحش الذي صرت منه خارجاً من طبيعة الانسان  
فبحقي أموت يا مالك الرق وأتني عن المدام عناني  
فهو الآن تائب حقاً ، لأنه يرى أن شرب الحمر كفر ، وأن فيه خروجاً  
عن طبيعة الانسان . وقد صمم على تركها حتى الممات . وقد فعل .

## ٤ - وفاته :

عاد الصفي من مصر الى ماردين . لكنه لم يطل المقام إذ لم يلبث أن  
غادرها إلى العراق . ولا نعرف الوقت الذي قضاه في ماردين حتى ولا على

وجه التقريب . وأقام في العراق فلم ينس الأرثقيين وفضلهم فكان يرسل إليهم القصيد بين الحين والحين ، يحن إلى ربوعهم ، ويتشوق إلى مجالسهم . ويصبو إلى أيامهم ، ويمدح أولئك الملوك الذين أكرموه . أرسل إلى الملك الصالح يقول :

ما هبَّت الريح إلا هزني الطرب إذ كان للقلب في مر الصبا أرب

.....

وكم قصدت بلاداً كي أسمع بكم وأنتم القصد لا مصر ولا حلب

وكم قطعت إليكم ظهر مقفرة لا تسحب الذيل في أرجائها السحب

حتى وصلت إلى نفس مؤيدة منها النهى والاهى والمجد يكتسب

.....

ويظهر لنا أن عودته للعراق لم تكن نهائية ، أو أنه حين جاء العراق لم يستقر فيه تمام الاستقرار . فكان يرحل بين الحين والآخر إلى ماردين وغيرها من البلاد . فهناك قصائد قالها في السنوات الأخيرة من حياته وهو في ماردين . لكن هذا الاستقرار ظهر في أيامه الأخيرة بجلاء ووضوح إذ أدركه الموت وهو في بغداد . فقد كبر وضعف جسمه وتدهورت صحته وأصيب بألم المفاصل . وقد أشار إلى ذلك في شعره :

ألم المفاصل قد أسأت وليس لي أبداً على تلك الاساءة مسمد

كما يقول أيضاً ممتذراً عن زيارة صديق له :

قد أقعدتني عنكم مفاصل وإن أقامت في انقطاعي عذري

مات الصفي سنة خمسين بعد المائة السابعة للهجرة ( ٧٥٠ ) المصادف سنة

تسع وأربعين وثلاثمائة بعد الألف للميلاد ( ١٣٤٩ ) . طرقت تلك الروح

الركية إلى بارئها ، ووقف ذلك القلب الكبير . وسكت ذياك النغم العذب

الذي طالما ملأ الدنيا وشغل الأسماع . مات في بغداد . ودفن فيها ، وكان

الأقدار أرادت أن يدفن في ثرى وطنه الحبيب الذي اضطر للتغرب عنه مدة

من الزمن غير قصيرة فحزن عليه الصديق وغير الصديق « وتألم له القريب  
والبعيد ، وصرى الحزن في البلاد الاسلامية كلها من أجله لأنه القينار الذي  
طالما تغنى بأعجاد العرب ومفاخر المسلمين .

والعجيب أننا - اليوم - لا نعرف له قبراً « مع عظم المركز الذي كان  
يتمتع به ، ولعله اندثر في ذلك العصر الذي تدهور فيه كل شيء . ولكن  
الاعجب من هذا والاعجب أن نؤكد أن تاريخ وفاته لم يكن مضبوطاً مؤكداً ، فبالرغم  
من تأثر البلاد الاسلامية لوفاته لم تضبط هذه الوفاة باليوم والشهر . فلا نعرف  
إلا أنه مات في سنة ( ١٧٥٠ هـ ) . ولكن هذا هتئ يسير إذا عرفنا كذلك  
أن المؤرخين والمترجمين له اختلفوا أيضاً في السنة التي توفي فيها « فبالرغم من  
أن أكثرهم حددها بسنة خمسين وسبعمائة هجرية نحمد صاحب ( النجوم الزاهرة )  
يقول إنه توفي سنة ( ١٧٤٩ هـ )<sup>(١)</sup> « غير أنه عاد في كتابه ( المنهل الصافي )  
فجعلها عام ( ١٧٥٢ هـ ) . أما صاحبه ( صلاح الدين الصفدي ) فقد قال في  
( أعيان العصر ) : توفي الصفي سنة ( ١٧٥١ هـ ) تخميناً . وهكذا ترى الخلاف  
في تحديد هذه السنة أيضاً . غير أننا نرجح سنة ( ١٧٥٠ هـ ) لاتفاق أكثر  
المؤرخين عليها . ومنهم زين الدين حبيب<sup>(٢)</sup> ، وهو قريب عهد من الصفي إذ  
توفي سنة ١٨٠٨ هـ .



(١) والأعجب أن ناشر كتاب ( العاقل الحالي ) وهو ( ولهم هونباخ ) يفضل رواية  
عام ( ١٧٤٩ هـ ) بالرغم من أنها لم ترد الا في ( النجوم الزاهرة ) ولكنه يعود فيذكر  
الروايات الأخرى ، كما يذكر تاريخ أحد معاصري الصفي لوفاته بقوله : « الجنة مأوى الصفي »  
ومجموعها بحساب الجمل ( ٧٥٢ ) .

(٢) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٧١

## الفصل الثاني

### ثقافته وعقيدته

#### ١ - ثقافته :

ما كنت أعلم ، والبلاغة صنعتي ، أن البديع بحسن وجهك يعلم

بكم يهتدي يا بني الهدى ولي الى جبعكم ينتسب  
به يكسب الأجر في بنته ويخلص من هول ما يكسب

بدأ تعليم الصفي بدراسة علوم الدين « كما هي العادة لذلك المصر في جميع البلاد الاسلامية » فقرأ القرآن وحفظه « وعرف معانيه ودرس تفسيره ، وقد تلقى أيضاً مبادئ العربية من قراءة وكتابة . ثم درس النحو والصرف والبيان والعروض . وتعلم علوم الدين من فقه وأصول وحديث . وقرأ التاريخ وأخبار العرب وأيامهم وغير ذلك من العلوم التي كانت في عصره . ولكن ، وللأسف « لم نستطع أن نعرف أسانذته في هذه العلوم » ولم نعرف حتى اسم واحد منهم . ولم يرو جميع الذين ترجوا له وكتبوا عنه كيف تلقى هذه العلوم وعلى من تلقاها « وإنما قالوا : « ولما بلغ الحلم اشتغل بالعربية والأدب وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها »<sup>(١)</sup> . ولم نجد في شعره ما يوضح ذلك « إذ لم يذكر فيه واحداً من أسانذته . وعلى كل حال « فنحن نعلم أن الحلقة كانت تزخر بكثير من العلماء والأدباء والشعراء في عصره « فكان من الهين

اليسر عليه أن يتلقى ما يلذ له من العلوم « وأل ينهل ما يطيب له من الآداب . وكانت الكتب متوفرة والمكتبات منتشرة حافلة بكل نفيس فريد من كتب العلم والأدب ومن دواوين الشعر ، فكان يستطيع أن يقرأ ما يريد بسهولة . وقد مال الصفي إلى دراسة الأدب واللغة وعلومها المختلفة « فبرع فيها أي براعة . وكان ذكياً بارع الذكاء ، فطناً حاد الفطنة « قوي الذكاء سريع الحفظ ، حاضر البديهة ظريف النكتة . فنبغ أي نبوغ حتى صار أكبر شعراء عصره » كما قال عنه ( صلاح الدين الصفدي ) وغيره .

واستطاع الصفي أن يتقن ثقافة قرآنية حقة ، فقد ظل القرآن مصوراً في ذهنه راسخاً في فكره « حتى ظهرت معالم هذه الثقافة في شعره واضحة « فتراه تارة يضمن الآيات القرآنية أو بعض أجزائها « كقوله :

رقت إلى الصب طول الأصل راقية      فقلت : « قد جئت ياموسى على قدر »  
وكما يقول :

سكنت مقر عقولهم وتـكنت      فعدت « توسوس في صدور الناس »  
وأما قوله :

شاد في ذروة الملا دياراً      « وجنى الجنين منهم » دان  
والجواد السمح الذي « مرج البحرين من راحتيه يلتقيان »  
فواضح أنه يضمن بعض آيات من سورة الرحمن .

وضمن قوله تعالى في سورة العصر : « والمصر إن الإنسان لفي خسر » قائلاً :

فإن كان عصر الأنس منكم قد اختفى      فوالمصر إنى بمد ذلك في خسر  
وهناك كثير من ألفاظ القرآن وعباراته استعملها الصفي في شعره كتصوير الحمد وغيره . يقول :

( ثبت يدا ) من تاب عن رشف الطلا      والكأس متقد كخد فتاة

ويقول أيضاً :

فلوح لي قريضك بافتخار وعجب جاء عن (نصير خد)  
أو يقول :

سارت بنا تطوي القفار فعندما (آلست نارك) قلت للركب : امكثوا  
والصفي يشير كثيراً إلى قصص الأنبياء التي وردت في القرآن ، فالنبي إبراهيم  
( عليه السلام ) وقصة نجاته من نار عمود يشير إليها في قوله :  
قلت عند الاياب : يا نار بردأ وسلاماً كوني لابراهيم  
ويشير إلى قصة موسى وفرعون والسحرة بقوله :

ظننت حبال السحر ما قد أتوا به وتلك عصا موسى لها تلتف  
وأما قصة النبي يونس ونجاته من الفرق بواسطة الحوت فيقول بصدددها :

هد قلبي من كان يونس قلبي إذ نبذناه في العراء سقيماً  
وقد يجمع قصصاً وأخباراً كثيرة عن الأنبياء في قصيدة واحدة كقوله :

أنبأنا الأنبياء من سالف الدهر وعدت لنا القرون القروما  
وحكت كيف أصبحت فتية الكهف وقوداً وكيف حلوا الرقما  
وبماذا تهنبت نار (نعمود) خليل الآله إبراهيم  
وغداة امتحان يونس بالنور وقد كان في الفم مقيماً  
ونشكى يعقوب إذ ذهب عيانه من حزنه وكان كظيماً  
والتناجي بالطور إذ كلم الرحمن من موسى نبيته نكليماً  
ودعاه المسيح إذ نعى الميتم من ربه وكان ربما

نرى هنا قصة أهل الكهف ، وقصة حرق سيدنا إبراهيم (سلام الله عليه )  
ونجاة يونس ( عليه السلام ) وقصة يوسف بن يعقوب وحزن أبيه من  
أجله ، ومناجاة موسى ربه بالطور ، وإحياء عيسى لميت أمام قومه ...

وبعد أن درس القرآن ووطأ وحفظه تلقى علوم الدين من فقه وحديث وأصول وغير ذلك . ولم تظهر آثار هذه الدراسة في شعره كما ظهر أثر القرآن . وإنما هناك إشارات بسيطة وتماير قليلة من تعبيرات الفقه ، ليس فيها شيء من الفقه الشيعي الامامي الذي لا بد أنه تلقاه في الحلة التي كانت يومذاك منبعاً لهذا العلم ، وكعبة لقاصديه ، وإنما هي من الفقه العام ، فهو يشير إلى القياس في قوله :

يناسب يوسف الصديق حسناً ووصفاً في قياس ذوي العموم  
أو في قوله :

يا سميّ الذي له خبت النار وكانت له سلاماً وبرداً  
لم عكست القياس في نار قلبي فإذا ما ذكرت ازداد وقد  
وعبارات الفقهاء تنعكس في شعره فتراه يقول :  
جبلكم كان في رقي لكم سبباً « لا يوجد الحكم حتى يوجد السبب »  
أو يقول :

طبع الأنام على الخلاف وجوده في الناس « مسألة بغير خلاف »  
ومن ذلك قوله :  
شرطي بأن حشاشتي رقي لكم « والشرط، في كل المذاهب، أملك »  
ويقول :

واقترضنا منها الدموع فقالت : « كل قرض يجر نفماً حرام »  
ففي هذه الأبيات وفي غيرها كثير من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم مثل :  
« لا يوجد الحكم حتى يوجد السبب » و « مسألة بغير خلاف » و « الشرط في كل المذاهب أملك » و « كل قرض يجر نفماً حرام » فهو لا شك قد تتقف ثقافة فقهية ، وتأثر بها فصار يسهل عليه أن يستشهد بعباراتها . ولكن لم يظهر الأثر الذي كنا نرجوه في شعر الصفي ، فقد كان يجب أن يظهر فيه وضوح أثر الفقه الشيعي الذي كانت الحلة مركزاً له في ذلك العصر .

وتظهر ثقافته التاريخية في شعره أيضاً ، فنراه يحمل مواقف بعض الخلفاء العباسيين ويمثل أسباب نجاح بعضهم وفشل البعض الآخر في الحكم ، يقول :  
 بالبطل تم الملك ( لابن مراجل ) وتأخر ( ابن زبيدة ) المتقدم  
 وعنت ( المعتصم ) الرقاب يأسه ودها العباد بليته ( المعتصم )  
 فابن مراجل وهو ( الخليفة المأمون بن الرشيد ) ، استطاع أن يستولي على الخلافة وينزعها من يد أخيه ( الأمين ) بالقوة والبطل ولولاها لما تم له ذلك .  
 في حين أن الأمين كان ضعيفاً ليناً فأفادت الزمام من يده . وفقد الخلافة وقتل شر قتلة . وكان الخليفة للمعتصم قوي الحكمة شديد البأس لذلك أطاعه الجميع وخضعوا له . وكان المعتصم سياسياً بارعاً يعرف كيف يأسس القيادة فيستميل الناس جميعاً له .

وهو يكثر من ذكر أيام العرب والتمثيل بها وبأسبابها ، وما أنتج بعضها من بطولات ، وما جرّ بعضها الآخر من ويلات ، وحروب الاسلام وكيف كان الهدى يقاتل الضلال ، والايمان يحارب الشرك ويتغلب عليه ، فيستشهد بحرب البسوس وبدر وحنين والجل وعمورية . . .

وترى بيننا وبين الملامى وكؤوس المدام ( حرب البسوس )  
 أو يقول :

أنت بدر التمام فاجعل لنا بينك عهداً وبينه ( حرب بدر )  
 أو يقول :

لقد فلتت جموع العاشقين به في وقعة الظبي لاني ( وقعة الجمل )  
 أو يقول :

ورأوك معتصم المزائم فاخشوا بك ( يوم عمورية ) المشهودا  
 أو يقول :

ومجلى الكروب عن سيد الرسل بيدر وخير وحنين  
 ونلس أثر التهيح في ذكره هذه الوقائع والحروب . فهو حين يذكر



موقعة الجمل لا ينسى ما فعله فيها الامام علي حين فلّ جموع القوم وحصد رؤوسهم وردّهم مدحورين . ولا ينسى كذلك مواقف الامام علي في موقعة بدر وخيبر وحنين ، التي ضرب بها أروع الأمثال للبطولة والتضحية والاخلاص للدين القويم والمبدأ العظيم .

ونجد له اطلاءاً واسماً في أعلام التاريخ من تاريخ عربي وإسلامي ، وغيره من تواريخ الأمم . فيذكر ( بلقيس ) ملكة ( سبأ ) وما اشتهرت به من جلال فيقول :

رشاً من جاذر الترك لكنّ حاز إرث الجلال من ( بلقيس )  
ومثله قوله في كسرى وقيصر :

بكأس لها أشخاص ( كسرى وقيصر ) وقد أحدثت من حولها الروم والفرس  
وكقوله في الخنساء وأخيها صخر : والزباء ووزيرها قصير :  
فإن تكن ( الخنساء ) إني ( صخرها ) وإن تكن ( الزباء ) إني ( قصيرها )  
ويقول :

إن كان زهوة ( كسرى ) بالألوف فكم وهبت من عدد بالآلف مجذور  
وكان بالجوسق ( النعمان ) ناه فكم من جوسق لك بالشقين معمور  
في كل مستصعب الأرجاء ممتنع تبنى القناطر فيه بالقناطير  
لو مرّ ( طاد بن شداد ) بجنته أقام يقرع فيها سنّ مفرور



وهو مثقف ثقافة حقّة في علوم العربية وآدابها ، واطلاعه على كل شيء فيها واسع ، ولا نزاع في ذلك . ويكني أن نعرف أنه حين أراد نظم القصيدة البديعية قرأ سبعين كتاباً في البديع . وقد ذكر ذلك معاصروه ، كما ذكره هو في شرح البديعية . وقد ألف كتاباً عظيماً درس فيه الأزجال . يعتبر المرجع الوحيد في هذا الفن .

ودرس النحو والصرف والبديع وتاريخ الأدب والشعر وغير ذلك من

علوم العربية ، وتظهر آثار هذه العلوم كلها في شعره . فن يقرأ له :  
يا جاعلي خبري بالهجر مبتدأ لا عطف فيكم ولا لي منكم بدل  
رفعت حالي ورفع الحال ممتنع ، اليكم ، وهو للتمييز يحتمل  
لا يشك في أنه مثقف ثقافة نحوية جيدة . فهو يذكر الخبر والمبتدأ  
والمطف والبدل ، ويذكر الحال وامتناع رفعه ، والتمييز واحتمال ذلك فيه .  
ويذكر أن الاسم مصروف وممتنع عن الصرف في قوله :

والماء ما بين مصروف وممتنع والظل ما بين ممدود ومقصود  
في روضة نصبت أغصانها وغدا ذيل الصبا بين مرفوع ومجرور  
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها والماء يجمع فيها جمع تكسير  
ونرى أنه يذكر إشارات من علم العروض ، فيشير إلى دوائره ورموزه  
وتفصيلاته يقول :

ذوي بيوت في المجد سائلة كل أفاعيلهن منزنة  
ويقول مشيراً إلى بعض أبحر الشعر :

حببي (وافر) والشوق مني (طويل) والجوى عندي (مديد)  
وهو يضمن الكثير من أمثال العرب كما في قوله :

لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة ولا تتم النوى إلا لمن صبرا  
فهو يضمن المثل القائل « من صبر ظفر » وحين يقول :

وأغزر الناس عقلاً من إذا نظرت عيناه أسراً غدا بالغير معتبرا  
يضمن المثل المشهور « العاقل من أتعظ بغيره » :

فطبق الأرضين حتى بلغ السيل الزبي  
فيضمن المثل العربي « بلغ السيل الزبي » .

وأما الأدب العربي فهو ميدان الصفي . لأنه أحد فرسان هذه الحلبة  
الحلجين . لذلك كان كثير الاطلاع على هذا الأدب . كثير الحفظ لما فيه من  
غور الشعر وفريد القصيد ، واسع المعرفة بأخبار الشعراء وأحوالهم وما

يفتخرون به ويتصفون . فكان يشير إلى أعلام الشعر العربي « كل في ميدانه .  
فحين يأتي ذكر الهوى والعشق يقول :  
فليس ( جميل ) في الهوى و ( كثير ) و ( عروة العذري ) و ( ابن ذريح )  
بأعرف مني في الملاح توسماً ولا جنحوا للعشق بمض جنوجي  
وعند الحزن يأتي بالخفساء :

أيا صخر الجنان أدمت نوحى      فها أنا فيك ( خفساء ) الرجال  
وإذا ذكر الأدب جاء بالميرد قائلاً :

سمحة تخفض قدر حاتم      وأدب يهزأ ( بالميرد )  
ويعرف غير هؤلاء من أطواد الأدب والشعر العربي المشهورين ، وكيف  
لا وهو قد قرأ الشعر والأدب وتأثر به وأحب الكثير منه فحفظه ، وصار  
يقتبس معانيه ويضمن بعض أبياته في شعره « ضمن قول زهير :  
رأيت المنايا خبط عشواء من نصب      نمته ومن نخطي يعتمر فيهرم<sup>(١)</sup>  
فقال :

ها أنت إلا « خبط عشواء من نصب      نمته ومن نخطي يعتمر فيهرم »  
وقال الصفي أيضاً :

فـمـكـن قائلاً قول السموءل تأهبا      بقولك عجباً وهو منك قليل :  
« وتذكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول »  
وواضح أن البيت الثاني لـسموول ، وقد أشار الصفي في البيت الأول إلى  
ذلك . وأما قول صفي الدين :

إذا بدا معناه قال الورى : « كم ترك الأول للآخر »

فالشرطة الثانية لأبي تمام الطائي في بيته :

يقول من تفرع أسماعه « كم ترك الأول للآخر »<sup>(٢)</sup>

(١) ديوان زهير ص ٢٩ - طبعة دار الكتب سنة ١٩٤٤ .

(٢) ديوان أبي تمام ص ١٤٣ .

وقال :

إذا ما فعلت الخير ضوعف شرهم « وكل إناء بالذي فيه ينضح »  
وهذه الشطرة الأخيرة من شعر ( الحيمس بيمص ) يرثي بها الامام الحسين  
ابن علي ( رضي الله عنه ) في بيته :

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح (١)  
ولما كان قد قرأ دواوين الشعراء المتقدمين وحفظ الكثير من شعرهم  
فقد ظل متأثراً بالكثير من معانيهم ، ثم اقتبس الكثير من هذه المعاني في  
شعره ، قال يمدح الملك الصالح :

أخفى المملوك نجمه لأنهم شهب إذا برغت شمس الضحى نرحت  
ولا شك أن هذا المعنى مأخوذ من قول النابغة الذبياني :

كأنك شمس والملك كواكب إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب (٢)  
وقد أخذ معنى قول الفرزدق في ( علي بن الحسين ) :

ما قال ( لا ) قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاه ( نعم )  
فقال :

( نعم ) لسانه جواب لم يصل يوماً إلى ( لن ) ولا ( لا )  
ويقول كذلك :

كالصل يظهر لينا عند ملسه حتى يصادف في الأعضاء تسكينا  
يطوي لنا الصدر في نصيح يشير به ويمزج الصم في شهد ويسقينا  
فتراه يضمن قول الشاعر :

إن الأفاعي وإن لانت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب  
وهو إلى ذلك كله قد خُص الكثير من قصائد الشعراء المتقدمين « مما كان  
يخص إحساساً حقيقاً أنها تمبر عما في نفسه أصدق تعبير ، وتوضح ما يجيش

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) ديوان النابغة ص ٥٧ . مطبعة السعادة .

في صدره أحسن توضيح ، نفخس أبيات الحماسة المنسوبة إلى ( قطري بن الفجاءة ) التي مطلعها :

أقول لها وقد طارت هماغاً : من الأبطال ويحك لا تراعي  
فقال :

ولما مدت الأعداء باطاً وراح النفس ككرم سراط  
برزت وقد حمرت لها القنات ( أقول لها وقد طارت شماغاً )  
( من الأبطال ويحك لا تراعي )

ونفس قصيدة السموه الحماسية التي يقول فيها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل  
فقال :

فبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه وطول الفلا رحب لديه وعرضه  
ولم يبل مربال الدجى فيه ركضه ( إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه )  
( فكل رداء يرتديه جميل )

.....



وليست هذه فقط هي ثقافة الصفي ، ففي شعره ما يدل على أن له إلماماً  
حسناً بعلم الجغرافية وعلم الفلك فهو يعرف أن القمر يستمد الضياء من الشمس  
وأنه حين يبتعد عنها يكون بدرأً وحين يقترب منها يدخل في المحاق فهو إذاً  
يعرف أوجه القمر :

حالي وحالك كالهلال ونجمه مذ أ كسبته النور في إشرافه  
فاذا نأى عنها حظى بكاله وإذا دنا منها رمي بمحافه  
ويذكر سبب كموف الشمس فيقول :

مثل قول الشمس النيرة للبد ر بلفظ العتاب والاشفاق :  
أنا أ كسبتك الضياء وأ كلت لك النور لئلا الاشراق :

وإذا ما دنوت بالقرب مني نلت مني السكوف حال التلاقي  
ويذكر السكواكب السيارة وغيرها من النجوم في قوله :

وكان المشتري ذو أمل نال حظاً ومن البدر ارتقا  
وحكى المريخ في صنعته قد محبوب بلحظ خدشا  
وسهيل مثل قلب خافق ممكن الرعب به فارتعشا  
وبنات النعش سرب نافر هام ذعراً ومن النسر اختشأ  
والثريا سبعة قد أشبهت شكل لحيان بنحت نقشا

ففي هذه الأبيات يصف (المشتري) (المريخ) (بنات النعش) و (الثريا) كلاً بوصفه الخاص وميزاته التي ينفرد بها ... ويعرف أن الثريا لا يمكن أن تدرك سهيلاً فيقول :

أتمنى العراق في أرض حرّاً ن وهل تُدرك الثريا سهيلاً ؟!



وقد يكون الصفي يعرف اللغة الفارسية - أو شيئاً منها - لأنه كان يظهر في شعره بعض الآثار اليسيرة التي تدل على ذلك ، ولكن ليس هذا فقط فهو لا يؤكد معرفته للفارسية ، فربما تأثر من هنا أو من هناك ، وإنما هناك شيء آخر أهم منه وهو أن الصفي نظم قصيدة طويلة تبلغ خمسة وسبعين بيتاً خلط فيها بين اللغة الساسانية الفارسية واللغة العربية وقد جمع فيها غرائب الساسانيين الفرس وحيلهم ونواديرهم وفنونهم ، ومطلعا :

بتبريخ أدصاني وتريبخ مشتاني غدت سائراً لأخشان والفرس تخشاني

ولا يمكن أن ينظم الصفي مثل هذه القصيدة إلا إذا كان ذا معرفة تامة باللغة الفارسية الساسانية وألفاظها ومفرداتها ، وإطلاع واسع على حيل الشعاذين الساسانيين ، وهم من الفرس ، في السكدية وما شابهها . ولا نستبعد أن يكون قد تعلم الفارسية من كثرة تجواله وتطوافه للتجارة . فقد اختلط بأناس

كثيرين من مختلف الأجناس • وقد يما قالوا : • سافر ففي الأسفار سبع فوائد • ولم لا يكون تعلم اللغات الأجنبية من هذه الفوائد السبع • وبخاصة إذا علمنا تقدير الصفي للغات الأجنبية وحثه على تعلمها ، واعترافه بمزاياها .  
استمع إليه يقول :

بقدر لغات المرء يكثر نفعه فتلك له ، عند الملحات • أعوان تهافت على حفظ اللغات مجاهداً فكل لسان ، في الحقيقة ، إنسان ! ولكن ، للأسف ، لم نجد غير هذا الدليل مما يؤكد لنا معرفة الصفي بالفارسية وإن كان ، على كل حال • دليلاً حسناً .



فثقافة الصفي متعددة النواحي متشعبة الفروع • فيها علوم الدين وعلوم اللغة والأدب • وفيها التاريخ والجغرافية • وفيها اللغة الأجنبية . وقد ساعدته هذه الثقافة الواسعة الغزيرة على انتاج آثار علمية كثيرة • مؤلفاته كثيرة متنوعة منها الشعرية ومنها النثرية • فأما الشعرية فهي : ديوانه • ودرر النحور ، والبديعة . وأما مؤلفاته الأخرى فهي :

١ - الأغلاطي ، أو أغلاطي : وهو معجم للأغلاط اللغوية التي يقع فيها الكتاب والأدباء ، توجد منه نسخة مخطوطة في ( الاسكوريال ) • وقد صورت الجامعة العربية نسخة على هذا المخطوط موجودة في مكتبتها .

٢ - وصف الصيد بالبندق : وهو كتاب يصف فيه صيد الطير بالبندق ، ولهذا الكتاب قيمة تاريخية كبيرة لأن هذا النوع من الصيد قد بطل استعماله الآن . وقد سماه الصفي ( الخدمة الجليلة ) وتوجد منه نسخة مخطوطة في ( برلين ) برقم ٥٥٣٧ .

٣ - العاقل الحالي : ويعتبر هذا الكتاب المرجع الأول والأخير في دراسة الفنون المختلفة للشعر العامي من زجل وموالي وغيره • فقد درسها الصفي دراسة وافية مبيناً أنواعها وخصائص كل نوع وأوزانه وعمله . وذكر

أمثلة شعرية لـ شكل نوع . وتوجد نسخة في مكتبة جامعة القاهرة رقها ٢٢٩٩٥ أدب<sup>(١)</sup> ، ونسخة في ميونخ برقم ( ٥٢٨ ) .

٤ - كتاب ( الأوزان المستحدثة ) كالدوييت توجد منه نسخة خطية في عمان رقم ٥٥٤٢ .

٥ - رسالة الدار والفار : منه نسخة مخطوطة في مكتبة المتحف البريطاني ٦٢٤ ف ٨ .

٦ - ديوان صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء .

٧ - الدر النفيس في أجناس التجنيس ، القاهرة ٢٩٦ .

## ٢ - عقيدته الإسلامية :

كان الصفي مسلماً يفخر بإسلامه ، ولا عجب لقد كان آباؤه وأجداده من المدافعين عن حمى الاسلام ، ومن نشره في مختلف البلاد في الفتوحات المظيمة التي اندفعوا فيها يحاربون الشرك في بلاد كسرى وقيصر ، ويقاثلون

---

(١) لا بد لي أن أشير هنا أنني كنت أرغب في نشر هذا الكتاب الثمين ، ولهذا فقت بنسخ كثير من صفحاته حين رجعت الى نسخة جامعة القاهرة وهي نسخة جيدة واضحة الخط . . ولكن أهد المسقرتين -بقي الى ذلك قبل طبع مجي عن صني الدين نفسه فوجب علي أن أنوه عن طبعته هذه .

لقد نشر هذا الكتاب بمجمع العلوم والآداب - لجنة الاستشراق - في ألمانيا ، وقد حققه المستشرق ( ولهم هو نرباخ ) والحق انه قد بذل جهداً عظيماً يحمده عليه ، اذ قابل بين ثلاث نسخ موجودة في ( استانبول ) و ( مونشن ) و ( منشستر ) ولم يكتف بهذا ، جاء العراق ليستمع الى اللغة العامية « ليعرف الشيء الكثير مما قد يشكل عليه . وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة فرانز ورشتايم وبسبادن بألمانيا سنة ١٩٥٥ طبعاً أيقاً جيلاً على ورق صقيل وعدد صفحاته ٢١ صفحة ، واطافة الى هذا ما يقرب من هذا العدد الترجمة الألمانية التي أجهد المؤلف نفسه بهذا . وفي الكتاب عدة لوحات زكفرافية تصور بعض صفحات المخطوطات المختلفة .



بقوة صادقة وعزم أكيد . وقد ولد الصفي في مدينة إسلامية صرفة ، أسسها  
أسماء مسلمون لا يغيرون على شيء قدر غيرتهم على الإسلام ، ولا يمتزون  
بشيء مثل اعتزازهم بدينهم . ولا يتغلغل في أحماق نفوسهم شيء كما يتغلغل  
الايان القويم ، فكانت الحلة حصناً من حصون الإسلام القوية ، ومشعلاً  
من مشاعل العلوم الإسلامية الوقادة .

وحين ولد الصفي ورأى العلوم الدينية تلقن للأطفال والصبيان لم يجد بداً  
من تلقياها وتفهمها . فأقبل عليها ملتهاً . فقويت عقيدته وتغلغل إيمانه في  
أحماق روحه ودفن نفسه . حتى رأيناه يمدح بمدوحه بالتدين والايان والتقوى  
والورع وخافة الله والذنب عن حياض الإسلام . قال يمدح الملك المنصور :

ضبع لدين الله منذ علا الإسلام آمنه من الخفض  
ضبطت أمور المسلمين به ضبطاً به أمنت من النقص  
وقال يمدح الملك الصالح :

رعبت أمور المسلمين بهمة رأيت بها مستقبل الأمر ماضياً  
وقال يمدح الملك الناصر محمد :

قد عز دين محمد بسعيه وسما بنصرته على الأديان  
وحين كتب إلى قاضي قضاة مارددين ( شمس الدين عبد الله بن المذهب ) مهنئاً  
أيام بالحج لم ينس أن يصفه بالايان والتقوى . قال واصفاً إياه بالصائم المصلي :  
كم صيام قرنته بقيام وصلاته وصلتها بصلات  
وحين هنا الملك الصالح بالدار التي عمرها في ( مارددين ) ، لم يغب عن باله  
تدينه فلم ينس أن يذكره بأن الدار يجب أن تشيد على التقوى والايان .  
لكي لا تكون داراً للدنيا فحسب وإنما يجب أن تكون داراً للآخرة  
أيضاً فيقول :

هكذا إن بنى المنازل باني وثمها مشيدة الأركان

كل من أسس البناء على تقوى إله السماء والرضوان  
فليشد قبله البناء كما قد شيدته مناقب السلطان  
المليك الذي يرى المن اشرا كما بوصف المهيمن المنان  
ذلك لأنه لا يهاب شيئاً ولا يخاف أحداً إلا الله العزيز القدير الذي خلقه  
وصوره فأحسن صورته إذ يقول :

لا تسكن خائفاً سوى الله شيئاً إنها من شواهد التوحيد

وكان الصفي يحرّض السلاطين والملوك والأسراء على حرب المغول وجهادهم  
ويستنهضهم لطردهم من البلاد الاسلامية وتخليص المسلمين منهم . وكان يصفهم  
بالشرك والكفر ، ويرى أنهم أصل البلاء الذي حل بالمسلمين ، وأساس الخن  
التي انتابتهم . وانهم هم الذين انتهكوا حرمة الدين فسيبوا هذا التدهور  
والانحطاط . وقد منعه دينه وشعوره باعتدائهم على الاسلام أن يتصل بهم  
وأن يمدحهم . وما هو يشكو إلى الرسول الكريم ما يلقاه المسلمون منهم :

إليك رسول الله أشكو جرائمنا يوازي الجبال الراسيات صغيرها

كباثر لو تبلى الجبال بحملها لدكت ونادى بالقبور نبورها

ولولا تدبّر الصفي وقوة إيمانه لما نخرج من شرب الخمر حين اضطرته ظروفه  
أن يشربها في بلاط الأرتقيين . فصار محتال على شربها بالتحليل فيرى أن  
الاعتدال في شربها يحللها لأنها تعتبر دواء ، وأن مزجها بالماء يحللها لأنها تفقد  
خواصها . وكان لا يشربها في رمضان حتى في المساء .

قلت : شهر الصيام قد جاء والشرب ولو في دجاء - عندي - حرام

وربما تاب إلى رشده وعاد إلى هاتف ضميره الحي يقيظ الذي يفيض بإيمان  
قوي بالاسلام ، واعتقاد صادق بتعاليمه ، فاعترف بأن شرب الخمر حرام وأن  
الخمر رجس من عمل الشيطان :

فاسقني القهوة التي قبل عنها : إنها من شرائط الشيطان

ويقول حين يهيم بشرب الخمر : مضمناً قول ( الطغرائي ) :

« فهل تعين على غيِّ همت به ؟ » .....

وربما قال إنه ما شر بها إلا لوثوقه بأن الله يغفر الذنوب جميعاً :

لا تخف مع رجاء ربك ذنباً إنه يغفر الذنوب جميعاً

ويقول :

ونقُ أن ربَّ العرش جل جلاله غفور رحيم للسرائر مدرك

وما كان من ذنب لديك فانه سيفغره إلا به حين يشرك

ولولا شعوره الديني وإيمانه القوي ، لما تاب عن شرب الخمر :

فبحقي أموت يا مالك الرقِّ وأتني عن اللدام عنائي

وتدبُّن الصفي هو الذي دفعه إلى حج بيت الله الحرام : وزيارة قبر الرسول

الكريم : وهناك وقف بين يدي بارئه يدعوه قائلاً :

يارب إني دخلت بيتك والداخل بيت الكريم في حسبه

.....

ونستطيع أن نلمس إيمان الصفي بالاسلام وتمسكه له وتعلقه به من مدائح

الكثيرة للنبي الكريم فهو يقول :

غدت تمقاضانا المسير لأنها إلى نحو خير المرسلين مبرها

ترضُ الحصاشوقاً لمن سبَّح الحصا لديه وحيثاً بالسلام بغيرها

إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة إلى خير معبود ، دعاها بشيرها

محمد خير المرسلين بأسرها وأولها في الفضل وهو أخيرها

فغراه يصف الرسول الأمين بالصفات التي يعز بها كل مسلم حق الاسلام ،

فهو سيد الرسل وخير المبعوثين بالحق والهدى ، وأول الأنبياء فضلاً وآخرهم

وخاتمهم بمناً . وذكر كل مناقبه وفضائله وعلاماته . لحين ولد خدعت نار فارس

وتزلزل ايوان كسرى وعرش قيصر :

خدمت لفضل ولادك النيران وانشق من فرح بك الايوان

وتزول النادي وأوجس خيفة من هول رؤياه (أنوشروان)  
فتأول الرؤيا (سطيح) وبشّرت بظهورك الرهبان والكهان  
فوضعت لله المهيمن ساجداً واستبشرت بظهورك الأكوان  
فرأت قصور الشام (آمنة) وقد وضعتك لا تحفى لها أركان  
ولو انني وفيت وصفك حقّه فني الكلام وخانت الأوزان  
فعليك من رب السماء سلامه والفضل والبركات والرضوان  
أفليست هذه عقيدة المسلم المؤمن إيماناً راسخاً بدينه المعتز بفضله ؟

### ٣ - تشيعه :

كان المسلمون في هذا العصر قد انقسموا إلى فرق ومذاهب مختلفة ؛ فهناك الشيعة وأهل السنة ، وهناك المعتزلة والخواارج . . . وكان لكل فرقة فقه خاص وعلماء مجتهدون في فقههم ، ألفوا الكتب الطوال وكانت لهم الحجج والبراهين على صحة آرائهم ، وكانوا يخالفون الفرق الأخرى الرأي ، فيجادلونهم ، يردون على آرائهم ، وربما كفروا غيرهم وجردوهم من الاسلام ، فوقعت بسبب ذلك الحروب الكثيرة بين المسلمين . . . فإلى أي فرقة مال الصني ؟ .. وأي مذهب اعتقد ؟

كان الصني شيعياً إمامياً لا شك في ذلك ، وقد قال عنه هذا معظم الذين ترجوا له ، فقد قال (صلاح الصفدي) : « . . . انه كان شيعياً ، وليس هذا الأمر في الحلة بدعياً » . ورأى الجميع مثل رأي الصفدي ، إلا أن (ابن حجر العسقلاني) لم يرض بذلك . فقد قال : « . . . وكان يتم بالرفض وفي شعره ما يشر به ، وكان مع ذلك يتنصل بلسان » وهو في أشعاره موجود .

وابن حجر هنا يعني بالرفض التشيع بصورة عامة ، فهو لا يفرق بين مذاهب الشيعة المختلفة ، لا يفرق بين الشيعة الامامية والغلاة الرافضة وغيرهم . والدليل على ذلك « أنه قال معتمداً على شعر الصني » ولا نجد في شعر الصني أي غلو ولا أي تعصب لمذهبه ، كما وجد عند غيره من الشعراء الذين كانوا يتعصبون تعصباً أعمى دون تعقل « ويؤمنون بخرافات لا أساس لها من الصحة ، والمذهب الشيعي منها براء ، وربما كان منهم من يؤله (علياً) إلى غير ذلك مما لا يرضى به (علي) نفسه . ونجد أن آثار التشيع التي ظهرت في شعر الصني معتدلة كلها ليس فيها أي حرج « وليس هناك أي داعٍ للتنصل عنها . وما دام ابن حجر قد اعتمد على ما في شعر الصني (لانها) بالرفض والغلو « فاننا نعتمد على شعره أيضاً لنقول إنه ما كان مغالياً وإعماً كان شيعياً إمامياً . فالمذهب الشيعي لا يختلف عن المذاهب الاسلامية الأخرى في شيء من صميم الدين ، فهي متفقة كلها على أساس الدين ومبادئه العامة وأركانها « ولا تختلف في صلب الدين . فكلها تستمد تعاليمها من الشجرة المحمدية الطيبة ، وكل ما هنالك من خلاف « فهو في المسائل الفرعية فحسب . كالخلاف بين الحنفية والشافعية ، أو بين المالكية والحنبلية . اللهم إلا الخلاف في مسألة الخلافة والامامة « فالامامية يقولون بامامة (علي بن أبي طالب) (رضي الله عنه) بعد النبي نصاً ظاهراً وتعييناً صادراً من غير تعريض بالوصف بل بالإشارة إليه بالعين « ولا يرون شيئاً أهم في الدين من تعيين الامام حتى لا يفارق النبي أمته دون أن يكون لها أمير يوحد كلمتها ويدير سياستها « فلا تذهب مذاهب شتى ويتفشى فيها الخلاف<sup>(١)</sup> . وليس هنا مجال البحث في ذلك أو التوسع فيه « وإنما نريد أن نشير إلى أن المذهب الشيعي لا يختلف عن المذاهب الاسلامية الأخرى إلى درجة الاعتقاد بأرب الشيعي المذهب خبيت الاعتقاد « وأن من تشيع قيل إنه يتهم بذلك ، وأن هذه التهمة

يجب أن تنفى عن الرجال الفضلاء - كما يقول بعض الباحثين - وقد جاء الاسم من التشيع لآل البيت - وخاصة الامام علي بن أبي طالب - وجههم جميعاً » وهل حب آل البيت جريمة يقيم بها المرء ؟

ولم لا يكون الصفي شيعياً وقد ولد في الحلة ؟ وكانت الحلة مركزاً لعلماء الشيعة وموطناً لمدارس الفقه الامامي ، ومنبعاً لعلومهم ومعارفهم » فكانت المنار الذي أضاء العالم الاسلامي ومزق سحجف الظلام الدامس الذي ادهم عليهم في هذه الفترة من الزمان . وخرجت منها المؤلفات العظيمة تحمل بين طياتها أقوم المناهج وأوضح السبل في أمور الدين والدنيا . كيف لا وإبن الذين أسسوا الحلة » وهم الأمراء المزيديون ، كانوا من الشيعة الامامية المتمصبين ، المشهورين بحبهم لعلي وآل علي » المعتقدين اعتقاداً راسخاً أنهم أحق الناس بإمامة الناس » لأنهم أهل العلم والفضل والتق والورع . فنذ القديم ، قبل أن يستوطنوا الحلة ويتخذوها عاصمة لهم ، وقد كانوا قرب البصرة » استطاع أميرهم ( أبو الحسن علي بن مزبد الأسدي ) أن يسعى لدى الخليفة العباسي سنة ( ٣٩٨ هـ ) لارجاع ( الشيخ المفيد ) فقيه الشيعة الامامية في بغداد » حين أخرجه الخليفة من بغداد بعد الفتنة التي وقعت بين الشيعة والسنة ، ولم يسع الحكومة إذ ذاك إلا أن نجيب طلب الأمير المزيدي » وتعيد الفقيه الشيعي إلى مكانه ومكانته .

وحين أراد السلطان المغولي ( محمد خدا بنده ) - خربنده - أن يعرف حقيقة المذهب الشيعي أشار عليه أحد أصحابه أن يرسل إلى أهل الحلة ليعمثوا إليه بعالم من علمائهم يسط له مبادئ هذا المذهب . فأرسلوا له العلامة الحلي ( جمال الدين أبو منصور ) فاستطاع أن يحبب إليه المذهب الشيعي فاعتقده وتمصب له ، وتشيع معه جمع غفير من أقاربه وأصحابه <sup>(١)</sup> .

وهذا الشاعر عبدالرحمن السكناني المتوفى سنة ( ٦٢٩ هـ ) يقول في ( راجح الحلي الأسدي ) :

يقولون لي ما بال حظك ناقصاً لدى راجح رب السماحة والفضل  
فقلت لهم : إني سميُّ ابن ملجم وذلك إسم لا يقول به حلي<sup>(١)</sup>  
ومعروف أن ( ابن ملجم ) هو الخارجي الذي قتل الامام علياً ( رضي الله  
عنه ) فهل هناك أحسن من هذا الدليل على تشيع الحليين ؟

وظلت الحلة على عقيدتها ومذهبها الشيعي الامامي حتى اليوم . يتعالى على  
مآذنها اسم علي بعد ذكر النبي الكريم ، ويتردد على منابرها ذكر آل البيت  
الكرام ، وتتلّى في محافلها مناقبهم الكريمة وتذكر مواقفهم المجيدة في الدفاع  
عن الاسلام . كذكر واقعة الطف التي استشهد فيها مع الامام ( الحسين بن  
علي ) أهل بيته الأنحباب في سبيل الحق والعدالة والحرية والواجب .

فالصني الذي ولد في هذه البيئة لابد أن يتأثر بها . ولا بد أن يعتنق  
مذهبها ، وفوق هذا كله فقيصلته كانت علوية منذ القديم . منذ الخلاف بين  
علي ومعاوية - الكثير منهم أنصار معتدلون ، والقليل منهم شيعة متمصبون -  
وهل يذهب العربي إلا مذهب الدين المحمدي من صلبيهم . وهل يتبع إلا سنتهم .  
خاصة إذا كانت مما يرضي الله ويرضي الرسول ، وماذا يرضي الرسول أكثر  
من حب آل بيته الكرام رعاة الدين وحفظة تراثه المجيد .

فالصني يقول مبيناً حبه لآل البيت مخاطباً النبي ( ﷺ ) :

وآلِكَ الغرر السَّلاطِينُ بِهَا عَرَفْتُ سَبِيلَ الرِّشَادِ فَكَانَتْ مَهْتَدَى الْفُرْقِ  
ويقول :

يَا عَتْرَةَ الْمُخْتَارِ يَا مَنْ بِهِمْ أَرْجُو نَجَاتِي مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ  
حَدِيثَ حَبِيٍّ لَكُمْ سَائِرٌ وَسُرُودِي فِي هَوَاكُم مَقِيمٌ

قد فزت كل الفوز إذ لم يزل صراط ديني بكم مستقيم  
 فمن أنى الله بعرفانكم فقد أنى الله بقلب سليم  
 وهل بعد هذا التصريح بتشيعه وميله إلى آل البيت من برهان ؟ فهو  
 يرى أن دينه مستقيم بحبه لآل البيت ، وأنه سيلقى ربه بقلب سليم لأنه  
 يعرف فضلهم .

وقد رد على قصيدة ابن المعتز العباسي التي قالها في العلويين بحجج قوية لا  
 تصدر إلا عن إيمان عميق واعتقاد راسخ . وخطب الصفي في هذه القصيدة  
 العباسيين قائلاً :

بكم باهل المصطفى أم بهم فرد العداة بأوصابها  
 يشير الى المباهلة التي جرت بين الرسول ( ﷺ ) وبين بعض أخص  
 النصارى . وقد خرج النبي ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين ، فرد كيد  
 خصومه إلى نحورهم فولوا مدبرين .

فالصفي إذ أشيعي إمامي ، وقد ظهرت آثار تشيعه في شعره . فكان  
 يصرح بحبه للإمام علي فيقول :

توالّ علياً وأبناءه تفرّ في المعاد وأهواله  
 إمام له عقد ( يوم القدير ) بنصّ النبيّ وأقواله  
 له في التشهد بعد الصلاة مقام يخبر عن حاله  
 فهل بعد ذكر آل السّماء وذكر النبي سوى آلّه ؟

فجلي أنه يصرح بأن ذكر علي وآل علي في الصلاة فرض واجب ، ويرى  
 أن حب علي واجب على كل مسلم ومسلمة .

والشيعة يقولون : « لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار » والصفي  
 يمتدح بهذا اعتقاداً جازماً وإلا لما قال :

وانتقى باكياً يقبل كفه يّ ويهوى طوراً على القدمين



قائلاً : إن عفوت قبل كما فيه سل وما شاع عنك في الخافقين  
 إن في رتبة الفتوة أصلاً لك يُعزى إلى (أبي الحسين)  
 وكذلك نرى في شعره اقتباساً للأحاديث الشريفة التي تروى في فضائل  
 الأمام علي وعلمه . قال مخاطباً الرسول :

مدينة علم وابن عمك بابها فن غير ذاك الباب لم يؤت سورها  
 فزاه يشير بهذا البيت إلى الحديث الذي قاله الرسول : « أنا مدينة العلم  
 وعلي بابها . . »

ويرى الامامية أن النبي أوصى لعلي من بعده فهو وصيّه وخليفته وهذه  
 الوصية كانت في مواضع شتى منها التصريح ومنها التعريض ، وأما تصريحه ؛  
 فبإيعته علياً في (غدير خم) بعد أن نزل عليه : « يا أيها الرسول بلغ ما  
 أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت الرسالة » إذ قال : « من كنت  
 مولاه فعلي مولاه ، اللهم والي من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره  
 واخذل من خذله وأدر الحق حيث دار » . وقد قام عمر بن الخطاب فهناً  
 قائلاً : « طوبى لك يا علي أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة <sup>(١)</sup> » . يقول  
 الصفي في هذا :

إمام له عقد ( يوم الغدير ) بنصّ النبي وأقواله  
 ويقول أيضاً :

وأخيك في يوم الغدير وقد بدا نور الهدى وتأخت الاخوان  
 ويقول :

صاحب النصّ والأدلة والاجماع في المشرقين والمغربين  
 واختيار الرسول لعلي وصياً له كان بأمر الله ووحى من عنده :  
 فوالله ما اختار إلاّ الله محمداً حبيباً وبين العالمين له مثل  
 كذلك ما اختار النبي لنفسه علياً وصياً وهو لا يفقه بمسل

وصيّره دون الأُتَام أخاً له وصنواً وفيهم من له دونه الفضل  
 وشاهد عقل المرء حسن اختياره فإبال من يختاره الله والرسول ؟  
 ووصفه بالصفات التي يرتفع بها عن منزلة الناس جميعاً ، ويأتي بمنزلة بعد  
 منزلة الرسول « فترهه عن كل خطأ » ووصفه بكل وصف عظيم ، ناظماً  
 كلام ( ابن عباس ) في الامام علي :

جُمِعَت في صفاتك الأضداد فلمـ إذا عزت لك الأنداد  
 زاهد حاكم ، عليم شجاع ناسك فأنك ، فقير جواد  
 شيم ما جُمع في بشر قط ولا حاز مثلن المباد  
 خلق ينجب النعيم من اللطف وبأس يذوب منه الجباد  
 . . . . .

ويرى الشيعة أن الله قد عصم آل البيت من الخطأ « إذ قال عز من قائل :  
 » إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً « ولا يرون  
 معنى لهذا التطهير غير العصمة عن الخطأ ، ويقولون إنها نزلت في علي وفاطمة  
 والحسن والحسين فحسب ، أي ليس في غير بيت علي . وقد قال الصفي في  
 هذا المعنى :

إنما الله عنكم أذهب الرجس فردت بغيظهما الأضداد  
 ورأى الصفي مرة رجلاً سيئ الخلق يدعي أنه علوي « فغضب لذلك أشد  
 الغضب وقال ساخراً منه :

قال النبي مقال صدق لم يزل يجري على الأسماع والأفواه  
 من غاب عنكم أصله ففعاله تنبيكم عن أصله المتناهي  
 وسفرت عن أفعال سوء أصبحت بين الأُتَام قليلة الأشباه  
 وتقول إنك من سلالة حيدر أفأنت أصدق أم رسول الله ؟

فتراه يدافع عن كرامة أهل البيت وحسن خلقهم وكرم أصلهم ويثبت  
 عصمتهم .

ومن عقائد الصفي الشيعة ، شفاعة آل البيت لمحبيهم عند الله واستجابته -  
صباحانه لهذه الشفاعاة :

يا عترة المختار يا من بهم يفوز عبد بنو الاكم  
أعرّف في الحشر بحبي لكم إذ يُعرّف الناس بسلام  
لهذا كان مدحه للرسول وآل بيته من باب الداء وطلب الشفاعاة في يوم  
الحشر . يقول :

أشكو اليك ذنوب نفس هفوها طبع عليه رُكْبَ الانسانُ  
فأشفع لعبد شانه عصبانهُ إن العبيد يشينها العصيانُ  
فلك الشفاعاة في محبكم إذا نُصِب الصراطُ وُعُلِقَ الميزانُ  
فلقد تعرض للاجازاة طامعاً في أن يكون جزاءه الغفرانُ  
ويقول :

وبين يدي نجواي قدمت مدحة قضى خاطري ألا يحيب خطيها  
أجرني أجرني واجزني أجر مدحتي ببرد إذا ما النار شب سعيها  
والصفي حين يريد أن يعلي قدر انسان ويحمله يصفه بأنه علوي ، فحين رثي  
السيد النقيب ( غياث الدين عبدالكريم ) قال :

وتخطو إلى عبدالكريم خطوبه ويطلب منا اليوم غفران ذنبه  
سليل النبي المصطفى وابن عمه ونجمل الوصي الهاشمي نصلبه  
وقال في رثاء السيد ( النقيب مجد الدين أبي الفوارس ) :

صروف الليالي لا يدوم لها عهد وأيدي المنايا لا يطاق لها ردُّ  
سليل صفي المصطفى وابن سبطه لقد طاب منه الأم والأب والجَدُّ



ويجب أن نلاحظ أن الصفي كان معتدلاً في تشيعه منصفاً في اعتقاده ،  
فهو ليس مغالباً ولا متمصباً تمصباً أعمى ، شأنه في ذلك شأن عقلاء الشيعة  
الدين يسبرون على مبادئ المذهب الحققة دون أن يدخلوا فيها التعمصب .

والطرافات ، ودون أن يرموا غيرهم من المذاهب الاسلامية الاخرى بالكفر والخروج عن الدين . فكان الصفي يحب الصحابة جميعاً ويقدرهم حق قدرهم إذ يقول فيهم :

ولائي لآل المصطفى عقد مذهبي وقلبي من حب الصحابة مغمم  
وما أنا ممن يستجيز بحبهم مسبة أقوام عليهم تقدموا  
فهو موال لآل البيت . يحب الصحابة ، ولكنه لا يستجيز بحبهم مسبة  
أحد . فيذهب بهذا مذهب الشيعة الحق ، الذي لا يرضى بلعنة أحد من  
المسلمين . فقد روي عن الامام جعفر الصادق (رض) الفقيه الأول للشيعة  
الامامية أنه نهى عن سب الخلفاء وغيرهم من الصحابة فقال الشاعر الشيعي في  
هذا المعنى :

فلا تسبوا (عمرأ) كلاً ولا (علمان) والذي تولى أولاً<sup>(١)</sup>

.....

وكان الصفي يقول في الصحابة أيضاً :

فيل لي : تمشق الصحابة طراً أم تفردت منهم بفريق ؟  
فوصفت الجميع وصفاً إذا ضو ع أزرى بكل ممك سحبق  
قيل : هذي الصفات والكل كالدر ياق يشني من كل داء وثيق  
قال من ؟ قيل ، فقلت : إلى الأربع لاسبأ إلى الفاروق  
ورأينا الصفي لا يظهر أثر فقه الشيعة في شعره ، بينما ظهرت آثار  
دراسته الفقه الاسلامي . فقد ذكر القياس وغيره من اصطلاحات الفقهاء  
وتصيراتهم المختلفة . وربما كان للسنوات الطوال التي قضاها في ماردين مع  
أناس ليسوا من الشيعة ، أثر في ذلك فجعله يرى أن جميع المذاهب سواء  
وأن الاعتقاد في القلب . وأن الدين لله وحده .

وربما كان أثر ذلك أعمق وأعمق فرأينا الصفي يعزف عن أم ما يمتاز به

شعراء الشيعة وهو رثاء ( الحسين بن علي ) وأصحابه الأبطال شهداء الطوفان ،  
والتفجع عليهم ، والتفني ببطولاتهم الفذة ومواقفهم المجيدة وتصوير مأساتهم  
الفاجعة أعظم مآسي التاريخ الاسلامي في شعرهم ، فلم نجد لهذا في شعره أي  
أثر ، بالرغم من أنه كان يقول الشعر في شهر ( محرم ) بل وقد رثى من توفي  
في يوم عاشوراء ، كرتائه للسيد الشريف حماد الدين ناصر بن محمد الدلقندي  
وقد توفي يوم عاشوراء من عام ( ٨٧٤٦ ) فقال :

اليوم زرع ركن الدين وانهدما      فحق للخلق أن تذري الدموع دما  
... الى أن يقول :

يا ابن الأئمة والقوم الذين سموا      على الأنام فكانوا للهدى علما  
مثواك في يوم عاشورا بخبرنا      بقرب أصلك من آباءك الكرام  
وخلقك السبط يا ابن السبط حننا      فيوم مصرعه من بيننا اخترنا  
فهو يتألم للحفيد ، ولا يرثي الجد الشهيد !!



## الباب الثاني

### شعره

صفت القريض ولم ألقه تكافأ  
أبكار أمكاري تزف كواعباً  
لكنه طبع لدي عزيز  
لا كالمقار تزف وهي عجوز



## الفصل الأول

### آثاره الشعرية

أهدي قلائد أشعار فرائدها      در نهضت به من أبحر عرق  
نظمتها فيك ديواناً أزف به      مدائحاً في يسوى عليك لم ترق  
لم أقتنع بالقوافي في أواخرها      حتى لزمت أوالها فلم تسق

### ١ - الديوان :

جمع الصفي ديوانه بنفسه في القاهرة ، في بلاط الملك ( الناصر محمد بن قلاوون ) وقد رتبه حسب موضوعاته فجعله في اثني عشر باباً :

الباب الأول : في فصلين - الأول في الفخر والحماسة ، والثاني في التحريض على الرياسة .

والباب الثاني : في فصلين - الأول في المدح ، والثاني في الشكر والتهاني .

والباب الثالث : في فصلين - الأول في الطرديات ، والثاني في الوصف .

والباب الرابع : في فصلين - الأول في الاخوانيات ، والثاني في صدور المراسلات .

والباب الخامس : في فصلين - الأول في المراني ، والثاني في التعازي .

والباب السادس : في فصلين - الأول في الغزل أبو الفسيب ، والثاني في طرائف التشبيب .

والباب السابع : في ثلاثة فصول - الأول في الحجريات ، والثاني في الدعوة إلى الشرب ، والثالث في الزهريات .



والباب الثامن : في ثلاثة فصول - الأول في المكوى والعتاب ، والثاني في تقاضي الرعود ، والثالث في تقاضي أجوبة الكتب .  
والباب التاسع : في ثلاثة فصول - الأول في الهدايا ، والثاني في أحوال شتى ، والثالث في الاستعطاف والاستغفار .

والباب العاشر : في ثلاثة فصول - الأول في العويس ، والثاني في الألغاز ، والثالث في تقييد ضوابط العلوم والفنون .  
والباب الحادي عشر : في ثلاثة فصول - الأول في الملح المستطرفة ، والثاني في الأهاجي ، والثالث في الاحماض والمجون .  
والباب الثاني عشر : في ثلاثة فصول - الأول في الأدب والحكم ، والثاني في الزهديات ، والثالث في نوادر مختلفات .

وقدّم صني الدين هذا الديوان بمقدمة أولها : « الحمد لله الذي علم الانسان البيان ومنّ عليه ، والصلاة على نبيّه محمد الذي مدح الشعر ودعا لناظمه وإليه ، وعلى آله أهل البيت خزنة علمه الأمانة على ما لديه ، وعلى خير صحبه القافية أثره المجاهدين بين يديه . . . الخ » .

وقد بين الصفي في هذه المقدمة شيئاً من الحوادث التي مرت به في حياته .  
وافتتانه بالشعر منذ صباه واعجابه ببعض الأغراض وتركه البعض الآخر وجمعه الديوان وتدوينه . . . إلى آخر ما هنالك .

وطبع هذا الديوان مرتين « الأولى في دمشق سنة ( ١١٣٩٠ - ١٨٣٣ م )  
والثانية في بيروت سنة ( ١٨٩٣ م ) .

وعدد صفحات الطبعة الأولى ( ٥٧٢ ) صفحة في كل صفحة ( ٢٣ ) بيتاً .  
أما الطبعة الثانية فعدد صفحاتها ( ٥٢٨ ) صفحة في كل صفحة ( ٢٤ ) بيتاً .  
وقد ضمت طبعة دمشق كل أبواب الشعر حتى الاحماض والمجون ، لكن  
ناشرها أبي إلا أن يؤخر فصل الاحماض والمجون إلى آخر الديوان وقد أشار  
إلى ذلك في موضعه . بينما حذف هذا الفصل في طبعة بيروت . وأضيف إلى

الديوان في الطبعتين « ديوان درر النحور في مدائح الملك المنصور »  
- القصائد الارتقيات - والكافية البديمية ، وبعض رسائل الصفي إلى  
السلطين وبعض إخوانه وأصدقائه<sup>(١)</sup> .

وكل من هاتين الطبعتين رديئة « فالديوان ملي بالأخطاء والتحريف  
والتصحييف والزيادة والنقص « مما يجعل الأوزان مكسورة والماني غير صحيحة  
وهناك كثير من الأبيات انقلب معناها إلى عكسه .

والصفي نفسه يصرح بأن هذا الديوان لا يضم شعره كله إذ يقول في  
مقدمته : « واستحضرت ما حضرني حسب الاستطاعة ، واخترت منه ما يجب  
ويدني » فغنى هذا أنه قد أنسى بعض هذا الشعر « وأنه ترك البعض الآخر  
منه متعمداً . ولكن لا ريب في أن هذا الشعر المتروك لا أهمية له ، ولا ريب  
أنه ليس كثيراً بحيث يؤثر فقده في الأحكام التي تستنبط من دراسة الديوان .  
ولا شك أن الصفي قد نظم الكثير من الشعر بعد أن جمع ديوانه سنة (٥٧٢٦هـ)  
تقريباً ، وقد ضمت هذه القصائد أو بعضها - إن لم تكن كلها - إلى الديوان .  
فإننا نجد فيه قصائد قالها بعد هذا التاريخ « فهناك قصيدة في مدح الملك الصالح  
أرسلها إليه من دمشق سنة (٥٧٢٧هـ) مطلعها :

إذا لم تعني في علاك المدائح فن أين لي عذر عن البعد واضح

---

(١) وقد طبع مرة أخرى في النجف الأشرف سنة ١٩٥٦ م (سنة ١٣٧٥ هـ)  
في الطبعة العلمية - وعدد صفحات هذه الطبعة (٥٥٢) صفحة ، وهذه الطبعة - كما بقاها -  
ملائي بالأغلاط المختلفة . وبالرغم من أن الناشر قد كتب في أول صفحة من الديوان وفي  
مكان بارز : « قوبلت على عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة » إلا أنه يخيل إلي أن هذه الطبعة  
اعتمدت على طبعة دمشق ليس إلا ، فقد شابهتها مشابة تامة في كل شيء ، في التنسيق  
والترتيب ووضع (البديمية) و (القصائد الارتقية) وتأخير فصل (الأحاض والجون) . .  
وحى الملاحظات الثلاث التي في طبعة دمشق حول الغرض من تأخير فصل الجون كتبت  
بالحرف الواحد وبأمانة تامة في هذه الطبعة « مما يدل دلالة أكيدة أن المنعول عليه الأول  
والآخر هو طبعة دمشق لا غير .

وقصيدة أخرى في مدحه أيضاً سنة ( ٧٣٠ هـ ) بدأها بقوله :

أيامك العصر الذي شاع فضله    وبابن ملوك العرب والمعجم والترك  
ومدحه أيضاً بقصيدة أخرى سنة ( ٧٣٩ هـ ) مطلعها :

زُوجَ الماء بآبنة العنقود    فأجملت في قلائدِ وعقود  
وهناك موشحة يهنئه فيها بالعيد سنة ( ٧٤١ هـ ) :

لما شدت الورق على الأغصان    بين الورق

ورئي الملك الناصر عند وفاته سنة ( ٧٤٢ هـ ) بقصيدته التي مطلعها :

وفي لي فيك الدمع إذ خاني الصبر    وأنجد فيك النظم إذ خاني النثر  
وله في رثاء الأمير ( محمد الدين ناصر بن محمد الدلقندي ) الذي توفي سنة  
( ٧٤٦ هـ ) قصيدة يبدأها بقوله :

اليوم زعزع ركن الدين وانهدما    لحق للخلق أن تذري الدموع دما  
وهذا الديوان غزير الشعر مقشعب المواضيع يستحق العناية والاهتمام والدرس  
والتحقيق .



وفي دار السكتب المصرية أربع نسخ خطية من ديوان الصفي :

النسخة الأولى : تحت رقم ( ٥٣٥ ) أدب . ونظم ( ٢٤٤ ) ورقة أي  
( ٤٨٨ ) صفحة في كل صفحة ٢١ بيتاً طول الورقة ٢٢ سم ، وعرضها ١٦ سم .  
طول الجزء المكتوب من كل صفحة ١٨ سم وعرضه ١١ سم . وأوراق هذا  
المخطوط بيضاء سميكه في حالة جيدة . قد كتبت عناوينه بالخير الأحمر . وهو  
مكتوب بقلم معتاد بخط ( عبد الطيف محمد ) ، قد فرغ من كتابته في ١٤  
ذي الحجة سنة ( ١٢٨٤ هـ ) . وليس فيها تعليقات على الهوامش إلا نادراً .  
وقد أضيفت إليها القصيدة البديعية .

وأما النسخة الثانية : فرقمها ( ١٢٦٩ ) أدب ونشتمل على ( ٣٣٦ ) ورقة  
أي ( ٦٧٢ ) صفحة ، في كل صفحة ١٥ بيتاً . طول الصفحة ٢٠ سم ،

وعرضها ١٣ سم . طول الجزء المكتوب ١٦ سم وعرضه ٩ سم . وورق هذا المخطوط أصفر صقيل حالته جيدة ، ولم يضاف إليه الكتاب الكافية البدئية . وعليه شرح ألفاظ القصيدة الساسانية . مكتوب بخط قديم معتاد . الصفحة الأولى منه مزخرفة . كتبت العناوين بالحبر الأحمر . وفي الهوامش تعليقات وتصحيحات وشرح .

وأما النسخة الثالثة فرقها ( ١٣٩٩ ) أدب وعدد أوراقها ( ٢٨٣ ) ورقة أي ( ٣٦٦ ) صفحة ، في كل صفحة ٢١ بيتاً ، طول الورقة ١٩ سم ، وعرضها ١١ سم . طول الجزء المكتوب من كل صفحة ١٥ سم وعرضه ٧ سم . ورق هذه النسخة أصفر قاتم سميك قديم ، فيه الكثير من التلف والترقيق . لكن الناقص من الكتابة قليل جداً . وليس فيها تعليقات على الهوامش إلا نادراً جداً . ولم يضاف الكتاب إليها القصيدة البدئية . وقد شرح ألفاظ القصيدة الساسانية . كتبت عناوينها بالمداد الأحمر . ولم يذكر تاريخ كتابة هذا المخطوط أو الفراغ من ذلك . ولعله من المخطوطات القديمة .

أما النسخة الرابعة : فتحت رقم ( ٥٠٩٥ ) أدب وتضم ( ١٩٨ ) ورقة أي ( ٣٩٦ ) صفحة ، في كل صفحة ١٣ بيتاً طول الصفحة ٢٤ سم وعرضها ١٨ سم . طول الجزء المكتوب منها ١٧ سم وعرضه ١٢ سم . ورقها أصفر سميك في حالة جيدة . كتبت بخط نسخ بقلم معتاد قديم معكول بالحركات وعناوينها مكتوبة كلها بالمداد الأزرق . في الصفحة الثانية بياض وبها ترقيق قليل . تناقل هذه النسخة كثير من الناس كتبوا أسماءهم عليها . فيها نقص كثير في المقطوعات والقصائد كالمقطوعات التي يمدح الصفي فيها الرسول وآل البيت والصحابه ، ومقطوعات الهجاء ، وغير ذلك . والفصل الأول من الباب الماشر غير موجود منه سوى أبيات قليلة جداً . وبالرغم من هذا فإن أحد مالكي هذه النسخة كتب عليها : « هذه النسخة قديمة جداً جداً » . وكل هذه النسخ تبدأ بالمقدمة وتنتهي بالفصل الثالث من الباب الثاني عشر .

ولا يوجد في واحدة من هذه النسخ الأربع شيء من رسائل الصفي أو القصائد  
الارتقيات . وفيها جميعاً كثير من الخطأ والتصحيح والتحريف . وهناك  
اختلافات كثيرة بين هذه النسخ . وعلى سبيل المثال أخذت رأيته في مدح  
الرسول ومارنتها بين هذه النسخ لتبيان تلك الخلافات .

فمدد أبيات هذه القصيدة في النسخ : الأولى والثانية والرابعة ٩٠ بيتاً  
أما في النسخة الثالثة فهو ٩١ بيتاً لأن فيها بيتاً ليس موجوداً في النسخ الأخرى  
حتى المطبوعة منها وهو :

إلى ملك ظل الغمامة حبره إذا ظلمت صيد الملوك حبورها  
وقد ورد بعد البيت :

إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة إلى خير معبود ، دعاها بشيرها  
وقد سقطت من ناسخ النسخة الثالثة هذه الأبيات :

نظرنا فأعدتنا السقام عيونها ولدنا فأولتنا النحول خصورها  
وزرنا فأسد الحى تذكى لحاظها ويسمع في غاب الراح زفيرها  
فيا ساعد الله المحب لأنه يرى غمرات الموت ثم يزورها  
وقد كتبها على الهامش . وسقط من ناسخ النسخة الرابعة بيتان كتبهما في  
الهامش أيضاً وهما :

حروف كنونات الصحائف أصبحت نخط على طرس الفيا في سطورها

إذا نظمت نظم القلائد في البرى تقلدها خضر الربى ونحورها.

ونجد في النسخ الثلاث : الثانية والثالثة والرابعة هذا البيت :

نغار من ( الطيف ) الملم حماها ويفض من مر النسيم غيورها

أما في النسخة الأولى فهو :

نغار من ( الطرف ) الملم حماها ويفض من مر النسيم غيورها

وهذا البيت في الأولى والثالثة :

نظرنا ( فأعدتنا ) السقام عيونها ولدنا فأولتنا النحول خصورها.

نجدته في الثانية :

نظرنا ( فأعتدنا ) السقام عيونها ولدنا فأولتنا النحول خصورها

وفي النسخة الرابعة :

نظرنا ( فأعدتها ) السقام عيونها ولدنا فأولتنا النحول خصورها

وهذا البيت في النسخة الأولى :

( ومهّمت ) بنا لولا غدائر شعرها خطى الصبح لكن قيدته (ضفورها)

وفي الثانية والثالثة :

( ومهّمت ) بنا لولا غدائر شعرها خطى الصبح لكن قيدته (ظفورها)

وفي الرابعة :

( وسمت ) بنا لولا غدائر شعرها خطى الصبح لكن قيدته (سفورها)

وهذا البيت في النسخة الأولى :

ترضُّ (الحصى) شوقاً لمن سبَّح (الحصى) لديه ( وحي ) بالسلام بعيرها

وفي الثانية والرابعة :

ترضُّ (الحصى) شوقاً لمن سبَّح (الحصى) لديه و ( حيا ) بالسلام بعيرها

وفي الثالثة :

ترضُّ (الحصى) شوقاً لمن سبَّح (الحصى) لديه و ( حي ) بالسلام بعيرها

إلى آخر ذلك من الخلافات والتصحيح والأخطاء الشنيعة في كل النسخ مما يدل على أننا في حاجة إلى طبعة جديدة من الديوان « طبعة علمية تقابل فيها النسخ المختلفة .

وفي مكتبة المتحف العراقي في بغداد « نسخة مخطوطة رقها ( ٢٢٤٧ )

ونظم ( ٢٦١ ) ورقة أي ( ٥٢٢ ) صفحة في كل صفحة ( ٢١ ) بيتاً طول

الورقة ٢١ سم وعرضها ١٥ سم . وأوراق هذا المخطوط بيضاء سميكه ، بعضها

ممزق وفيه ترقيع ، مكتوبة بخط نسخي بالمداد الأسود ، وقد كتبت

العناوين بالمداد الأحمر « ليس فيها من التعليقات والشروح إلا النادر ، ولكن

القصيدة الساسانية مشروحة . تبدأ بالمقدمة « وقد سقطت عدة ورقات من آخرها . كُتبت في أوائل القرن الثاني عشر الهجري ، لكننا لا نعرف اسم الناسخ . وقد جمع الناسخ القصيدة البديعية مع مدائح الرسول إذ بدأ هذا الفصل بها » كما أنه أضاف القصائد الأرتقيات - درر النحور في مدائح الملك المنصور - إلى فصل مدح السلاطين . وهناك الكثير من الغلط والتحريف « وقد أخذت قصيدته النونية في الحماصة على سبيل المثال فوجدته بدأها هكذا :

( سلِ ) الرماح الموالي عن معالينا ( واستشهد ) البيض هل خاب الرجا فينا ؟  
( وسائل ) العرب والأتراك ما فعلت في أرض قبر عبيد الله أيدينا  
لما سعيينا ( فاركت ) عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينا  
وهو :

لما سعيينا فإ ( رقت ) عزائمنا عما نروم ولا خابت مساعينا  
وأما البيت :

قوم إذا استخصموا كانوا فراغة يوماً وإن حكموا كانوا موازيناً  
فقد جملة هكذا :

قوم إذا استخصموا كانوا فراغة وإن هم حكموا كانوا موازيناً

وفي العراق كثير جداً من مخطوطات هذا الديوان تفصّل بها المكتبات الخاصة والعامة في النجف وكر بلاه والحلة والموصل<sup>(١)</sup> وغيرها من المدن . . . وهناك نسخ أخرى كثيرة منتشرة في مكتبات أوروبا ، يذكر ( بروكلمان ) أن نسخة موجودة في باريس ( ٣٢٠٥ ) وفي برلين ( ٧٨٥٨ و ٧٨٥٩ ) وفي مكتبة المتحف البريطاني ( ١٠٨٥ ) كما أن في إيران عدداً غير قليل منه .

(١) هناك نسخة في مكتبة مدرسة الحاج حسين في جامع السلطان اويس في الموصل ،  
رقم (١) ونسختان في مدرسة عبدالرحمن جلي الصانع في مسجد الامام ابراهيم (١٥) و(٣١) .

## ٢ - دور النحور في مدائح الملك المنصور :

حين حطّ الصفي الرحال في (ماردين) ، وقوبل بالاجلال والاكرام ،  
 حركت هذه المعاملة الطيبة عاطفته ، فنظم للملك المنصور ديوان شعر عظيم سماه  
 ( درر النحور في مدائح الملك المنصور ) التزم فيه أن يكون أول البيت مثل  
 قافيته فحرف الروي هو نفس الحرف الذي يبدأ به البيت ، فحين يبدأ بالألفه  
 يقول :

أبت الوصال مخافة الرقباء	وأنتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودة	وكذا الدواء يكون بعد الداء
أحيت بزورها النفوس وطالما	ضفت بها فقضت على الأحياء
.....	.....

وفي الباء يقول :

بدت لنا الراح في تاج من الحب	فزقت حلة الظلماء بالهيب
بكر إذا زوجت بالماء أولدها	أطفال دّر على مهد من الذهب
بقية من بقايا قوم نوح إذا	لاحت جلّت ظلمة الأحزان والسكر

ويقول في التاء :

تاب الزمان من الذنوب فوات	وأغنم لذيذ العيش قبل فوات
تم المرور بنا فقم يا صاحبي	نستدرك الماضي بنهب الآتي
تاقت إلى شرب المدام نفوسنا	لا تذهب بين إطالة الأوقات

وهكذا إلى نهاية الحروف الهجائية . وهي تسع وعشرون قصيدة ، كل  
 قصيدة تسعة وعشرون بيتاً ، فيكون عدد أبياتها ( واحداً وأربعين ونمائنة  
 بيت ) . وقد أتم الصفي نظمها في ثلاثة أشهر كما قال ذلك في مقدمة هذه  
 القصائد وقد سماها أيضاً ( القصائد الأرتقية ) . ونحدث عنها في قصيدة  
 حين أهداها للملك المنصور فقال :



أهدي قصائد أشعار فرائدُها      درّ نهضتُ به من أبحر صق  
يضئُها ورق لولا محاسنه      ما لقبوا الفضة البيضاء بالورق  
نظمتها فيك ديواناً أرفُ به      مدائحاً في سوى عليك لم ترق  
ولو قصدت به تجديد وصفكم      لكان ذلك منسوباً إلى الحق  
تسع وعشرون قد عدت قصائدها      ومثلها عدد الأبيات في النسق  
لم أقتنع بالفواقي في أواخرها      حتى لُزمت أواليها فلم تعق  
ما أدركت فصحاء العرب غايتها      قبلي ولا أخذوا في مثلها سبقي  
وتبدأ عشرون قصيدة منها بالغزل      وتسمع قصائد بذكر الحمر      ويتخلص  
بعد ذلك إلى مدح الملك المنصور . وبالرغم من التزام القافيتين كانت شعره  
مستساغ جزل      ومعانيه جميلة      وأسلوبه سليم . والصني هنا يقول إنه  
مبتكر هذا الفن الشعري :

ما أدركت فصحاء العرب غايتها      قبلي ولا أخذوا في مثلها سبقي  
وليس هذا البيت وحده الذي يشير فيه الصني إلى سابقته في هذا الفن      «  
وإنما قال في مقدمة هذه القصائد :      « ... إلى أن أقدم بين يدي نجواي هدية  
ما أحاط بها سواي ولا يحيط ، وألفية لا أحتاج مع التزامي بهذا إلى وسيط ... »  
هذا في حين أننا وجدنا شاعرين متقدمين عن الصني قد نظما مثل هذا الديوان  
أو مثل هذه القصائد ، الأول منهما هو العلامة الفقيه ( أبو زيد عبد الرحمن  
ابن محمد أبي سعيد بخلقتن بن أحمد الفازازي البجفشي الأندلسي ) المتوفى سنة  
( ٦٣٧ هـ ) أي قبل ولادة صني الدين بأربعين عاماً . فقد نظم ( القصائد  
العشرية ) في النصائح الدينية والحكم الزهدية ، وهي ثمانية وعشرون قصيدة  
مرتبة على حروف الهجاء . والتزم في كل قصيدة أن تبدأ أبياتها بحرف  
الروي . وقد طبعت في مطبعة الباي الحلبي بالقاهرة سنة ( ١٣٤٤ هـ ) . وله  
أيضاً ( الوسائل المتقبلة ) في مدح النبي ( ص ) وهي تسع وعشرون قصيدة على

حروف الهجاء أيضاً . توجد منها نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٧١٨ أدب .

وأما الثاني فهو ( مجد الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي الواعظ الشافعي المشهور بالوترى ) ، المتوفى في بغداد سنة ( ٦٦٢ هـ ) أي قبل مولد الصفي بأكثر من خمسة عشر عاماً . وقد نظم الوتريات في مدح الرسول وسماها ( معدن الافاضات في مدح أشرف الكائنات ) وهي تسع وعشرون قصيدة مرتبة على حروف الهجاء تبدأ القصيدة بنفس حرف الروي فيها ، وعدد أبيات كل قصيدة واحد وعشرون بيتاً . وقد طبعت في بيروت سنة ( ١٩١٠ م ) ومطلع القصيدة الأولى :

أصلي صلاة تملأ الأرض والسما على من له أعلا العلا متبواً  
ولا أدري كيف أوفق بين هذا وبين رأي الصفي نفسه الذي يعتقد أنه لم يسبقه أحد إلى هذا الفن . ولا نستطيع إلا أن نقول بأن الصفي لم يطلع على هذه القصائد حين نظم قصائده الأرتقيات . أو أنه اعتبر نفسه أكثر تجويداً . أو أنه اعتبر نفسه أول من عمل ذلك في مدح أحد الملوك . ولا يمكن أن يدعي شاعر مثل الصفي ، وله مثل مكانته ومنزلته ، ما ليس له . لأنه رجل يحب الصدق ويكره الكذب ، ويحب الاستقامة والصراحة ويكره اللف والتدليس .

وقد سمي المتأخرون هذا الفن من الشعر ( الروضة ) وقد وازن قصائد الصفي هذه كثير من المتأخرين وعارضوها ونظموا على غرارها في موضوعات مختلفة . منهم ( محمد الغلامي ) ، وهو من مشاهير شعراء الموصل في القرن الثاني عشر . وقد نظم روضة مدح بها ( أحمد باشا الجليلي ) في الموصل . و ( الشيخ ابراهيم بن يحيى العاملي الطيبي ) المتوفى سنة ( ١٢١٤ هـ ) ونظم روضة بمدح بها ( الشيخ علي بن فارس الصعبي ) أحد أمراء جبل عامل . والشيخ ( صالح بن درويش بن الشيخ زيني النجيمي البغدادي ) . ونظم روضة

للشيخ ( عبد علي الحويزي ) سنة ( ١٢٣٥ هـ ) . والحاج ( جواد بزفت ) ، وهو من مشاهير شعراء كربلاء في القرن الثالث عشر ونظم روضة مدح بها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ( رضي الله عنه ) . والشيخ ( حسن مصبح ) . وهو من أدباء القرن الثالث عشر . ونظم ثلاث روضات ، الأولى في الغزل والثانية في مدح الامام علي ( رض ) والثالثة في رثاء الحسين بن علي ( رض ) . ويبدأ هذا الديوان - أو القصائد الأرئقيات - بمقدمة أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي أطلع نجوم المعاني المضيئة في آفاق خواطر الفصحاء ... الخ » .

وطبعت هذه القصائد عدة مرات ، فقد طبعت مع ديوان الصفي في طبعتي دمشق وبيروت ، وطبعت بمفردها مرتين ، الأولى باسم ( القصائد الأرئقيات ) في المطبعة الوهية بباب الشعرية في مصر . آخر جمادى الآخرة سنة ( ١٢٨٣ هـ ) . وهو كتيب عدد صفحانه ٣٦ صفحة في كل صفحة ٣٧ بيتاً . يبدأ بالمقدمة ويفتحي بآخر القصيدة الياثية . وهي طبعة لا بأس بها من حيث قلة الخطأ والتصحيح . وإن كانت ليست علمية دقيقة . وغير مشروحة .

وأما الثانية فطبعت ضمن مجموعة من القصائد الزردوجات ، في المطبعة الأزهرية للطوخي سنة ( ١٢٩٩ هـ ) . وتشغل هذه القصائد الأرئقيات ٣٩ صفحة من هذا الكتاب . فهي تبدأ من صفحة ٩٥ وتنتهي بآخر صفحة من الكتاب وهي ١٣٤ . وفي كل صفحة ٢٣ بيتاً . وفي هذه الطبعة شيء من الدقة لأنها خالية من الخطأ تقريباً ، وحروفها مشكلة جميعاً .

وهناك مخطوطتان في دار الكتب المصرية :

الأولى : تحت رقم ( ٣٩٤٨ ) أدب . وعدد أوراقها ٣١ أي ٦٢ صفحة في كل صفحة ١٥ سطراً طول الصفحة ١٩ر٥ سم وعرضها ١٤ سم ، وطول الجزء المكتوب منها ١٧ سم وعرضه ١٠ سم . مكتوبة بخط نسخ معتاد . . مشكلة الحروف ، ليس فيها شروح أو تعليقات ، وهي هامة لأن الكتاب

قال : فرغ من كتابتها في ١٢ جمادى الآخرة سنة ( ٧٤٦ ) أي في عصر الصفي بل في أعوامه الأخيرة لأنه توفي سنة ( ٨٧٥٠ ) . ورقها أصفر سميك قديم ، أصابه التلف ورقعت حافته لتآكلها .

أما المخطوطة الثانية ، فرقها ( ٣٧١ ) أدب . ومما جزم من ديوان ( ابن نباتة ) عدد أوراقها - وحدها - ٢٥ ورقة أي ٥٠ صفحة في كل صفحة ١٩ بيتاً ، طول الصفحة ٢١ سم ، وعرضها ١٦ سم ، طول الجزء المكتوب في كل صفحة ١٥ سم وعرضه ١٠ سم . كتبت بخط نسخ بقلم قديم معتاد ، عناوينها مكتوبة بالمداد الأحمر ، فرغ من كتابتها ليلة الجمعة من شهر جمادى الآخرة سنة ( ١٢٦٧ هـ ) ، ورقها أبيض سميك حالته جيدة . وليس عليها شروح ولا تعليقات .

وفي هاتين النسختين الكثير من الأغلط والتصحيف . وهناك نسخ خطية أخرى ذكرها ( بروكبات ) منها : نسخة في ليدن ( ٧٣٢ ) وأخرى في باريس ( ٣٩٥٣ ) وفي الاسكوريال ( ٤٩٨ ) .

### ٣ - البديعية :

كان الصفي مولماً بالصناعة مفتتاً بالبديع ، حتى برز فيه ، وسيطرت الصناعة البديعية والمحسنات اللفظية على شعره . وقد رأى أن الذين ألفوا في البديع لم يبلغوا الكمال ، ولم يتوصلوا إلى حصر كل أنواع البديع ( فالسكاكي ) لم يذكر من أنواع البديع سوى ٢٩ نوعاً ، وجمع مخترعها الأول ( ابن المعتز ) ١٧ نوعاً ، وعاصره ( قدامة بن جعفر ) جمع منها ٢٠ نوعاً ، توارد معه على سبعة منها فتكامل لها ٣٠ نوعاً ، ويعرف كتابه ( بنقد قدامة ) . ثم اقتدى بها الناس في التأليف فكان غاية ما جمع منها ( أبو هلال

المسكري) ٣٧ نوعاً في (كتاب الصناعتين) ، ثم جمع منها (ابن رشيق القيرواني) في (العمدة) مثلها . وأضاف إليها ٦٥ باباً في أحوال الشعر وأغراضه . وتلاهما (شرف الدين التيفاشي) فبلغ بها السبعين . ثم تصدى لها الشيخ (ركن الدين عبدالمعظم بن أبي الأصبع) فأوصلها إلى التسعين . وأضاف إليهما من مستخرجاته (٣٠) سلم له منها عشرون . وذكر أنه وقف على أربعين كتاباً في هذا العلم . وقال الصفي : طالمت مما لم يقف عليه (٣٠) كتاباً فأكلت السبعين<sup>(١)</sup> . وأراد الصفي أن يؤلف كتاباً في البديع يجمع كل هذه الأنواع . إلا أنه أصابه سقم طال زمنه . واشتدت شدته . ولم يبرأ منه ، ورأى النبي (ص) في منامه ، ووعد بالشفاء إن هو مدحه . فعدل عن تأليف هذا الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشنات البديع وتضم أنواعه ، وأطرز بمدح الرسول فنظم هذه القصيدة وسماها « السكافية البديعية في المدايح النبوية »<sup>(٢)</sup> ومطلعها :

إن جئت مسلماً فسل عن جيرة العلم وأقرّ السلام على عرب بذي سلم

وهو يمارض بردة البوصيري في مدح الرسول التي مطلعها :

« أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم »

والاعتقاد السائد عند معظم الدارسين أن الصفي هو مخترع هذا الفن ، وهو أول من نظم فيه ، واسكن (السيد علي خان صدر الدين الحسيني) المتوفى سنة (١٠١٨) يقول في كتابه (أنوار الريح) :

« كنت أظن أن أول من نظم أنواع البديع على هذا الأسلوب البديع...

هو الشيخ صفي الدين الحلبي رحمه الله تعالى حتى وقفت في ترجمة (الشيخ علي ابن عثمان بن علي بن سليمان أمين الدين السلجاني الأربلي الصوفي) الشاعر على

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٤ . طبعة استانبول .

(٢) ديوان صفي الدين ص ٤٩٦ . طبعة دمشق .

قصيدة لامية له نظم فيها جملة من أنواع البديع وضمن كل بيت منها نوعاً منه أولها الجناس التام والمطرف وهو :

بعض هذا الدلال والادلالات حال بالهجر والتجنب حالي  
ثم قال بالجناس المصحف والمركب :

جرت إذ خرت ربع قلبي وإذ لاني صبراً أكثر من إذ لاني

فعلت أن الشيخ صفي الدين لم يكن أباعد هذا المرام ولا أول من نظم جواهر هذا المقد في نظام لأن الشيخ أمين الدين المذكور توفي قبل أن يولد الشيخ صفي الدين بسبع سنين وذلك أن وفاة الشيخ أمين الدين سنة سبعين وستماية ( ٦٧٠ هـ ) وولادة الشيخ صفي الدين سنة سبع وسبعين وستماية ( ٦٧٧ ) ... (١) .

ويجمل إلي أن الأمر يسير ، وأن البت في هذه المسألة ليس بالسير ، فع أن الصفي لا يمكن أن يدعي شيئاً ليس له ، ولا يجوز أن يزعم سبقه في فن سبقه إليه أحد من سابقيه أو معاصريه ، فإنه من المحتمل ألا يكون قد اطلع على بديعية ( الشيخ أمين الدين ) ، وخاصة وهم في عصر لم تتوفر فيه وسائل النشر التي تيسرت لنا اليوم . . .

وبالإضافة إلى هذا فإن بديعية ( أمين الدين ) لبست في مدح الرسول وعلى هذا يكون صفي الدين أول من نظم البديعيات التي في مدح الرسول ، ويكون أمين الدين أول من نظم في فن البديعيات عموماً . . . على أن الذين جاءوا بعد الصفي أغلبهم قلده الصفي وجاراه ونظم مثله في مدح النبي إلا النادر .

والغريب أن ( الدكتور زكي مبارك ) يرى أن الصفي ليس أول من ابتكر ( فن البديعيات ) وإنما هو ( أبو عبدالله محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسي ) إذ يقول عنه : « لقد ابتكر فناً جديداً هو ( البديعيات ) »

وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول ، ولكن كل بيت من أتهايا يشير إلى فن من فنون البديع <sup>(١)</sup> . وقد نسي الدكتور أن الصني متقدم كثيراً عن ابن جابر إذ أنه ولد سنة (٦٧٧ هـ) وتوفي سنة (٧٥٠ هـ) في حين أن ابن جابر ولد سنة (٦٩٨ هـ) وتوفي سنة (٧٨٠ هـ) . هذا بالإضافة إلى أن (ابن حجة الحموي) نفسه اعترف بأسبقية صني الدين في عدة مواضع من خزانته ومن ذلك قوله : « ولكن نبداً ببیت الشيخ صفي الدين رحمه الله لأجل الترتيب » <sup>(٢)</sup> ، فهو يبدأ به معترفاً بأسبقيته على ابن جابر الذي كان يذكر أبياته بعد الصفي ويسميه (العميان) .

وعدد أبيات هذه البديعية ١٤٥ بيتاً من البحر البسيط ، وتشتمل على ١٥١ نوعاً من أنواع البديع ، وقد جعل كل بيت مثلاً شاهداً لنوع من هذه الأنواع أو نوعين أو ثلاثة حسب ما تسمح به قريحته . وقد بدأها بالفرز : إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم وافرّ السلام على عرب بذي سلم فقد ضمنت وجود الدمع عن عدم لهم ولم استطع مع ذلك منع دي وهكذا يستمر في هذا الفرز العفيف الشريف الذي يلائم غرضه وهو مدح الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى يبلغ به ٤١ بيتاً فيتمهياً للانتقال إلى المديح في ثلاثة أبيات هي :

إب لم أحت مطايا العزم مثقلة من القوافي تؤم المجد عن أمم  
نجار افظي إلى سيق القبول بها من لجة الفـ بكر تهدي جوهر الحكيم  
من كل معربة الألفاظ معجزة يزينها مدح خير العرب والمعجم  
وبمدح النبي (ص) في ٣٩ بيتاً منها :

محمد للمصطفى الهادي النبي أجـ المرسلين ابن عبد الله ذي الكرم  
خير النبيين والبرهان متضـ في الحجر عقلاً ونقلاً واضح اللقم

(١) المدائح النبوية ص ١٦٩ .

(٢) الخزانة ص ٥٤٤ .

كم بين من أقسم الله العلي به وبين من جاء باسم الله في القسم  
ثم ينتقل إلى مدح أصحاب الرسول في ١٢ بيتاً من مثل قوله :  
من كل مبتدر للموت مقتحم في مأزق بغبار الحرب ملتحم  
تهوى الرقاب مواضيهم فيحسبها حديد لها كان أغلالاً من القدم  
فيعود ثانية إلى مدح الرسول الكريم وذكر مناقبه ومعجزاته في ١٨ بيتاً  
كقوله :

في ظل أبلج منصور اللواء له عدل يؤلف بين الذئب والغنم  
أغرأ لا يمنع الراجين ما سألوا ويمنع الجار من ضيم ومن حرم  
وبمدح آل الفر الكرام في خمسة أبيات ، وأصحابه في عشرة آخر ، ثم يذكر  
أسباب نظمه هذه القصيدة في ١٢ بيتاً . ثم يختتم قصيدته بالفخر بها بقوله :  
هذي عصاي التي فيها مأرب لي وقد أحشأ بها طوراً على غنمي  
إن ألقها تعلقف كل ما صنعوا إذا أتيت بسحر من كلامهم  
أطانتها رغم تقصيري فقام بها عذري ، وهيات إن المذر لم يقم  
فإن سمعت فمدحي فيك موجه وإن شقيت فذني موجب النقم  
وهذه القصيدة قوية العبارة جميلة الأسلوب . لم يلتزم فيها التليح بنوع  
البيديع في كل بيت كما فعل ذلك من جاء بعده . لكنه يأتي به حين يطاوعه  
كما فعل ذلك في بيت القسم :

لا لـقبـتي المعاني بـإن بـجـدتها يوم الفخار ولا بر التقي قسمي  
وقد شرح الصفي هذه القصيدة لكننا لم نثر على هذا الشرح ، فـكل  
ما بين أيدينا من نسخها مطبوعتان ومخطوطتان ، فأما المطبوعتان فهما ضمن  
طبعتي ديوانه . وأما المخطوطتان فهما في دار الكتب المصرية :  
النسخة الأولى تحت رقم ١٢٨ بلاغة ، وهي ضمن كتاب ( روضة الفصاحة  
في لهجة البلاغة في علم البيديع ) فيه كتاب البيديع لابن المعتز وقصائد  
كثيرة . وتشغل بدعية الصفي ٢٢ صفحة من هذا الكتاب . كل صفحة



١٣ بيتاً . طول الصفحة ١٩ و ٥ سم وعرضها ١٣ سم طول الجزء المكتوب ١٤ سم وعرضه ١٠ سم . مكتوبة بخط نسخ بقلم معتاد ، عناوينها مكتوبة بالمداد الأحمر . ورقها أصفر قديم فيه ترقيق كثير . وليس فيها تعليقات . اسم ناسخها ( عبد الوهاب بن أحمد بن موسى الجبري ) فرغ من كتابتها في ٧ جمادي سنة ( ٩٦٩ هـ ) .

أما النسخة الثانية فرقها ٥٦٧ بلاغة . وهي خمس ورقات أي عشر صفحات في كل صفحة ١٧ بيتاً طول الصفحة ٢٤ سم وعرضها ١٦ سم . طول الجزء المكتوب من كل صفحة ١٦ و ٥ سم وعرضه ١٠ سم . ورقها أبيض سميك لكنه متآكل الحافة ، وعلى هامشها الكثير من التعليقات وجداول الأرقام والطلاسم والحكم والفوائد ، والملاحظات . وفي الصفحة الأولى كتابة كثيرة مختلفة الاتجاهات بخط دقيق جداً لا يكاد يقرأ . ولم تكتب لها عناوين بأسماء أنواع البديع ، وإنما كتبت متسلسلة ولا يعرف كاتبها لأنه لم يكتب اسمه ولا تاريخ فراغه من كتابتها .

وهاتان النسختان جيدتان من حيث أن الأبيات كاملة فيهما ، وأن الأخطاء نكاد تكون معدومة ، وأن الخلاف بينهما لا يكاد يوجد إلا في بعض النقط . وتوجد نسخ أخرى كثيرة في أوروبا وغيرها فقد ذكر ( بروكلمان ) أن هناك نسختين في برلين ( ٧٣٤٩ و ٥٢ ) ونسختين في باريس ( ٣٢٩ و ٣٢٤٨ ) ونسختين في الاسكوريال ( ٢٤٠ ف<sup>٢</sup> و ٣٩٠ ف<sup>١</sup> ) ونسختين في مكتبة المتحف البريطاني ( ٩٨٥ و ٩٨٦ ) ولنا ندري أن هناك نسخة بين هذه النسخ منقولة عن الأصل وفيها شرح صفي الدين نفسه لهذه القصيدة أم لا ؟ فقد ذكر أنه شرح بديعته بنفسه .

وقد قلد الصفي في هذا الفن كثير من الشعراء الذين جاءوا بعده ، زادوا على ثلاثين شاعراً ، بعضهم كان معاصراً له ، نظموها هذه القصائد في مدح الرسول ( ص ) . وحتى أدباء النصاري قلدوه أيضاً فنظموها مثل هذه البديعية

يمدحون بها المسيح (ع) ورسله ، أشهرهم : ( الخوري نيقولا دس الصائغ ) «  
و ( المطران جرمانوس فرحات ) « و ( الخوري يوسف بن أرسانيوس  
الفاخوري ) .

وأما أصحاب البديعيات منذ عصر الصفي حتى العصور المتأخرة فهم :

١ - شمس الدين أبو عبدالله محمد بن علي الهواري المالكي المتوفى سنة  
( ٧٨٠ هـ ) صاحب البديعية المشهورة بـ ( بديعية العميان ) التي يمدح بها النبي  
الأعظم وأولها :

بطيبة انزل ويم سيد الأمم وانشرله المدح وانثرأطيب الكلم

٢ - الشيخ عز الدين علي بن الحسين بن علي بن أبي بكر محمد بن أبي الخير  
الموصلني المتوفى سنة ( ٧٨٩ ) ومطلع بديعيته :

براعة تستهل الدمع في العلم عبارة عن نداء المفرد العلم

وقد شرحها بنفسه وسمّاها : ( التوصل بالبديع إلى التوصل بالشفيع ) .

٣ - الشيخ وجيه الدين البجلي المتوفى سنة ٨٠٠ .

٤ - شرف الدين عيسى بن حجاج السعدي الهري الخنبلي المعروف بمويس

العالية المتوفى سنة ٨٠٧ ، ومطلع بديعيته :

سل ما حوى القلب في سلمى من العبر فكلمها خطارت أمسى على خطر

٥ - السيد جمال الدين عبد الهادي بن ابراهيم الحسيني الصنعاني الجبلي

الريدي المتوفى سنة ٨٢٢ .

سرى طيف ليلى فأبتهجت به وجدا

٦ - الأديب شمعان بن محمد الفرشي للهري المتوفى سنة ٨٢٨ .

٧ - شرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المقرئ البجلي المتوفى سنة ٨٣٧ .

٨ - تقي الدين أبو بكر علي بن عبدالله بن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧

ومطلع بديعيته :

لي في ابتداء مدحك يا عرب ذي سلم براءة نستهل الدمع في العلم  
وقد شرح بديعته مقارناً إياها ببديعية صفي الدين وبديعية العميان وبديعية  
الموصلية وسماها ( خزانة الأدب ) .

٩ - زين الدين أبو الفضل عبدالرحمن بن محمد بن سليمان الجوري الشافعي  
المعروف بابن الخراط المتوفى سنة ٨٤٠ .

١٠ - الشيخ محمد بن الشيخ خليل النقري الحلبي المتوفى سنة ٨٤٩  
وأول بديعته :

عجبي عراقى فمجد بي نحو ذي سلم وأنجح لسانها بالعلم والسلم  
١١ - الشيخ ابراهيم الكفعمي الحارثي . ومطلع بديعته :

إن جئت سلمى فسل من في خيامهم

١٢ - جلال الدين أبو بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ، وقد استهلها  
بقوله :

من العقيق ومن تذكاري ذي سلم براءة لي في استهلاها بدم  
وقد شرحها وسماها ( نظم البديع في مدح خير الشفيع ) .

١٣ - عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بن خليفة الدمشقية الشافعية  
الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ . ومطلع بديعيتها :

في حسن مطلع أقارب ذي سلم أصبحت في زهرة العشاق كالعلم  
وقد شرحتها وأسمتها بـ ( الفتح المبين في مدح الأمين ) .

١٤ - الشيخ عبدالرحمن بن أحمد الحميدي المتوفى سنة ١٠٠٥ ومطلع  
بديعته :

رد ربيع أسما وأسمى ما يرام رم وحي حيا حواها معدن الكرم  
وقد سماها ( تمليح البديع بمدح الشفيع ) .

١٥ - شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد الجوري المكي الحنفي نزيل  
مصر وقد توفي سنة ١٠١٧ .

١٦ - السيد علي خان المتوفى سنة ١٠١٨ ومطلع قصيدته :

حسن ابتدائي بذكرى جيرة الحرم له براعة شوق يستهل دمي  
وشرحها فسمها ( أنوار الربيع في أنواع البديع ) .

١٧ - الشيخ عبدالقادر محمد المكي الشافعي المتوفى سنة ١٠٣٢ ومطلعها :

حسن ابتداء مديحي حيّ ذي سلم أبدى براعة الاستهلال في العلم  
وقد شرعها باسم ( عليّ الحجة بتأخير أبي بكر بن حجة ) .

١٨ - الشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني المتوفى سنة ١٠٤١ . ومطلع

بديعته :

شارفت ذرعاً فذر عن مأثما الشيم وجزت نملى فم لا خوف في الحرم

١٩ - الشيخ محمد بن عبدالقادر حكيم زاده . له بديعتان مطلع الأولى :

حسن ابتدائي بذكر البان والعلم حلا لمطلع أقار بذي سلم  
ومطلع الثانية المماة ( اللعة المحمدية في مدح خير البرية ) :

إن رمت صنعا فسن عن مدح غيرم يا قلب سرأ وجهرأ جوهر السكم

٢٠ - الشيخ أبو الوفاء الحلبي ، وأولها :

براعتي في ابتداء مدحي بذي سلم قد استهلت لدمع فاض كالعلم

٢١ - الشيخ عبدالغني بن اسماعيل بن عبدالغني الحنفي النابلسي الدمشقي

المتوفى سنة ١١٤٣ . وأولها :

يا منزل الركب بين البان والعلم من سفح كاظمة حيث من ديم

وشرحها « واسمها ( نفحات الأزهار على نصبات الأسحار في مدح النبي المختار )

وله بديعة أخرى أولها :

يا حسن مطلع من أهوى بذي سلم براعة الشوق في استهلالها ألمي

٢٢ - الشيخ قاسم بن محمد البكره جي الحلبي الحنفي المتوفى سنة ١١٦٩ .

ومطلعها :

من حسن مطلع أهل البان والعلم براعتي مستهل دمعها بدمي  
وشرحها فمها ( حلية البديع في مدح النبي الشفيق ) .

٢٣ - السيد حسين بن مير رشيد الرضوي الهندي المتوفى سنة ١١٥٦ هـ  
وقد استهلها بقوله :

حيّ الحيا عهد أحباب بندي سلم وملعب الحلي بين البان والعلم  
٢٤ - الشيخ عبدالله بن يوسف بن عبد الله الحلبي المتوفى سنة ١١٩٤ .  
٢٥ - الشيخ عبدالقادر الحسيني الأزهري الطرابلسي وإسمها ( ترجمان  
الضمير في مدح الهادي البشير ) .

٢٦ - الشيخ محمد بن عبدالله الضرير الأزهري المتوفى سنة ١٣١٣ وإسمها  
( الغرر في أسانيد الأئمة الأربعة عشر ) .

٢٧ - الشيخ محمد بن حمزة التستري الحلبي الشهير بابن الملا المتوفى  
سنة ١٣٢٢ .

٢٨ - المولى داود بن الحاج قاضي الخراساني المعروف بملا باشي المتوفى  
سنة ١٣٢٥ .

٢٩ - الشيخ طاهر بن صالح بن أحمد الجزائري الدمشقي المتوفى سنة  
١٢٣٨ . مطلعها :

بديع حسن بدور نموذي سلم قد راقتي ذكره في مطلع السكلم  
٣٠ - الشيخ محمد صالح بن ميرزا فضل المازندراني الحائري . ومطلع  
قصيدته :

من حسن مطلع سلمى مستهل دمي لله من دم ذي سلم بندي سلم  
٣١ - الشيخ عبدالله محمد بن أبي بكر ، وقد بدأ قصيدته بقوله :

يا عامل اليعملات الكوم في الأكمل بالعيس بالعيس عرج نموذي سلم  
٣٢ - الواردي المقرئ وأولها :

إن زرت سلمى فصل ما حلّ بالعلم وحيّ سلماً وسل عن حي ذي سلم  
وهناك من الشعراء من نظم بديعية في غير مدح النبي ، كالشيخ أحمد بن صالح  
البحراني المتوفى سنة ١٣١٥ وقد نظم بديعية في مدح الامام علي ومظلمها :  
بديع مدح ( علي ) مذعلا بقمي براعة تستهل الفيض من كلمي  
وإذا كان هؤلاء الشعراء قد نظموا قصائدهم في نفس بحر ( بردة البوصيري )  
( بديعية الصفي ) فقد كان معظم قصائدهم في نفس قافية البردة والبديعية ،  
وهي ( ميمية الروي ) إلا أن قليلاً من هذه البديعيات كان في روي بخالف  
ذلك كبديعية ( شرف الدين عيسى بن حجاج السمدي المصري ) فهي رائية  
إذ يقول :

سل ما حوى القلب في سلمى من العبر فكلمها خطرت أمعى على خطر  
وبديعية ( السيد جمال الدين عبد الهادي بن ابراهيم الحسيني الجبائي الزبيدي :

سرى طيف ليلي فابتهجت به وجدا

وقد طبع كثير من هذه البديعيات في بلدان مختلفة كالقاهرة وبيروت وغيرها .  
وفي دار الكتب المصرية - بالقاهرة - كثير من النسخ المخطوطة لقسم من هذه  
البديعيات وهي مدونة في فهرس الدار - جزء اللغة العربية ، قسم البلاغة - .  
وهذا العدد الضخم من فاظمي البديعيات - أو معظمه - حذا حذو الصفي  
وجاراه ، فابن حجة الحموي نفسه حين يتحدث عن سبب نظم بديعيته «  
يذكر أن صاحب ديوان الانشاء ( محمد الجهني ) القاضوي الناصري قد طلب  
منه نظمها فيقول : « ورسم لي بنظم قصيدة أطرز حلقتها ببديع هذا الالتزام  
وأجاري ( الحلي ) برقة السحر الحلال الذي ينفت في عُقد الأقلام . . . »  
وكان حين ينظم البيت يعرضه عليه فيقارنه ببيت الصفي فيقول له : « بيت  
الصفي أصنى مورداً وأنور اقتباساً » .

وعجز كثير من هؤلاء الشعراء عن الوصول إلى مرتبة الصفي التي شهد له بها

كثير منهم . وهذا الحموي يقول : « صني الدين أجاد في الغالب ... » (١) وكان كثيراً ما يمتدح الصني حين يقارن بيته بأبيات غيره . فعند تعليقه على فن (تجاهل العارف) الذي يقول فيه الصني :

يا ليت شعري أسحراً كان حبيكم أزال عقلي أم ضرب من الهمم ■

قال عن هذا البيت : « بلغ الغاية » كما قال هذا في عدة أبيات أخرى منها :  
بيته في فن (التوشيح) وهو :

أميّ خط أباب الله معجزه بطاعة الماضيين السيف والقلم

وأما بيت الصني في فن (تشبيه شيئين بشيئين) فقد قال فيه الحموي :  
« ... عامر بالمحاسن وهو منصفهم ... » وهو :

تلاعبوا تحت ظل السمر من صرح كما قلاعبت الأشبال في الأنجم

وأخيراً نجد أن الحموي يقول عن بديعيته هو : « فجاءت بديعية هدمت بها بديعية الموصلية .. وجاربت الصني .. فلا يجروؤ على القول بهدم بديعية الصني كما قال عن بديعية الموصلية . وهذه شهادة قديمة وهي إلى ذلك ذات قيمة لأنها من مختص . »

## الفصل الثاني

### مراحل شعر

قطعت بها خوف الهوان سبأً إذا قلت: تمت، أردفت بسبأ  
يسامرنى في الفكر كل يديعة منزعة الألفاظ عن قبح غائب  
ينزلها الشادون في لغاتهم ونحدر بها طوراً حداء الركائب

### ١ - ابتداء صنعة الشعر :

بدأ الصفي ، منذ صباه ■ يفرم بالشعر حفظ منه ما كان يعجب به من قصائد الشعراء المتقدمين ■ أمثال المتنبي وأبي تمام وأبي نواس وغيرهم . ثم بدأت شاعريته تنتج شعراً جميلاً وهو لم يتعد العقد الأول من عمره بعد . وقد كان مولعاً بالشعر أيّما ولوع ! يحب قراءته وحفظه ونظمه . فكان يستفيد من هذه النماذج الشعرية التي يقرأها ويحفظها فيقتبس منها الصور ويضمّن المعاني ، ويختمس القصائد .

وهذا هو الدور الأول من أدوار شعره . وهو الشعر الذي قاله في الحلة في عهد الصبا ■ يوم كان يعيش عيشة ناعمة مترفة ، بين قوم أمجاد وآباء كرام . وقد كان مقتصرأ على أغراض معينة فلم يها أن يقول في كل أغراض الشعر ■ فقال في الحماسة لأنه شاب مليء بالحيوية والنشاط ■ وفارس تدرّب على أعمال الفروسية ■ وشجاع لا يهاب الموت والقتال ، وأهله وقومه شجعان أبطال لذا نراه يقول ■



وإني ليدعي قائم السيف راحتي إذا دميت منهم خدود الكواعب  
وما كلُّ من هزَّ الحسام بضارب ولا كلُّ من أجرى اليراع بكاب  
وما زلت فيهم مثل قدح (ابن مقبل) يتسعين أمعي فأنزأ غير خائب  
فأن كلوا منا الجسوم قائم- فلول سيوف ما نبت في المضارب  
وما طابني أنس كلتني سيوفهم إذا ما نبت عني سيوف المثالب  
فلما أبت إلا نزالاً كأنهم درأت بمهري في صدور المقاب  
كما قال في الرناء لأنه مرهف الشعور يتأثر كثيراً حين يفقد شخصاً تربطه  
به وشائج متينة ، فلا يجد بداً من التعبير عن حزنه بشعر يرسله كالأفراوات  
الحارة . استمع إليه يرثي خاله (صفي الدين بن محاسن) :

سفها إذا شقت عليك جيوب إن لم تُشقِّ مرار وقلوب  
وتعلقاً سكب الدموع على الثرى إن لم يمازجها الدم المسكوب

.....  
وكان الصفي يقضي بعض أوقاته في الصيد مع أقرانه وأصدقائه ، فلا عجب  
إن وصف هذه الرحلات وصفاً جميلاً كقوله :

فقم بنا مبتكراً يا صاحبي نقضي بأيام الصبا مآربي  
ولا تكن تفكر في العواقب وخلّ خلاني ودعْ أقاربي

واقصد بنا الأحلاف والقرايبا

أما ترى الطير الجليل قد أتى مستبشراً يرح في فصل الشتاء  
فقم بنا إن الصبا عون الفتى ولا تقل كيف وأنى ومتى

إن الأمانني لم تزل كواذا

وهذا الجمال الطبيعي المحيط به في مناظر الحلة الخلابة ، وفي كل مكان  
يخرج إليه للصيد وغير الصيد ، كان له أكبر الأثر في حبه للطبيعة والتغني  
بجهاها ومحاسنها :

ورد الربيع فرحاً بوروده وبنور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نصيمه وأنيق ملبسه ووشي بروده  
يا حبذا أزهاره وثماره ونبات ناجحه وحب حصيده  
والفصن قد كسي الغلائل بعدما أخذت يدا كانون في تجريده

.....

وهذا الشباب والغنى الذي يتمتع به الصفي ، وذلك العمور المتدفق والحس  
الرهف الذي يمتاز به ، لا بد أن يدعو به إلى حب الجمال والتغزل به ، فكان  
عنده شعر الغزل والنسيب :

ظنّ قومي أن الأساة ستبري داء وجدي وذا العلاج يفيد  
فأتوا بالطبيب وهو لعمري في ذوي فقه مجيد مجيد  
مذ رأى علتني وقد لاح للمو ت عليها أدلة وشهود  
جسّ نبضي وقال : ما أنت شا لك ؟ قلت : ناراً لم يطفئها التبريد  
فقدنا يخلص الدواء فألني نار وجدي مع الدواء تزيد  
قال : ما كان أصل دمالك هذا ؟ قلت : طرقي وذاك حال شديد  
قال : إن الهواه أحدث بلوا لك فقلت : المقصور لا الممدود  
فانثني حاراً وقال لأهلي ما شفاء العشاق إلا بعيد

فالأغراض التي قالها الصفي إذاً ، الحماسة والرثاء والصيد والوصف والغزل ،  
لأنه وجد أن في إمكانه أن يقول الشعر فيها شعراً صادقاً ليس فيه أي  
أثر للتصنع أو الكذب أو المجاملة الخداعة . وقد رأى أن من العار عليه أن  
يطرق الأغراض الأخرى كالمدح والمجاء وغيره :

وأعرضت عن مدح الأنام ترفعاً سوى معشري إذ كان مجدي منهم  
هكذا كان يقول .

\*\*\*

ولم يكن شعر الصفي في هذه المرحلة يزيد على ربيع ديوانه ، ومن يدري  
لعل الكثير منه قد ضاع ؟! ولم يثبت في الديوان عند جمعه وتدوينه خصوصاً

وأنه قد جمع ديوانه مؤخراً ، وقد أخبرنا بأنه ضاع قدر غير يسير من شعره  
وأنه جمع ما وطاه فحسب . وقد جمعه في القاهرة بمبدأ عن وطنه ومستقره .  
وكان شعر الصني في هذه المرحلة يمتاز بالسهولة والرفقة ، وخلوه من  
التكلف والتصنع والتعقيد ، فلم يبدأ شغف الصني في هذا الدور بالاكتثار  
من الصناعة البدئية أو نظم الألفاظ والمعنى من الشعر ، ولم يكن مولعاً  
برصف الشعر الذي يقرأ طرداً وعكساً والذي يخلو من الحروف المعجمة أو  
المهملية ، وإنما كان شعره سهل الألفاظ ، سلس العبارة ، جميل السبك ،  
واضح الصور :

سمت بي إلى العلياء نفس أبيّة ترى أقبح الأشياء أخذ المواهب  
بعزم يريني ما أمام مطالي وحزم يريني ما وراء العواقب  
وما طابني جاري سوى أن حاجتي أكلفها من دونه للأجانب  
وأن نوالي في اللغات واصل أباعد أهل الحي قبل الأتارب  
وفي آخر هذه المرحلة كاد شعره أن يكون حماسياً كله ، فقد قتل خاله  
فصار يحمس أقاربه ليهبوا للأخذ بثأره :

ألم تشهدني أنني أمثل للعدى فتسهر خوفاً أن تراني في الحلم  
فكم طعموا في وحدتي فرميتهم بأضيق من سم وأقتل من سم  
فكم أججوا نار الحروب وأقبلوا بجيش يصد العيل عن مريض المعهم  
فلم يسموا إلا صليل مهندي وصوت زئيري بين قعقة اللحم  
جعلتهم نهباً لسيفي ومقولي فهم في وبال من كلاي ومن كلي  
أو يقول محرضاً خاله وأقاربه على الأخذ بثأره :

ما دام وعد الاماني غير منتجز فطول مكثك مفسوب إلى العجز  
هذي الخائيم فامد كفت منتهب وفرصة الدهر، فاسبق سبق منتهب  
واغزُ العدى قبل تغزونا جيوشهم إن الشجاع إذا مل الغزاة غزي  
والق العدو بجأش غير محترس من المنايا وجيش غير محترس

لا تترك الثأر من قوم سعادهم إخماء ذكر لنا في الناس منتبذ  
وتنتهي هذه المرحلة بوقعة الزوراء ، ومغادرة الصفي أرض العراق إلى  
(ماردين) سنة (٧٠١ هـ) .

## ٢ - ظهور التحقيق :

وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل شعر الصفي « تبدأ بانتقاله إلى ماردين .  
ولا شك أن الأحداث التي مرت بالصفي في هذه الفترة قد أثرت في نفسه  
وروحه الشعرية ، فقد قتل خاله وصار يدعو إلى الأخذ بثأره » ثم وقعت  
معركة الزوراء بين قبيلته وقبيلة قاتلي خاله ( آل أبي الفضل ) وأبدى فيها من  
ضروب الشجاعة الكثير ، ثم ترك أهله وقومه ووطنه إلى قوم آخرين ووطن  
جديد . وقد لقي من هؤلاء القوم كل حفاوة وتكريم ، حتى صار وطنهم  
وطناً ثانياً له « يخفف عنه لوعة الأسى وألم الفراق لأهله وأوطانه . فاضطر إلى  
مدح الملوك الأرتقيين » وبهذا قال شعر المديح لأول مرة في حياته ، فمدح  
( الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق ) ثم ابنه ( الملك الصالح شمس الدين  
صالح ) . يقول في المنصور :

ولقد وقفت عليك لفظي كله مما أحلّ به فها أنا عاقد

فاذا نظمت فأنني لك ماح وإذا نثرت فأنني لك حامد

وليس المديح هو الغرض الوحيد الذي أضافه ابن سرايا إلى شعره في هذه  
الفترة « وإنما أضاف إليه أغراضاً أخرى أيضاً ، فحين انهمك مع الملوك  
الأرتقيين وطاش معهم ، يحضر مجالس أنسهم وحفلات لهوم « ويشربُ الخمر  
وأيام « أبدع الكثير من قصائد الخمر ووصف مجالسها :

بدت لنا الراح في تاج من الحب      فرقت حلة الظللاء بالذهب  
بكر إذا زُوِّجت بالماء أولدها      أطفال در على مهد من الذهب  
باكرتها برفاق قد زهت بهم      قبل السلاف سلاف العلم والأدب  
بلرب ليل غدا في الآهات غدت      تنقض فيه كؤوس وهي كالشهب  
بذلت عقلي صداقاً حين بت به      أزوج ابن سحاب بابتة العنب

.....

وهناك القصائد التي كانت الصفي يرسلها إلى أهله وأصدقائه وأقربائه بالعراق  
يصف لهم حاله ويشتاق إليهم ، فكان شعر الاخوانيات ، الذي يتسم بالصدق  
والصراحة والقوة والجمال . كتب إلى ابن عمه بالحلة :

أترى البازي الذي لاح ليلاً      مرّاً بالحبي من مرايع ليلي  
وترى السحب مذ نشأ نَقْلاً      سحبت من ربوع بابل ذبلاً  
مأضاً البارق العراقي إلا      أرسلت مقلتي من الدمع سيلاً  
وتذكرت جيرة بمغانيه      وندباً من آل سنابس قبلاً  
وحملنا بضاعة الشكر مزجاً      فأوفى لنا من الود كيلاً  
كيف أنسى تلك الديار ومنفىً      طامراً قد ربيت فيه طفيلاً

.....

إن وردت ( الفيحاء )      يا سائق الميس وشارفت دوحها و ( النخيلة )  
ورأيت البدور في ( مشهد الشمس )      بفتيان ( بانه ) و ( الاثيلة )  
مل إليها واحبس قليلاً عليها      إن لي نحو ذلك الحبي مَيْلاً  
وابلغ الرملة الأنيفة وابلغ      معشراً لي بربيعها وأهْيلاً  
كنت جلدأ فلم يدع بينكم للجسم حولاً      ولا لقلبي حَيْلاً  
قد ذمنا بيمد بعدكم العيش فليت الحمام كان قبلاً

ويمتاز شعره في هذه المرحلة بأنه يكاد ينطق بأن الصفي يقوله وهو بعيد عن  
وطنه . إذ يبين في كثير من المواضع ما يحس به الشاعر من إحساس بمض ،

حين يحن إلى أهله ويتشوق إلى آثاره ويتمنى أن يرى وطنه ، ويظهر هذا في كل شعره . ففي شعر الاخوانيات « وفي شعر المديح ، وفي شعر الرثاء إلى غير ذلك . يقول في قصيدته التي أرسلها إلى الشيخ ( مذهب الدين النحوي الحلبي ) :

وربّ نسيم مرّ بي من دياركم      ففاح لنا من طيبه طيب النشر  
فأذكرني عهداً وما كنت ناسياً      ولكنه نجدد ذكر على ذكر  
نجاذبني الأشواق نحو دياركم      وأحذر من كيد العدو الذي يدري  
... ..

وحين يمدح الملك المنصور بحس بالخنين إلى وطنه فيقول :

هبّ النسيم عراقياً فشوقني      وطالما هبّ نجدياً فلم يشق  
فما تنفست والأرواح سارية      إلا اشتكت لسمات الريح من حرقي  
ذر أبها الصبّ تذكّار الديار إذا      متمت فيها بعيش غدير مقسق  
فكم ضمنت وشاحاً في الظلام بها      ما زاد قلبك إلا كثرة الفلق  
... ..

وفي هذه المرحلة قويت الروح الشعرية عند صفي الدين ، وتكشفت كل مواهبه فبانت جليلة واضحة « وقلّ تقليده للشعراء وصار يعتمد على قدرته . لكنه ظهر في شعره التعقيد . وأول مظاهر هذا التعقيد نظمه القصائد الارتقيات التي مدح بها ( الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق ) ، فكان يلتزم للقصيدة قافيتين إذ يبدأ القصيدة بحرف رويها . فحين يبدأ بحرف الحاء ينتهي به :

خيال سرى والنجم في الغرب راسخ      ألم ومن دون الحبيب فراسخ  
خطأه كماء البعيد يجري ويمنأ      هضاب القيافي والجبال الشواخ  
خفي الخطى وافى لينظر هل غفت      عيوني وهل جفت جفوني النواخ  
... ..

وحين يبدأ بالزاه ينتهي به أيضاً :

زار والليل مؤذنب بالبراز وهو من أعين المدى في احتراز  
زائر جاء تحت جلباب ليل شفق الصبح فوقه كالطراز  
زان حسن المقال بالفعل منه ووعود الوصال بالانجراز

... ..

ولا يخفى ما في هذه القصائد من تعقيد وصعوبة ، وما تتطلبه من جهد  
يدعو إلى التمثل والتكلف مما لم يكن يضطرب به شعر الصفي في مرحلته الأولى ،  
يوم كان يقول الشعر على سجيته ، دون الالتجاء إلى التكلف أو التصنع ،  
وقد كان يقول الشعر الذي ينطلق من قلبه قبل لسانه « وها هو اليوم يرى  
نفسه مضطراً إلى شعر يمدح به أناساً أكرموه وأحسنوا إليه وحموه وعليه  
أن يقول فيهم كثيراً من الشعر » ليرضي رغبته الملحة في مقابلة جميلهم بالمثل «  
وعليه أن يبرز موهبته الشعرية لكي لا يبرز عليه شاعر آخر . فكانت هذه  
القصائد الأرقيات وكان غيرها من الصناعات الأخرى .

وليس هناك أدنى ريب في أن هذه القصائد كانت الفاتحة للصناعات  
الأخرى ، ولمكن المرجح أن ذلك كان على قدر ، فكانت هذه الصناعات  
قليلة نوعاً ما « لأن الصفي لم يبدأ بمد في هذه الفترة من حياته . فهو مطارد  
من قبل أعدائه « هارب من وطنه « بعيد عن أهله « يسكن بين قوم مها  
يكن ما يلقاه عندهم من حفاوة وتكريم وأمان واطمئنان ، فهو غريب عنهم ،  
يخس بذلك في قلبه ويشعر به كلما خلا إلى نفسه « فهو إذأ لا يستطيع أن  
يشغل ذهنه المتعب المكدود ، أو يكلف فكر « الفلق المشتت في نظم شعر  
الصناعات ، وقرض شعر الأحاجي والألغاز والمعميات ، ولا شك في أن  
هذا الشعر قد كثر في المرحلة الثالثة من حياته .

### ٣ - اشتداد التحقيق :

هدأ الصفي بعد حين وارتاح به ، وبعد عنه شبح الموت ، وزالت عن ذهنه صور الأعداء التي كانت تترأى له ، وتخلص فـكـره من القلق والاضطراب ، فاستطاع أن يفرغ إلى نفسه وأن يفكر في أعماله ، فعمل في التجارة وجال في البلاد المختلفة لهذا الغرض ، ودخل السرور قلبه وضحكت له الحياة ، فاهتم بالشعر أبما إهتمام حتى طالت قصائده وكثر قصيده ، وتنوعت نواحيه وتمددت موضوعاته ، فلم يترك غرضاً من الأغراض المعروفة إلا قال فيه ، قال في المديح والرثاء والحامسة والفخر والصيد والوصف والغزل والحجر والمجون والهجاء والزهد والتصوف وفي كل موضوع ... جاء إلى مصر فدح سلطانها ( الملك الناصر محمد بن قلاوون ) في عدة قصائد . يقول :

الناصر الملك الذي في عصره      شكر الظباء صنيعه المرحان  
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره      خروا بهيبته إلى الأذقان  
وإذا جرى بين الوري ذكر اسمه      تغنيه شهرته عن ابن فلان

.....

وذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول العظيم ( ص ) فقال الكثير من الشعر في مدح النبي ومناجاته :

فضل به زينة الدنيا فكان لها      كالنـاج للرأس أو كالطوق للعنق  
صلى عليك إله العرش ما طلعت      شمس النهار ولاحت أنجم الفسق

.....

ولم يشأ الصفي أن يخلو ديوانه من شعر الهجاء ، فقال فيه مقطوعات كثيرة ، قال يهجو طبيباً اسمه عيسى :

أرى فيك يا عيسى الطبيب فضيلة      هي الضد من أفعال ( عيسى بن مريم )  
نميت لنا الأحياء من غير علة      وتفضي وتقي باليدبن وبالقم



ونحني ولكن من شفاء وصحة ونحقق إلا للحياه وللدم  
(فأنت إلا خبط عشواء من نصب تمته ومن تخطي يعتمر فيهرم )  
ولكن شعر الهجاء هذا يقوله إجابة لطلب أصدقائه ، ولذا نجد في بداية  
أغلب مقطوعاته هذه العبارة « وسئل نظم شيء في ذم ... » . وقد سئل هجاء  
وجل كبير الأنف فقال :

لو غدا أنفك العظيم غداً وهو وقود للنار ذات الوقود  
ثم قالوا : هلا امتلأت ؟ قالت : هو حسي ولم ترد من مربرد  
وحين كبر ابن سرايا وأحس بقرب نهايته ، صار يحاسب نفسه عندما يشوب  
إلى رشده ، ويقول شعراً فيه زهد ونصوف وفيه توبة إلى الله واستغفار عما  
بدر منه من ذنوب وأخطاء :

رب أنعمت في المديد من العمر ونجيتني من الأشرار  
فأعني اليوم من سؤال لثيم وقني في غد عذاب النار  
أو يقول على طريقة المتصوفة في الحب الإلهي :

تمشقت ليلي من وراء حجابها ولم تر عيني لمحة من جناها  
فكيف سلوي إذ أمطت ستورها وزحزح إذ راقبت فضل نقابها  
وكم أمكنتني فرصة في اختلاسها وبث قلبي طامع في اغتصابها  
فأجللتها عن أن أراها بريية ولم يرضني إلا الدخول بيابها



ويمتاز شعر الصفي في هذه المرحلة بأنه شعر مختلف الأوطان ، فشعر  
في الحجاز ، وقصيد في العراق ، ومقطوعات في الشام ، ومطولات في  
ماردين ، وقصائد في مصر ، وهكذا في كل بقعة يحل فيها الصفي أنغام  
جديدة وفن جديد :

فكل يوم لي برغم الملا في كل أرض غريبة وانزاح  
وقد باتت آثار هذا الانتقال بجلاء ووضوح في شعره .

فشعره في (ماردين) سجل للحوادث التي تحدث هناك من معارك وحروب . إلى حفلات ورحلات . وإلى ذلك كله رأينا صوراً كثيرة من ماردين وطبيعتها الجميلة . فحين خرج متنزهاً في ضواحي ماردين . أعجب بمنظرها الفتانة فوصف (عين الصفا) و (عين البرود) بشعر جميل يسجل الطبيعة الجميلة وشمسها القوية وأرضها الخضراء السندسية المطرزة بالأزهار الجميلة المختلفة الألوان :

عجنا على وادي الصفا فصفا عيشٌ ووليُّ الهمِّ مرتحلاً  
ولنا بها والشمس في (أسد) قيظاً نخلنا برحها (الحللا)  
في روضة حال الربيع لها بسطاً وألبس دوحها حللاً  
وأما مناظر الشتاء فتجد فيها السماء ملبدة بالغيوم . ونحس بالأقطار  
الغزيرة التي يتميز بها مناخ ماردين :

عين البرود برود عيني إن عز منظر (رأس عين)  
أرض ينمـق زهرها ما فاض من نهر وعين  
ويظل يرفدها السحاب بصوب وسمتي وعين  
أويقول :

فـكان صوب المزن يعشقها فأقام لا يبقي بها حولا  
ما زال يمسكها ويعتبتها حتى تورّد خـدها خجـيلا

... ..

وهو بصور لنا الهدوء والأمن الذي كان يحيم على ماردين . والسلام والعدل الذي كان يسودها . وكان أهلها يتنعمون به . فقال مادحاً الملك المنصور :

ملك هذب أخلاق الزمان عدله المسنون  
وأعاد الناس في ظل الأمان غضبه المسنون  
مهد الأرضين بالعدل فكان أمنها مضمون  
ذبيها والشاة ترعى في مكان غدره مأمون

أو يقول مثل ذلك :

تجمع الأسد فيها والظباء كما من فرط عدلك يرعى الذئب والنمط  
وهو لا يفتأ يذكر ( قلعة ماردين ) الحصينة التي تلقب بالشهباء في أكثر  
شعره . يقول مقارناً بينها وبين الشام :

يا من يقايس ماردين بحلق بُعد القياس وأين منها جلق  
لم تذكر الشهباء في سبق العلا إلا كبت شقراؤها والأبلاق  
كم ماردين لماردين توائبوا ومن المحال طلاب ما لا يلحق  
أو يقول مفضلاً إياها على ( الموصل ) :

ولا تقم بالموصل الحدياء إن شهاب القلعة الشهباء  
بحرق شيطان صروف الدهر

أما اسم ماردين فيأتي إلا أن يتخذة قافية لأربعة أبيات يصف بها أهلها هي :

لئن وهى عقد الزمان الثمين فلا عدا ربك يا ماردين  
مدينة لم تر في جوها جوراً ولا في أهلها ماردين  
كم شاهدت عيناى من أهلها إظهار معروف وإضار دين  
أفاضل في غيهم ماردوا ونسوة في مثله ماردين



ومصر التي أحبها ذلك الحب العميق . ولقي فيها أعظم الأكرام رأينا  
آثارها في شعره يدنة أيضاً . فهذه صور النيل العظيم بسفنه الجميلة التي تراقص  
مع الهواء الذي يصارع أشرعها البيضاء :

واخضر وادبها وحدق زهره والنيل فيه ككوثر بجنان  
وبه الجواري المنشآت كأنها أعلام بيد أو فروع قناني  
نهضت بأجنحة القلوع كأنهم عند المسير تهم بالطيران  
وانباء يسرع في التدفق كلما عجلت عليه يد النسيم الواني

ولا ينسى أن النيل ، حين يفيض ماؤه ، يحمل إلى سكان واديه الخير  
والبركات فيلججون بشكره فيقول :

وفي النيل إذ وفئى البسيطة حقها وزاد على ما جاءه من صنائع  
فأ أن توفي الناس من شكر منعم يشار إلى إنعامه بالأصابع  
وهذه الأهرام الخالدة التي رآها وأعجب بها خلفت في نفسه الأكار لبايتها  
فهي عنده أشرق كما تشرق الشمس :

إني وقد صفت المياه وزخرفت جنات مصر وأشرق الهرمان  
وكيف ينسى أن القاهرة يومذاك كانت قبلة المسلمين ومحط آمالهم وملتقى  
أفئدتهم وكانت تنعم بالمسرة والنعيم :

لله قاهرة المعز قائمها بلد تخصص بالمسرة والهدايا  
أوما ترى في كل قطر منية من جانبها وهي مجتمع النى  
وحين يمدح الملك الناصر يحلوه أن يسميه بأسماء حكام مصر القدماء فيناديه  
بالعزير :

أيهذا (العزير) قد صح رقي لك من موقع اسمي الرموز  
أنا من يوم مولدي لك عبد ولهذا دُعيت (عبدالعزير)



أما الشام فهذه مناظرها الفتانة ، وهذا سحر طبيعتها الخلابة . يتجلى  
في صور جميلة يرسمها (عبدالعزير) في شعراء . فحين أرسل إلى (الملك الصالح)  
من الشام قصيدة يمدحه بها أبي إلا أن يبدأها بوصف ما حوله من مناظر  
جميلة :

نم بسر الروص خفق الرياح واقتدح الشرق زناد الصباح  
وأخجل الورد شعاع الضحى وابقت منه نفور الأتراح  
وقام في الدوح لنمي الدجى حمائم تطربنا بالصباح

ولا يغيب عن بال الصفي أن الضباب يملأ جو دمشق عند الصباح فيشبه صباحها  
بالدجى في قوله :

ويوم دجن حجبت شمسها وأشرقت في ليله شمس راح  
فا ظننا الصبح إلا دجى ولا حسبنا الليل إلا صباح  
وهذه رياض دمشق يصفها وصفاً بديماً فيقول :

إن جزت ( بالميطور ) مبتهجا به ونظرت ناضر دوحه الممطور  
وأرتك بالآصال خفق هواهم الممدود في ظل الهوى المقصور  
سل بانه المنسوب أين حديثه المرفوع من ذيل الصبا المجرور  
وهذا نهر العاصي - في حماة - بمياهه الرقراقة والفلك التي تسير فيه والجنان  
التي تحف بجانيبه « بما فيها من خفايا وأزهار وأطياف » يرسم صورها  
ليوشي بها قصيدة في الملك الأفضل :

نخبذا العاصي وطيب شعبه ومائه المسلسل المجدد  
والفلك فوق لجته كأنها عقارب تدب فوق مبرد  
وناجم الأزهار من منظم على شواطئه ومن منضد  
والورق من فوق الغصون قد حكت بشدوها المطرب صوت ( معبد )  
وأرسل قصيدة إلى أحد إخوانه بالحلة يصف يوماً قضاه بين رياض نهر  
العاصي فيقول :

أطعت داعي الهوى رغم أعلى العاصي لما نزلت على ناعورة ( العاصي )  
وبات لي بمفاني أهله - وبها شغلان عن أهل ( شغلان وبغواص )  
والريح تجري رخاء فوق جدولها والطيور ما بين بناء وبغواص  
وقد تلاقت فروع الدوح واشتبكت كأنما الطير منها فوق أفقاص



وقد ازداد التعميد في هذا العصر وكثرت الصناعات المختلفة ، فقد شغل  
بها شاعرنا أي شغل حتى سيطرت عليه ولم تكت جوارحه وكل حواسه «

فبرع فيها أي براعة « وصار يتلاعب باللغة وكأنها المعجينة في يد المثال الماهر  
ويتصرف بالألفاظ وكأنها قطع الشطرنج بيد اللاعب الذي يتقن اللعب »  
فينقلها من مكان إلى مكان حيث يشاء وكيف يريد . فقال الشعر الخالي من  
النقط من مثل قوله :

كم ساهر حرّم لمس الوساد وما أراه سؤله والمراد  
ماسهر الواله ممط له وصلأ ولو داوم طول السهاد  
ولا اطّراح اللهو داع لما رام وسحّ الدمع سح المهاد  
أطعمه حلو مراح الطـلا وهام لما ماس دلاً وماد  
... ..

وقال الشعر الذي ليس فيه حرف مهمل :

فتنت بظبي بنى خيدق بجفن تفنن في فتقني  
نجنـى فبت بجفن يفـيـض نخبت ظني في يقظتي  
قضيب نجيه بزي يزبن تثني فذقت جنى جنتي  
... ..

وقال شعراً يمكن قراءته طرداً وعكساً كقوله :

أمرّ كلاماً ألفته مظنة تنظم هتف لأم الكرماء  
أهب لوصف لالمأهب آمل ملأ بها ملّ الفصول بهاء  
أروح أطيل الدرب أبرم مه مربك بادلال بطاح وراء  
... ..

وهناك من الشعر ما يقرأ عرضاً وطولاً ، أي عمودياً وأفقياً :

ليت شمري لك علم من سقاي يا شفائي  
لك علم من زفيري ونحو لي وضمائي  
من سقاي ونحو لي داوني إذ أنت دائي  
يا شفائي وضمائي أنت دائي ودوائي

وقال أيضاً من الشعر ما فيه بيت مهمل والآخر منقط . وما فيه نصف مهمل ونصف منقط ، ومن الشعر ما فيه كلمة مهملة والأخرى منقطه . وله كذلك الشعر الذي له قافيتان ، فهذه الأبيات يمكن أن تقرأ على صورتين الأولى :

جنُّ الظلام فذ بدا متبسماً لاح الهدى  
وهدت محباً ظلُّ في ليل الجفا لما هدى  
رشأ غدا من سكر خمرة ريقه متأودا

ويمكن أن تضاف إليها أجزاء أخرى فتقرأ :

جنُّ الظلام فذ بدا متبسماً لاح الهدى - ونجحت الظلماء  
وهدت محباً ظلُّ في ليل الجفا لما هدى - وامتدت الآناء  
رشأ غدا من سكر خمرة ريقه متأودا - فكأنها صهباء

ونظم في الألفاظ والمعنى والأحاجي . يقول في الشطرنج :

وما أسمى له شطر الصحيح منطق يمد بلا كسر وأحرفه خمس  
إذا رامت الخمس الحواسا كتنافه تشارك فيه الطرف والسمع واللمس  
صقيل أديم الجسم بالقصر سعيه وليس به روح ولكن به جسم

وأما ( الشمس ) فقد طلبه من أحد أصدقائه في لغز جميل هو :

يا جواداً أصفه في مجال الـ حرب حتف وفي النوال غمامه  
جد بتضعيف عكس مشطورت نصحيه ف مثنى ترخيم مثل ( علامه )

فثل ( علامة ) هي ( سمة ) فيكون :

سمة ، سم ، سسم ، ششم ، شم ، مش ، مشمش .

وقال في اسم ( يعقوب ) :

جمع حروف اسم من أراق دي بحسن وجه وغنج أحداق  
نصف اسم يملئ وخمس قصورة وثلاث وهب والربيع من باقي

وقد نظم الكثير من الشعر لضبط العلوم والفنون ليسهل حفظها ، كأشعر  
الشعر وأسماء الأُحْمان ، وأسماء طيور الصيد وغير ذلك . قال في البحر الطويل :  
طويل له دون البحور فضائل      فعولن مفاعيلن فعولن مفاعل  
وقال في السريع :

بحر سريع ما له ساحل      مستعملن مستعملن فاعل  
وقال في أنواع الطيب وصفاتها ؟

ثلاثة في العود محودة      وتلك في العنبر لا تحمد  
صلابة اللس وثقل به      ولونه المعتكر الأسود  
ولكن ، ليس هذا كله شعر الصفي في هذه الفترة فهناك قصائد رائعة  
تخلو من التعميد وليس فيها شيء من هذه الصناعة ، ولكن شغفه بهذا التعميد  
وهذه الصناعات المتنوعة جملة يميل إلى النظم فيها كثيراً .  
وتنتهي هذه المرحلة بوفاة صفي الدين سنة ( ٥٧٥٠ هـ ) .

## ٤ - صفات عامة :

تلك الصفات والخصائص التي يمتاز بها شعر صفي الدين تكون واحدة  
في مراحلها المختلفة . فأسلوبه لم يتبدل وألفاظه في مستوى واحد ، والميزات  
الأخرى لشعره متساوية كذلك . وهذا أكبر دليل على أن الصفي بالرغم  
من صغر سنه حين بدأ ينظم الشعر ، كان شاعراً مجيداً . فقد بلغ في شعره  
حداً كبيراً من الاتقان والجودة ، وإنه بالرغم من اعتماده على الشعراء المتقدمين  
وأفادته من شعرهم كانت له شخصيته الخاصة التي تظهر في روحه الشعرية ،  
ولا تختفي في معظم قصائده . وليس في هذا إلا البرهان على نضوجه الشعري  
وارتقاه موهبته . .





وفي رثائه لخاله يتحمس قائلاً :

واقتدحوا بالوعيد نار وغى ورب نار وقودها الكلم  
إن لم نقدحها شمساً مضمرة تذب من نار حقدتها اللجم  
بكل أزر في متنه أسد وكل طود من فوقه صنم  
من فتية أرخصوا نفوسهم كأنهم للحياة قد سئموا  
ويتنزل فيما زج بين الغزل والحماسة في قوله :

ظلي من الأتراك ليس بتارك حسنًا لمخلوق أنى من بعده  
حمل السلاح على قوام مترف كاد الحرير يؤتاه من أداه  
فترى حائل سيفه في نحره أبهى وأزهى من جواهر عقده  
... ..

وميزة ثالثة يمتاز بها شعر الصفي هي المبالغة . فنجدته يزيد في تعظيم  
الصورة التي يريد أن يعرضها أمامنا فيقولها ويجمعها تشبه المستحيل وقد كانت  
هذه المبالغة في الشعر العربي منذ عصر المتنبي أو قبله . فقد اهتم المتنبي بها  
كثيراً حتى غلبت في شعره فأيناه يقول لسيف الدولة :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى إلى قول قوم أنت بالنيب عالم<sup>(١)</sup>

وجاء الشعراء من بعده فعنوا بالمبالغة عناية كبيرة لأنهم كانوا يقلدونه في  
كل شيء ثم ظلت تتفشى في شعرهم حتى أصبحت ضرورية فيه .

وهكذا كان الصفي ، وهكذا كان شعره . فحين يمدح الملك المنصور يقول :

ما زال أمرك بالسعادة نافذاً في الأرض تمنع من تشاء وترزق

فيجعله كالمولى عز وجل الذي يقول في كتابه المجيد « يبسط الرزق لمن

يشاء ويقدر » .

ويقول أيضاً :

لو قابل الأعمى غدا بصيرا ولو رأى ميتاً غدا منشورا

ولو يشا كان الظلام نورا ولو أتاه الليل مستجباً  
أمنه من سطوات الفجر

وحين يتحسس يسرف في مفالاته فيقول :

وصبر جأشه في اليد جيشاً ومن حزم الأمور له رباً  
أو يقول :

فأقت تقسم للوحوش وظائفها فيها وتصنع للفسور مآداً  
وجملت هامات الحكمة منابرأ وأقت حد السيف فيها خاطباً  
وإذا رنى بالغ = فقد قال في رثاء أحد أولاد الملك المنصور :

ما فقد فرد من الأنام كمن إن مات ماتت لفقده أُم  
يا طالب الجود قد قضى (عمر) فكل جود وجوده عدم  
قضى الذي كان للأنام أباً فاليوم كل الأنام قد يتموا  
وفي الغزل يغالي فيقول :

ورقيق الخدين قد قابل الكأس بوجه كركرة الديباج  
جرحت خده أشعة نور الرا ح شفت وراء جرم الزجاج  
أو يقول أيضاً :

من كل ردف كالكتيب مجاذب قدأ أغض من القضيبي وألينا

\*\*\*

أما أسلوبه فهو أسلوب جزل رصين ، لا تزال فيه بلة من الفصاحة  
والرشاقة ، مسبوك العبارة متين في تركيب الجمل محكم رصف الألفاظ .  
بالرغم من الركاكز والضعف الذي تقش في ذلك العصر . وبالرغم من تدهور  
الأساليب الأدبية في الشعر والنثر . فقد كان الصفي شاعر عصره ، وهو  
النواة التي نقات روح النهضة الشعرية من العصر العباسي إلى الأجيال التالية .  
فلا عجب أن يكون أسلوبه متيناً رصيناً . ولا غرابة إن كان أسلوبه متميزاً  
عن غيره من شعراء عصره بالجزالة والرقعة مع القوة والجمال قال متحمساً :

ظننت تأتني البراة الشهب عن جزع وما درت أنه قد كان تهوينا  
بيادق ظفرت أيدي الرخا بها ولو تركناهم صاروا فرازينا  
ذلوا بأسياقنا طول الزمان ومذ تحكوا أظهروا أحقادهم فينا  
وحين يتغزل يكون أسلوبه سهلاً سلساً ليناً هادئاً موسيقى الرنين كقوله :  
أهلاً وسهلاً يا رسول الرضى شئت سمعي بلذذ الكلام  
تهدي سلاماً من حبيب لنا عليك منا وعليه السلام  
فاشهد بما شاهدت من حالي وصف جنوني إذ يحن الظلام  
وإن تماقلت وأغفلتها عليك فيها لا علي اللام  
ولولا سهولة أسلوبه ورقة شعره لما تغنى بشعره المغنون وأنشد المنشدون به  
فطالما غنى أصحاب (المقامات العراقية) قوله :

يا ضعيف الجفون أضعفت قلباً كان قبل الهوى قوياً ملياً  
لا تحارب بناظريك فؤادي فضعيفان يغلبان قويا  
وقد غنى له الموسيقار (الاستاذ محمد عبدالوهاب) قطعة شعرية جميلة :  
« قالت كحلت الجفون بالوسن » (١) وكأن الصفي عرف ذلك فقال عن قصائده :  
ينزلها الشادون في نغماتهم ونحدوها طوراً حداة الركائب  
وكثيراً ما نرى في شعره ما تتطلبه الخطابة في الأسلوب ، كاختيار

- 
- |                                |                              |
|--------------------------------|------------------------------|
| (١) قالت : كحلت الجفون بالوسن  | قلت : ارتقاباً لطيفك الحسن   |
| قلت : تسليت بعد فرقتنا         | قلت : عن مسكي وعن مسكي       |
| قلت : تشاغل عن محبتنا          | قلت : بفرط البكا والحزن      |
| قلت : تناسيت . قلت : عابقي     | قلت : تناءيت . قلت : عن وطني |
| قلت : تخليت . قلت : عن جلدي    | قلت : تغيرت . قلت : في بدني  |
| قلت : أذعت الأسرار . قلت لها : | صبر مري هواك كاهلن           |
| قلت : سررت الأعداء . قلت لها : | ذلك شيء لو شئت لم يمكن       |
| قلت : فإذا تروم . قلت لها :    | ساعة سعد بالوصل تسعدني       |
| قلت : فمعين الرقيب تنظرنا      | قلت : فاني للمعين لم أبين    |
| انحطني بالصدود منك ولو         | ترصدتني المنون لم ترني       |

الألفاظ والمبارات القوية الرفافة التي تؤثر في النفوس ويستعمل التكرار بمختلف صورته ، فهو يكرر أحياناً بألفاظها ، كما يكرر كلمتين أو أكثر :

إلى ملك يخفي السلوك فيجتلي وتطلق أبواب السماء فيفتح  
إلى ملك لا مورد الجود عنده أجاج ولا مرعى الصالح مصوح  
إلى ملك يلقي الثناء بمثله وينعم من بعد الثناء ويسمح  
إلى ملك ... ..  
... ..

ومن تـكـريره كلمة واحدة :

ومن أخذت مع وضعه نار فارس وزلزل منها عرشها وسريرها  
ومن نطقت توراة موسى بفضله وجاء به إنجيلها وزبورها  
ومن بشر الله الأنعام بأنه مبشرها عن إذنه ونذيرها  
ومن ... ..  
... ..

وفي أسلوبه السكثرة من استعمال الجمل الشرطية :

( إذا ) خاف ضيماً جارناً وجليسنا فن دونه أموالنا ورؤوسنا  
( وإن ) أعجبت نار الوقائع شوسنا ( تسيل على حد الظباء نفوسنا )  
( وليست على غير الظباء تسيل )

ويكثر كذلك من استعمال ( كم ) يقول :

( فكم ) غاية أدر كتبها غير جاهد ( وكم ) رتبة قد نلتها غير طالب

أو يقول :

( وكم ) قد بذلت النفس أخطب وصلها وخاطرت فيها بالنفيس على علم  
ويستعمل الصفي كثيراً فعل ( القول ) ليستعين به على إطالة شعره ، فيجعله  
على هيئة حوار بينه وبين الحبيب أو بين شخصين آخرين :

قالوا : هو البدر ، قلت : البدر ممحق

قالوا : هو الشمس ، قلت : الشمس تحتجب

قالوا : هو الغيث ، قلت : الغيث منتظر

قالوا : هو الليث ، قلت : الليث ينتصب

قالوا : هو السيل ، قلت : السيل منقطع

قالوا : هو البحر ، قلت : البحر مضطرب

ويتطور بهذا على هيئة قصة فيها هو يصف قصة له مع فقيه زاره وهو يشرب  
الخمر فدار بينهما هذا الحوار :

وليـلة زارني فقيهـه	في رشده ليس بالفقيه
رأى يميناي كأس خمر	فظـل ينأى ويتقيه
فقلت : هلا ؟ فقال : كلا	فقلت : لم لا ؟ فقال : إيه ا
ما ذاك مني ؟ فقلت : عدل	أنزه الكأس عن سقيه

وها هو يرسل حواراً طريخاً على لسان الزهور :

قد نشر الزنبق أعلامه	وقال : كل الزهر في خدمتي
لوم أكن في الحسن سلطانه	ما رفعت من دونهم رأيتي
فقهه الورد بهـ هازماً	وقال : ما تحذر من سطوتي ؟
وقال للسوسن : ماذا الذي	يقوله الأشيب في حضرتي ؟
وامتمض الزنبق من قوله	وقال للأزهار : يا عصيتي
يكون هذا الجيش بي محققاً	ويضحك الورد على شيبتي ا



وأما ألفاظه فعريية فصيحة ، بالرغم من انتشار اللغات الأعجمية  
والألفاظ المستعجمة ، ولا شك أن بيئة الحلة العربية ولثقافة الصني أكبر  
الأثر في ذلك . وهي موسيقية سهلة بالرغم من الافتتان بالغريب في عصره  
وقد قال له أحد أصحابه : إن شعرك عظيم لكنه يخلو من الغريب كما ترى عند  
المتنبى فأجابه بقصيدته المشهورة :

إنما الحيزبون<sup>(١)</sup> والدردبیس<sup>(٢)</sup> والطخا<sup>(٣)</sup> والنفاخ<sup>(٤)</sup> والعططیس<sup>(٥)</sup>  
والحراجیخ<sup>(٦)</sup> والشعحطب<sup>(٧)</sup> والصعقب<sup>(٨)</sup> والمنقفز<sup>(٩)</sup> والعنتریس<sup>(١٠)</sup>  
والفطاریس<sup>(١١)</sup> والمنفس<sup>(١٢)</sup> والعلق<sup>(١٣)</sup> والخریضیض<sup>(١٤)</sup> والعیطموس<sup>(١٥)</sup>

لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس  
وقبيح أن يذكر النافر الوحشي منها ويترك المأنوس  
أين قولي : هذا كتيب قديم ومقالي : عنقل قدموس ؟  
أتراني إن قلت لأحب : يا علق ۝ دري أنه العزيز النفيس

.....

درست تلمحكم اللغات وولت في نشاف<sup>(١٦)</sup> نخف في الرؤوس  
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغناطيس  
وهذا أكبر دليل ، وأسطع برهان على أن ( ابن سرايا ) كان يستعمل  
الألفاظ السهلة المفهومة في شعره ويفضلها على الألفاظ الغريبة الغامضة .  
وكانت ألفاظه في المديح والحماسة قوية جزلة يكثر فيها من الألفاظ  
الحرية والضرب والشجاعة والقوة :  
الكماة ۝ القناة ، الهجاء ، الكفاح ، المرهف ۝ الصارم ، الصمصام ،  
القرضاب ... الخ .

وكان ينمق هذه الألفاظ إذ يختار منها ما يلائم صورته وعباراته ويغير  
ويبدل بها حتى تتم الصورة عنده وتكمل فتكون جملة منسجمة :  
وكم أجبوا نار الحروب وأقبلوا بجيش يصد السيل عن صلب المصم

(١) المعجوز . (٢) الشيخ الهرم والداية . (٣) السحاب . (٤) الماء البارد  
الذي ينفخ الفؤاد . (٥) الأملس البراق . (٦) جمع حرجوخ : الناقلة الطويلة .  
(٧) الكبش العظيم . (٨) الطويل . (٩) الداھية . (١٠) الناقة الصلبة .  
(١١) جمع غطريس : الظالم المتكبر . (١٢) اللثيم . (١٣) الضخم المسترخي .  
(١٤) الجمل الصغير المهزول . (١٥) المرأة الجميلة التامة الخلق . (١٦) نشاف : جمع  
نشفة وهي المجارة السوداء كأنها محترقة .

فلم يسمعوا إلا صليل مهندي وصوت زئيري بين قعقة الحجم  
جعلتهم نهبا لسيفي ومقولي فهم في وبال من كلاي ومن كلي  
أو يقول مخاطباً الملك الناصر محمد بن قلاوون :

صرمت شمل المارقين بصارم تبديه مسلوباً فيرجع سالبا  
وكتيبة تذر الصهيل رواعداً والبيض برقاً والمجاج سحائباً  
حتى إذا ربح الجلال حدث لها مطرت فكان الوبل نبلاً صائباً  
بذوائب ملد يخلن أراقاً وشوائل جرد يخلن عقارباً  
تطأ الصدور من الصدور كأنما تمتاض من وطه الزاب ترائباً



أما معانيه فكان يهتم بوجودتها ، ويغوص على الجليل الطريف منها ،  
بالرغم من فساد الصور وسطحية المعاني التي سادت في ذلك العصر ، وبالرغم  
من كثرة التقليد وسرقات المعاني من الشعراء المتقدمين التي يتميز بها الشعراء  
المعاصرون له .. وكان يختار المعاني الجميلة للشعراء المتقدمين ويتناولها بأسلوبه  
ويحسنها ويزيد عليها ويكسبها رونقاً وبهاءً فقد وصف الأقدمون الجواد  
المجمل ولكنهم لم يبدعوا كهذه الصورة التي جادت بها قريحة الصفي :

أخذت بالادللاج أنفاس الفلا وكحلت طرفي في الظلام بسهده  
بأغر أدم ذي حجول أربع مبيضها يزهو على مسوده  
خلع الصباح عليه سائل غرة منه وقمصه الظلام بجوده  
فكانه لما تسربل بالدجى وطى الضحى فايض فاضل برده

والصفي يبدع أكثر ما يبدع في حماسه وبأني بعماني عظيمة تمتاز  
بالخيال الخصب والفكرة العميقة والصورة الجميلة الواضحة البهجة .

ونجد في قصائده الحماسية الكثيرة خير الأمثلة لما ابتهكر من المعاني  
الجديدة والصور الجميلة :



وبرزنا من الكاه بأطواد حلوم تسري عـلى أطواد  
وأخذنا حقوقنا بسيف غنيت بالدمـا عن الأثمـاد  
وهذه صورة جميلة أخرى رسمها لنا :

جشمتها جرداً إذا رمت الملا أرسلتها فجرت إلى فأياتها  
ما بين عينيها الأسنة طلّـع فكانها غرر على جبهـاتها  
سدت حوافرها الفضاء بمثير غنيت به العقبان عن وكناتها  
إلى غير ذلك من المعاني الجميلة التي كان يصوغها ۞ والصور البديعة التي  
كان ينمقها في مختلف أغراض الشعر .

---

## الفصل الثالث

### موضوعات شعره

كوصف حرب ووصف شرب      ولطف عتب لقلب قلبه  
وذكر الف وشكر عرف      وبكر وصف وندب نديبه

### ١ - الحماسة :

وإنما نقدّم هذا الفن على غيره لتقديم الصفي إياه في ديوانه على سواء من فنون شعره ، ولأهميته عند الصفي ، فهو يمثل نفسه أحسن تمثيل ويصور حياته أصدق تصوير . ونريد به الشعر الذي يمثل الشجاعة والبأس والقوة والاقدام والضرب والطمان والحمية والغضب وغير ذلك .

فلقد قال الصفي شعر الحماسة منذ صباه ، واهتم به وحفظ منه نماذج كثيرة لمن سبقه من شعراء الحماسة كالمتنبي وأبي تمام . ولم لا يتحمس الصفي وهو البطل المنفوار والفارس العظيم ، والمحارب الباسل الذي دخل المعامع وخاض غمرات الحروب وقد جاء مقتتل خاله أكبر حافز على الاكثار من الشعر الحماسي ، فكان يتحمس للأخذ بثأره ويستنهض أقاربه إلى ذلك . وجاء يوم الأخذ بالثأر في ( واقعة الزوراء ) فأبلى بلاء حسناً وقاتل الأععداء قتالاً عنيفاً فتدفقت حماسته وتفجر شعره .

والصفي ( اثنتان وعشرون قصيدة ) في الحماسة و ( ثمان عشرة مقطوعة ) .

هذا عدا الشعر الحماسي الكثير المنتشر في المدح والثناء والغزل والشكر والرسائل وغير ذلك من أغراض شعره .

وتمتاز حماسة الصني بالقوة والمنف وصدق العاطفة فيها ، فهو يعبر عن شعوره المختلج في صدره أصدق تعبير ، ويصور عاطفته الجياشة في قلبه أعظم تصوير ، لا يكذب ولا يدعي لأنه بطل حقاً ، ولأنه أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة ما يدعو إلى الفخر والاعجاب ، فلا عجب إن رأينا شعره الحماسي يصور جوانب كثيرة من حياته ويؤرخ صفحات من تاريخه لأنه هو البطل الذي دخل المارك وخبرها وخاض غمرات الحروب فوصفها وعبر عما مر به من أحداث ، فاذا وصف المعركة لم تفته لحظة من لمحاتها ولم يمجز عن متابعة فرسانها وحركاتهم ، وأبطالها وضرباتهم :

حتى إذا خطف الكافع خطفة	أتبعته منها شهاباً ناقبا
صرمت شمل المارقين بهارم	تبديه مسلوباً فيرجع سالبا
صافي الفرند حتى صباحاً جامداً	أبدى النجيب به شعاعاً ذائبا
وكتيبة تذر للصهيل رواعداً	والبيض برقاً والمعاج سحائباً
حتى إذا ربح الجلال حدث لها	مطرت فكان الويل نبلاً صائباً
بنوائب ملد يخلن أراقاً	وشوائل جرد يخلن عقارباً
نطأ الصدور من الصدور كأنما	تعتاض من وطء التراب ترائباً

والسيوف تلعب والنبال تراشق وكل شيء يصطرح .. ولا نسمع إلا صليل الصوارم وتكسر النصال وتساقط الرؤوس يقول :

فلم يسموا إلا صليل مهندي وصوت زئيري بين قعقة الحج  
ويقول :

وأخذنا حقوقنا بسيوف غنيت بالدا عن الأغمد  
فكان السيوف طاصف ربح وم في هبوبها قوم عاد

وبصور حركة الخيل وهي تحمل الفرسان إلى حومة الوغى كأنها الجبال الشواخ  
أو السيل الجارف :

وأئينا من الخيول بسيل      سال فوق الهضاب قبل الوهاد  
كلما حاولوا الهوادة منا      شاهدوا الخيل مسرقات الهواد  
يتضح أن سرعة الحركة هي أهم ما تتميز به هذه الصورة ، وجميع صور الشعر  
الحماسي عند الصني . . . فالجند تتدافع ، والخيل تجري ، والسيوف تخطف  
الأبصار ، والنبال كأنها المطر وهكذا . . . ولا يدل هذا على غير الشجاعة التي  
يتمتع بها قوم الصني ، والجرأة التي يتحلى بها كل فرد منهم ، والاقسام  
الذي يعدونه أول ما يجب أن يتصف به المحارب عندهم .

لا شك أن الصني في حماسه غالباً ما يلجأ إلى المبالغة في التصوير والمبالاة  
في تجسيم الصورة ، ليظهر القوة والبأس وليجسم السطوة والعنف وليوضح  
الصرامة والبطش . فتبدو روعة الحرب وشدة القتال ، ويترأى بلاء الأبطال .  
وهذا ما يتطلبه الشعر الحماسي ، لأن معنى الحماسة التمعيب والقوة يقول :

فأقت تقسم للوحوش وظائفاً      فيها وتضع للفسور مآدبا  
وجعلت هامات الكماة منابرأ      وأقت حد السيف فيها خاطبا  
فسكان شعره قوياً في كل شيء ، قوياً في أوزانه المتدفقة ، ولحونه المدوية  
الصاخبة ، وألفاظه الجزلة الضخمة ، ومعانيه الجميلة الرائعة ، وأسلوبه الذي  
نسمع فيه قمقمة السلاح وحممة الخيل واشتباك الأسنة وقراع السيوف :

صرمت شمل المارقين بصارم      تبديه مسلوباً فيرجع سالبا  
صافي الفرند حكى صباحاً جامداً      أبدى النجيع به شماعاً ذايبا  
وكثيراً ما يخرج إلى مواضع أخرى تتصل بالحماسة ، من قريب أو بعيد ،  
فنراه تارة يفخر بنفسه أو بقومه ، وكيف لا يفخر الصني وقد توفرت كل  
أسباب الفخر ومقوماته فيه وفي قومه ، من شجاعة وكرم وجرأة وإقدام ،  
وشرف وأصل عريق ؟ إستمع إليه يفخر بنفسه قائلاً :

فأصبحت أنفي ما ملكت لأقتني      به الفكر كسباً وهو أسُّ المكاسب  
وأرهن قولي عن فعالي كأنه      عصا (الحارث الدحيمي) أو قوس حاجب  
ومن يك مثلي كامل النفس بفتدي      قليلاً معاديه كثير المصاحب  
وإني ليدي قائم السيف راحتي      إذا دميت منهم خدود الكواعب  
ويقول :

قليل إلى غير اكتساب العلى نهضي      ومستبعد في غير ذيل التقى ركضي  
فكيف ولي عزم إذا ما امتطيته      تيقنت أن الأرض أجمع في قبضي  
على أن لي عزماً إذا رمت مطلباً      رأيت السما أدنى إلي من الأرض  
ويغفر بقومه فيقول :

وأكسبني قومي وأعيان معشري      حفاظ العالي وابتذال الرغائب  
سراة يقرُّ الحاسدون بفضلهم      كرام السجايا والعلى والمناصب  
إذا جلسوا كانوا صدور مجالس      وإن ركبوا كانوا صدور مواكب  
أسود تماثل بالقناع عرينها      وبالبيض عن أنيابها والمخالب  
ونجري الحكمة أحياناً على لسانه في أمور الحياة وأحوال الناس :

وما كل وإن في الطلاب بمخطيء      ولا كل ماضٍ في الأمور بصائب  
وربما انتقل إلى هجم الأعداء والتعريض بهم      فوصفهم بالقدر والخيانة  
والسكر والخداع :

كم من عدو لنا أسى بسطوته      يبيدي الخضوع لنا ختلاً وتسكيناً  
كالصلّ يظهر لنا عند ملهه      حتى يصادف في الأعضاء تسكيناً  
يطوي لنا القدر في نصح يشير به      ويمزج السم في شهد ويسقيناً  
أو يقول :

صبراً على كيد العداة لعلنا      نسقي أخيرهم بكأس الأول  
بأعصبة فرحوا بمصرع ليثنا      ماذا أمنتم من وثوب الأشبل

والصفي في حماسه - وفي غيرها من فنون شعره - متأثر بالمتنبي إلى حد بعيد . فقد رأينا بمارض قصائده ويضمن أبياته ، ويقتبس معانيه ويستعين بصوره ويتشبه به في كثير من الأمور . ولا عجب أن يفعل الصفي ذلك فإن المصادفات جعلت هناك تشابهاً كبيراً بين الصفي والمتنبي في الحياة والتربية والنشأة والظروف .

فقد ولد هذان الشاعران في العراق في بلدين شيعيين . في كل منهما نهضة أدبية علمية . وترك كل من الشاعرين العراق في شبابه ، وعاش كل منهما في كنف دولة إسلامية قوية ، المتنبي عند الحمدانيين والصفي عند الأرتقيين وجال كل منهما البلاد العربية ووصل إلى مصر ، فقد وفد المتنبي على كافور ومدحه ، ووفد الصفي على الملك الناصر ومدحه أيضاً ، وطاد كلاهما فيما بعد إلى العراق . نجد هنا إذاً تشابهاً في الظروف والأدوار التي سرت بها حياة كل من هذين الشاعرين . ولا بد أن تفعل فعلها في التشابه بينهما من حيث روح الشعر وموضوعاته ومميزاته . فلا عجب إن رأينا الصفي يرى أن خير أستاذ له من الشعراء المتقدمين هو أبو الطيب المتنبي فتأثر التلميذ بأستاذه . وخاصة في أبرز ما عند المتنبي والصفي من فنون الشعر وهو فن الحماسة .

ولا يخفى أن كلاهما كان يشترك في الحروب ويدخل المعارك ، فيصف القتال وصفاً واقعياً حياً . يعتمد على شيء محسوس ملموس قد انتزع صور هذا الوصف كلها من التجربة العملية ، والواقع الأكيد . فبهذا هذا الشعر عن الأوصاف الخيالية والادعاء الذي كان عند كثير من الشعراء لذلك كان شعرهما ما يكاد تلتقطه الأسماع حتى تهتز القلوب وتندفع النفوس متحمسة إلى القتال متمطشة إلى الطعان والضراب ، فهو يسري فيها سريان السحر . وقد رأينا الصفي يقتبس الكثير من أبيات المتنبي ويضمنها شعره .

فإذا ما افتخرت بالود قالوا : ( لا افتخار إلا لمن لا يضام )

فالشطرة الثانية من هذا البيت للمتنبي في قوله يمدح ( علي بن أحمد الخراساني ) :

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينال<sup>(١)</sup>  
وقوله :

إذا أرسل البيض الصفاح لغارة      تتابع طـوراً أسره وتخاصم  
(بحاجي به ما ناطق وهو ساكت      يرى ساكتاً والسيف من فيه ناطق<sup>(٢)</sup>)  
فألبت الثاني من قصيدة يمدح بها المتنبى (الحسن بن اسحق التنوخي) .  
ويقول الصني وقد أشار إلى تضمن شعر المتنبى :

وانظر لقول (ابن الحسين) وقد رأى      حالا يشق على الأبى ويمعظم :  
(لا يسلم العرف الرفيع من الأذى      حتى يراق على جوانبه الدم )<sup>(٣)</sup>  
وقد اقتبس الصني للكثير من معاني المتنبى . فقد اقتبس قول أبي الطيب  
في سيف الدولة :

وقفت وما في الموت شك لواقف      كأنك في جفن الردى وهو نائم  
نمرؤ بك الأبطال كللى هزيمة      ووجهك وضاح وثفرك باسم<sup>(٤)</sup>  
فقال الصني :

وقفت لها والمرهفات ضواحك      وجوه الردى ما يبينهن كوالح  
ووجهك وضاح وعضبك ناضح      وزندك قداح وعزملك قاذح  
ولكننا نجد بعض فروق بين حماسة الصني وحماسة المتنبى :

فالصني في حماسه مسلم ۝ يتحدث عن طائفة إسلامية وفكر مسلم ، يمدح  
حملة الاسلام الذين يدافعون عن الدين الحنيف ۝ ويملون كلمته ۝ بينما المتنبى  
عربي يتمصب لعروبته نجد في شعره فتوة عربية اجتماعية . . . تفيع في وصفه  
حية قوية مضطربة وكأنها الكهرباء<sup>(٥)</sup> ، وذلك لأن المتنبى عاش في ظل دولة

(١) ديوان المتنبى ج ٤ ص ٩٣

(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٣٤٧

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ١٢٣ .

(٤) نفس المرجع ج ٣ ص ٣٨٧ .

(٥) مع المتنبى - الدكتور طه حسين ج ٢ ص ٣٢٢ :

عربية ، هي دولة الحمدانيين « وفي بلاط ملك عربي هو ( سيف الدولة ) ، فيه حين أن الصني عاش في ظل دولة تركية إسلامية هي دولة الأرتقيين « وفي بلاط ملك تركي هو ( المنصور نجم الدين غازي ) . فلا يستطيع الصني أن يظهر تعصبه للمروبة ونفخه بالعرب وهو يعيش في كنف ملك غير عربي .

وكان الصني يفخر بنفسه إلى جانب نفخه بقومه وأهله ، بل نجده نفخه بأهله وقومه يسبق نفخه بنفسه ، ويغلب عليه . يقول :

وأكسبني قومي وأعيان معشري حفاظ المعالي وابتدال الرغائب  
بينما المتغني لا يفخر إلا بنفسه ، ويتعالى على قومه وأهله :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي نخسرت لا بمجدودي  
أنا ترب الذمى ورب اللقوافي وسمام المدى وحترف الحسود<sup>(١)</sup>

ولو أن جيوش الأرتقيين كانت تشبك بحروب مع جيوش الروم « في زمن الصني ، كتملك الحروب الطاحنة التي كانت تدور رحاها بين جيوش الروم وجيوش سيف الدولة « في زمن المتغني ، لرأينا عند الصني ، تلك القصائد الطوال العظيمة التي وصف بها المتغني تلك الحروب وما يقبها من نصر وغنيمة ونفخار .

## ٢ - المديح :

ومدائح الصني كثيرة « وهي مع كثرتها تمتاز بالجودة والافتان ، لأنه لم يوزع مدائحهم على هذا وذاك ، ولم يمدح كل من يرى « وإنما مدح الذين أحس أنه يجب أن يمدحهم ، وشعر نحوهم بماطفة قوية تحتم عليه مدحهم ولو لم يمدحهم لما استراح ، لأن تلك المعاني ستظل تضطرب في نفسه وتختلج في أعماق روحه . فهو لم يمدح إلا النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) والصلطين



الثلاثة الذين أكرموا وكانوا عنده بمنزلة لا تعدلها منزلة « وهم : الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازي بن أرتق « وابنه الملك الصالح شمس الدين أبو المكارم صالح ، والملك الناصر محمد بن قلاوون .

ولذلك يجب أن نقسم مدائح الصفي إلى قسمين : الأول المدائح النبوية « والثاني مدائح السلاطين الثلاثة . ويجب أن نتناول بالدرس كل قسم من هذين القسمين منفرداً ، لأن لكل قسم ميزات وخصائص وصفات تجعله يختلف بها عن الآخر .

## أ - المرائح النبوية :

هذا فن شعري وجد بعد وجود التصوف ، لأنه يعتمد وسيلة للتعبير عن عاطفة دينية « يصدر عن القلوب العائرة بالإيمان ، الطافحة بالاخلاص للدين ، والحب للرسول الكريم .

وأول من مدح الرسول ( ص ) هو ( الأعشى ) في قصيدته التي مطلعها :

ألم تفتض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم السهدا  
ولكن مدحه هذا ليس صادقاً لوجه الله والحق ، وإنما كان من أجل العطاء .  
فحين أغرته قريش لم يعد إلى مدح النبي ( ص ) . ثم كانت حادثة ( كعب بن زهير ) وإهدار النبي دمه « فدحه بقصيدته المشهورة :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متمم إثرها لم يفد مكبول  
وقد كان نصيب هذه القصيدة من الإعجاب والتقدير والاهتمام ، عظيماً من الدارسين والشارحين والمشرطين والمحمسين والمعارضين . . . ومن عارضها ( جمال الدين محمد بن نباتة المصري ) بقوله :

ما الطرف بمدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربكم ميل  
وشعر ( حسان بن ثابت ) - شاعر النبي - في مدحه كثير « ويعتاز بالصدق

المعظم « والاخلاص العميق ، إلا أنه كان مدحاً على طريقة شعراء الجاهلية .  
ومن أعظم قصائده عيلبته التي مطلعها :

إن القوائب من فخر وإخوتهم قد يئسوا سنة للناس تتبع  
وهزيت التي يقول فيها :

عدمتنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها ( كداء )  
ثم جاء كثير من الشعراء قالوا في مدح النبي وآل النبي ؛ ( كالفرزدق )  
في مدح الامام ( علي بن الحسين ) و ( الكيث بن زيد ) وهاشميانه مشهورة «  
و ( دعل الخزامي ) وقصائده عديدة ، ثم ( الشريف الرضي ) وتلميذه  
( مهييار الديلمي ) وقد مدح النبي في مرثيئها لشهد كربلاء ( الحسين بن علي )  
إلا أن هذا كله لا يعتبر من الفن الأصيل في المدايح النبوية . أما الذي يعتبر  
مدحاً نبوياً أصيلاً فهو مداخل البوصيري ( محمد بن سعيد بن حماد ) وأشهرها  
( البردة ) التي مطلعها :

أمن تذكر جيران ( بذي سلم ) منحت دمعاً جرى من مقلة بدم؟  
« وأغلب الظن أن البوصيري استأنس عند نظمها بميمية ( ابن الفارض ) التي  
مطلعها « (١) :

هل نار ليلى بدت ليلاً (بذي سلم) أم بارق لاح في الزوراء فالعلم «  
« بردة البوصيري هذه هي التي أرست قواعد المدايح النبوية ، فاهتم بها الناس جميعاً  
بله الدارسين والناشرين والشارحين... وقد شطرها وخمسها وعارضها كثيرون.  
مدح الصفي الرسول الكريم « صلى الله عليه وسلم ) وآله اليامين ( رضي الله  
عنهم ) بخمس قصائد طوال ونمائي مقطوعات . والقصائد عظيمة رائعة ، عتبر  
فيها عما يحس به من حب وولاء للرسول الأمين وآل بيته الأطهار وقد نظم  
واحدة من هذه القصائد عند قبر الرسول في المدينة وقد بدأها بالفضل .  
ومطلعها :

كفى البدر حسناً أن يقال نظيرها فيزى ولكننا بذاك نضيرها  
وهي طويلة . ونظم الثانية في ليلة مولد الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم )  
وقد بدأها بالمديح رأساً ومطلعها :

خدمت لفضل ولادك النيران وانشق من فرح بك الايوان  
ومدحه بثلاثة بدأها بوصف الطبيعة قائلاً :

فيروزج الصبح أم ياقوتة الغسق بدت فميجت الورقاء في الورق  
وأما الرابعة فقد عارض بها ( ابن المعتز العباسي ) في قصيدته التي يمجو بها  
المولين ومطلعها :

ألا من لعين وتسكابها تشكى الأذى وبكاها بها  
فنظم الصفي قصيدة للرد عليه أولها قوله :

ألا قل لشر عبيد الآله وداعي قريش وكذابها  
ويظهر في هذه القصائد كلها إيمان الصفي وتمسكه بدينه الاسلامي الخفيف  
وحبه لنبيه الكريم حباً شديداً . . . يقول فيه :

إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة إلى خير معبود دعاها بشيرها  
ومن أخذت مع وضعه نار فارس وزلزل منها عرشها وسريرها  
ومن بشر الله الأنعام بأنه مبشرها عن أمره ونذيرها  
ويقول فيه أيضاً :

محمد المصطفى الهادي الذي اعتصمت به الورى فهدام أوضح الطرق  
ومن له أخذ الله اليهود على كل النبيين من بادٍ وملتحق  
ومن رقى في الطباق السبع منزلة ما كان قط إليها قبل ذاك رقى  
ومن يقصر مدح السادحين له عجزاً ويخرس رب المنطق الدلق  
ويعدد مناقب الرسول الكثيرة فيقول :

خدمت لفضل ولادك النيران وانشق من فرح بك الايوان  
وتزلزل النادي وأوجس خيفة من هول رؤياه ( أنوشروان )

فتأول الرؤيا (سطيح) وبشرت بظهورك الرهبان والكهّان  
فوضعت لله المهيمن ساجداً واستبشرت بظهورك الأكوان  
ورأت قصور الهام (آمنة) وقد وضعتك لا تخفى لها أركان

... ..

وهكذا يستمر في المناقب والمعجزات . ويختتم هذه القصيدة طالباً الشفاعة بها :

فاشفع لعبد شانه عصيانه إن العبيد يهينها العصيان  
فلك الشفاعة في محبتكم إذا نصب الصراط وعلّق الميزان  
فلقد نمرض للاجازه طالباً في أن يكون جزاءه الفيران

وهذا تصوير رائع لمناقب الرسول ، ولا أظن شاعراً نبياً له أن يصور ما يحس به نحو نبيه الكريم على نحو ما صنع الصفي إلا نادراً . وقد هيا له كل هذا إيمان متين ، وتدين عميق وإسلام صحيح ، وحس مرهف وشعور فياض . . . جعله يبدع في شعره كما لم يبدع شاعر فنان غيور على دينه . وقد أوجد لنا صوراً رائعة حية في قصائد طوال تمتاز ، مع جمال أسلوبها وقوته وما صورته مما يعجز عن تصويره المؤرخون ، بالتعبير عن الانفعالات النفسية والأحاسيس الوجدانية « التي يحس بها الملايين من البشر ممن يدينون بالدين الحنيف . فهو يرى أن الرسول محمداً هو سيد الرسل ، والمخلوق الأول ، والمفضل على جميع الأنبياء في كل شيء وخبر خلق :

يا خاتم الرسل بمنّا وهو أولها فضلاً وفائزها بالمبق والسبق

جمت كل نفيس من فضائلهم من كل مجتمع فيها ومفترق

ويتجلى في هذه القصائد وما يلحقها من مقطوعات تشيع الصفي لآل علي وحبه لآل البيت ، فهو يحفظ الأحاديث التي قالها الرسول في مدح علي وأولاده كقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » فيقتبسه في قوله :

مدينة علم وابن عمك بابها ومن غير هذا الباب لم يؤت سورها

أو يقول : إن الامام علياً هو الذي ورث العلم عن الرسول :  
وعلى ابن عمك وارث العلم الذي ذلت لسطوة بأسه الشجعان  
والصني بمدح الرسول لكي يشفع له في يوم الحشر :

وبين يدي نهوأي قدّمت مدحة قضي خاطري ألا يخيب خطيرها  
تروم بها نفسي الجزاء فكن لها مجزاً بأن تسمي وأنت مجيرها  
أو يقول :

فاشفع لعبد شأنه عصيانه إن العبيد يشينها العصيان  
والصني لا ينسى الصحابة الكرام ولا ينمط حق واحد منهم أو يجهل فضله  
فيذكرهم جميعاً بخير يقول :

وعلى صحابتك الذين تتبعوا طرق الهدى فهدام الرحمان  
وشروا بسميهم الجنان وقد دروا إن النفوس لبيها أثمان  
ويقول كذلك :

وصحبك النجب الصيد الذين جروا إلى المناقب من تالٍ ومستبق  
قوم متى أضمرت نفس امرئ طرفاً من بغضهم كان من بعد النعيم شقي  
وهذه المدائح النبوية هي أصدق شعر أتى به الصني « لأنه نظمها لنفسه » نظمها  
لتشفع له في يوم الدين ، نظمها لتنير له الظلام حين يدهم الخطب « فهو  
صادق فيها كل الصدق إذ لم ينظمها ليترلف بها إلى أحد » أو ليحصل على  
جاه أو شهرة بين الناس . فهي تمثل أرفع مراتب شعره « وأدقها تصويراً  
وأصدقها تعبيراً .

وقد اخترت إحدى هذه المدائح لا تناولها بالتحليل ، وهي رأيته التي  
قالها في المدينة المنورة « ومطلعها :

كفي البدر حسناً أن يقال نظيرها فيزهي ولكننا بذاك نصيرها  
وهي قصيدة طويلة تبلغ تسعين بيتاً في البحر ( الطويل ) .

لقد بدأ الصني بالغزل « كما اقتضى فن ( المدائح النبوية ) » وقد بلغت

أبيات الغزل عشرين بيتاً ، وهو غزل جميل ، فيه رقة ولطف ، وفيه تأدب واحتشام ، فقد أوجب القدماء ذلك : « . . الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتمش فيه ويتأدب ، ويتضاهل ويتشبيب مطرباً بذكر ( سلع ) و ( رامة ) ... »<sup>(١)</sup>

استمع إلى الصني يقول :

أسيرة حبلى مطلقات لحاظها      قضى حسننها ألا يفك أسيرها  
تهيم بها العشاق خلف حجابها      فكيف إذا ما آن منها سفورها ؟  
وليس عجيباً إن غررت بنظرة      اليها فن شأن البدور غرورها  
فحبيبته محببة محجلة لا تسفر ،      لذا فهو متألم حزين ، يرسل قلبه الزفرات :  
وكم نظرة قادت إلى القلب حسرة      يقطع أنفاس الحياة زفيرها  
والصني في هذا الغزل يرجع إلى طبيعته ، فيضني عليه حماسه الممهودة :

فواعباً كم نسلب الأسد في الوغى      وتسلبنا من أعين الحور حورها  
فتور الظبي عند القراع يشينها      وما يرهف الأجفان إلا فتورها  
.....

تنامع عما في الكناس أسودها      وتحرس ما تحوي القصور صقورها  
تغار من الطيف الملم حماتها      ويفض من سر الفسيم غيورها  
إذا ما رأى في النوم طيفاً يزورها      توهمه في اليوم ضيفاً يزورها  
وزرنا فأسد الحي تذكى لحاظها      ويسمع في غاب الرماح زئيرها

فالصني قد أبدع في غزله المعيف الشريف هذا ، المليء بروح الحماسة ، وقد صور لنا حمية العربي الذي يغار على عرضه فيحمي المرأة حتى من الأطفاف ويحرسها حتى في دنيا الخيال .

لكن الصني المحب لا يهاب كل هذا ، ويمرض نفسه لتلك المخاطر ، إذ لا يستطيع إلا أن يزورها فهو يقول :

فيا ساعد الله المحب لأنه يرى غمرات الموت ثم يزورها -  
غير أن الواشين لا يدهونه ينعم إذ يكبدون عليه صفو هنائه :  
ولما أملت للزيارة خلصة وسجف الدياجي مسيلات ستورها  
سمى بيننا الواشون ، حتى حجوها ونمت بنا الأعداء ، حتى عبرها  
وهمت بنا لولا غداثر شعرها خطى الصبح لكن قيدته ضفورها  
أرأيت كيف يصف الصفي رنين حجها ونفح عبرها ، ويجعله من الذين  
يكشفون سر اللقاء ! إنه وصف بديع !

ومن هنا ينتقل الصفي إلى الشكوى من الزمان ولياليه :  
ليالي بمدني زمني على المدى وإن ملكت حقداً عليّ صدورها  
ومد قلب الدهر المجن أصابي صبوراً على حال قليل صبورها  
إنه يختر بنفسه ؛ بصيره واحتماله ، وسيق صابراً حتى النهاية :

فلو نحمّل الأيام ما أنا حامل لما كاد يحمو صبغة الليل نورها  
سأصبر أما أن تدور صروفها عليّ وأما تستقيم أمورها  
وقد أرتدي نوب الظلام بحجرة عليها من الشوس الحماة صبورها  
كأنني بأحشاء السبابس خاطر فآ وجدت إلا وشخصي ضميرها

ومن هذا الفخر يفضي إلى وصف الصحراء ، وهو وصف قد أبدع فيه !  
كيف لا وهو الذي قطع الفيافي والقفار وحيداً فريداً يوم رحل من بلده إلى  
( ماردين ) بعد واقعة الزوراء ! فغير الصحراء ورأى ما فيها ! وعرف محاسنها  
ومساوئها . فلنستمع إليه وهو يبدع في رسم صور الصحراء كأبرع فنان :

وصادية الأحشاء غضى بالها يمز على الشمرى المبور عبورها  
ينوح بها الحرّيت ندباً لنفسه إذا اختلفت حصباؤها وصخورها  
إذا وطئت الشمس سال لعابها وإن سلكتها الريح طال هديرها  
وإن قامت الحرباء توسد شعرها أصيلاً أذاب الطرف منها هجيرها  
تجنب عنها لحدار جنوبها وتدبر منها في الهبوب دبورها

خبرت صواحي أرضها فقتلتها وما يقتل الأرضين إلا خيرها  
ولكن .. ألا يصف (صفي الدين) مطيته التي قطع بها هذه الصحراء ؟ نعم  
لقد وصف الصفي ناقته ، وأجاد الوصف ، وقدم لنا كل ما نريد أن نعرفه  
عن هذه الناقة التي زاملته في سفرته وصحبته في تنقلاته ؛ صوتها الجميل  
وسيرها المتزن . وآثار أقدامها التي تشبه حرف النون .. إلى آخر ما هنالك :

بخطوط مرقاة أموات عثاها كثير على دفع الصواب عثورها  
ألد من الأنعام رجع بغامها وأطيب من سمع الهديل هديرها  
حروفاً كنونات الصخائف أصبحت تخط على طرس الفيافي سطورها  
إذا نظمت نظم القلائد في البرى تقلدها خصر الربى ونحوها  
يمر عن فرط الحنين أنينها ويمر ب عما في الضمير ضمورها  
ولا ينسى الصفي أن يذكر أسماء لأمه كن متعددة في الجزيرة العربية مثل :  
(زرد) و (شميط) و (ربى قطن) و (رمل عاج) إلى غير ذلك ... والصفي  
معدود في ذكر هذه الأسماء ، فهو يريد أن يبين أنه يعرف هذه المواضع  
من الجزيرة ، ويشير إلى أنه يسير في الجزيرة العربية ، وإلى ذلك فهو يقصد  
الأرض التي لها صلة بمعدوحه . فعليها نشأ وترعرع ، وفيها دفن :

فلما تراءت عن (زرد) ورملها ولاحت لها أعلام (نجد) وقورها  
وصدت يميناً عن (شميط) وجاوزت (ربى قطن) والهب قد شفى نورها  
وعاج بها عن رمل (عاج) دليلها فقامت لعرفان المراد صدورها  
غدت تقاضانا المسير لأنها إلى نحو خير المرسلين مسيرها  
إلى خير مبعوث ، إلى خير أمة إلى خير معبود ، دعاها بشيرها  
ففي هذين البيتين عهد للانتقال إلى المديح . فالناقة تحت السبر وتسرع  
الخطى كي تصل الرسول فابالك براكها ؟

ويبدأ وصف معجزات الرسول الكريم فيذكر ما أصاب المشركين يوم  
ولادته وما وقع من آيات كخمود نار فارس . وتبشير الله به وغير ذلك :



ومن أخذت مع وضعه نار فارس وزلزل منها عرشها وسريرها  
ومن نطقت توراة موسى بفضله وجاء به إنجيلها وزبورها  
ومن بشر الله الأنعام بأنه مبشرها عن إذنه ونذيرها

... ..

أيا آية الله التي مذ تبلجت على خلقه أخفى الضلال ظهورها  
وقد عبر الصفي عن فرحته بزيارة قبر الرسول الكريم ، فسلم عليه ۞ وكرر  
السلام وأعادته ، واصفاً إياه بما يرى من صفات التقديس والتمظيم :

عليك سلام الله ياخير مرسل إلى أمة لولاه دام غرورها  
عليك سلام الله ياخير شافع إذا النار ضم الكافرين حصيرها  
عليك سلام الله يا من تشرفت به الأنس طراً واستقم سرورها  
عليك سلام الله يا من تعبدت له الجن وانقادت اليه أمورها  
ثم يندفع يبين أن أقدامه تشرفت في هذه الرحلة لأنه يقصد زيارة الأرض  
الحرام ۞ وأن فيه غدا يفاخر عينه بمد أن لثم تراب القبر :

تشرفت الأقدام لما تنابمت إليك خطاها واستمر مرورها  
وظاخرت الأفواه نور عيوننا بتربك لما قبائمه ثغورها  
ولا يكفني بهذا كله ، لذا يقول :

فضائل رامتها النفوس فقصرت ألم تر للتقصير جزت شعورها  
ولو وفيت الوفاة قدرك حقته لكان على الأحداق منها مسيرها  
ثم يمدح آل بيت النبي ، ويضمن شعره حديثاً شريفاً هو : « أنا مدينة العلم  
وعلي بابها » :

مدينة علم وابن عمك بابها فن غير ذاك الباب لم يؤت سورها  
فآلك خير الآل والعتره التي محبتها نعى قليل شكورها  
إذا جولمت للبذل ذل نضارها وإن سوجلت في الفضل عز نظيرها

والصفي لا يسمى الصحابة ۞ فهو يحبهم ويفقدوهم جميعاً ، فيقول فيهم :

وصحبك خير الصحب والفرر التي بها أمنت من كل أرض تغورها  
كجاة حماة في القراع وفي القرى إذا شط قاربها وطاش وقورها  
ولا ينسى الصني أن يشكو إلى النبي حال المسلمين والظروف القاسية التي يمرون  
بها « وجثوم المغول على قلب العالم الاسلامي كله ، واقترافهم لأبشع الجرائم »  
وارتكابهم القتل والحرق والتدمير . ولكنه يتفاهل بأن العالم العربي سيتخلص  
من هذا بتآزر العرب ، ومساعدة النبي الكريم :

إليك رسول الله أشكو جرائمنا يوازي الجبال الراسيات صفيها  
كباثر لو تبلى الجبال بحملها لدكت ونادى بالثبور ثبيرها  
وغالب ظني ، بل يقيني « انها ستمحى وإن جلت وأنت سفيها  
ويعود الصني فيذكر أن قصيدته هذه مناجاة للنبي (ص) « وما قالها إلا لينال الجزاء :  
وبين يدي نجواي قدمت مدحة قضى خاطري ألا يخيب خطيرها  
تروم بها نفسي الجزاء فسكن لها مجزاً بأن تمني وأنت مجيرها  
ثم يذكر ( كعب بن زهير ) ومدحه للنبي ، وكيف أن النبي أعطاه برده بعد  
أن فرغ من انشاد قصيدته « وقد ظلت هذه البردة الشريفة حتى اشتراها  
( معاوية ) من أولاد كعب بغالي الثمن :

فلا بن زهير قد أجزت بردة عليك فأثرى من ذويه فقيرها  
وبعد أن يفخر بشعره يمتدح للنبي مما في قصيدته هذه من نقص لأن الشعر  
لا يمكن أن يحيط بصفات النبي العظيم :

وإن زانها تطويلها واطرادها فقد شانها تقصيرها وقصورها  
إذا ما القوافي لم تحط بصفاتكم فسيان منها جمها ويسيرها  
ويختتمها بقوله :

بمدحك تمت حجتي وهي حجتي على عصبة يطفئ عليّ فجورها  
أقص بشعري اثر فضلك واضعاً علاك إذا ما الناس قصت شعورها  
وأسهر في نظم القوافي ولم أقل : خليلي هل من رقدة أستعيرها ؟

## ب - شرح السلاطين :

لم يكن الصني يريد أن يضمّن ديوانه مدح أحد من الناس أبداً كان  
فما حد نفسه « ألا بمدح كريماً وإن جل » ولهذا قال :

وأعرضت عن مدح الأنام ترفعاً سوى ممشري إذ كان مجدي منهم  
وقلت كقول ابن الحسين مورياً : « إذا كان مدح فالنسيب المقدم »

فهو بمدح أهله وقبيلته « وذلك هو شعر الفخر . . . ولم يقصد إلا إلى مدح  
الرسول الأمين . وظل كذلك بارأً يمينه وفيأً بعهده حتى حدث ما أجبره  
على طرق باب المدح . فحين ترك العراق والتجأ إلى حمى الملوك الأرتقيين في  
( ماردين ) « ولقي ما لقي من حفاوة وتكريم ورعاية وتعظيم » وجد لزاماً  
عليه أن يردّ جميلهم بجميل مثله ، فلم ير أحسن من أن يقول فيهم الشعر  
الرائع والقصيد الجليل « فدح ( الملك المنصور نجم الدين غازي بن أرتق )  
وابنه ( الملك الصالح شمس الدين صالح ) . بل لقد كان يغالي أحياناً فيصرح  
بأنه وقف شعره على الملك المنصور فحسب ولن يمدح سواه أحداً . استمع إليه  
يحتتم إحدى قصائده فيه :

ولقد وقفت عليك لفظي كله مما أحل به وما أنا طاقد  
فاذا نظمت فأنني لك ماحد وإذا نثرت فأنني لك حامد

ويقول وقد أحس بأبداعه في مدح المنصور :

فلقد وقفت على علاك بدائماً يعني بأبسرهما الفصيح المغلق  
قالوا : خلقت موقفاً لمديحه ، فأجبتهم : إن السعيد موفوق

وقد يغلو في ذلك فيقول الملك الصالح إنه لم يمدحه إلا لكونه ابناً للمنصور :

يا ابن الذي كفل الأنام كائناً أوصاه آدم في كناية ولده  
المالك المنصور والملك الذي حاز الفخار بمجده وبجده  
أصل به طابيت ما نر مجدكم والفصن يظهر طيبه من ورده

وهو الذي شغل العدو بنفسه      غني كما شغل الصديق بحمده  
وأجارني إذ حاولت دمي العدى      ورأت شفاء صدورها في ورده  
ولذاك لم يرني بمنظر شاعر      تبني قصائد جوائز قصده  
ودرى بأن نظام شعري جوهر      وسواء نحر لا يليق بمقدده  
ولقد عهدت إلى عرائس فكري      أن لا تزف لمنعم من بعده  
لكنك الفرع الذي هو أصله      شرفاً ومجدك بضعة من مجده  
ونحيته في سره ووصيته      في أمره وصفيته من بعده

فن أجل ذلك مدح (الصالح) بعد أبيه (النصور) ، وقد آلى على نفسه  
« ألا يعزز مدحها بثالث » ورجا ألا يضطر من جديد إلى الخنث في هذه  
الآلية فيمدح غيرها . وظل على ذلك حتى جاء مصر سنة (٦٢٣ هـ) والتقى  
بالملك (الناصر محمد بن قلاوون) فأحسن مقابلته وأكرم وفادته واضطره إلى  
مدحه أيضاً فلنستمع إليه يبين ذلك إذ يقول : « ... وأهلتُ المشول في  
الحضرة الملكية الناصرية ... وشملتني من الانعام ما فأجاني به ابتداءً ولم  
أملك له خيراً » أؤمتني المروءة بمكافأة تلك الحقوق « ورأيت كفرانها  
كالمعقوق ، وأن تكفير تلك اليمين أولى من كفران أنعم المنعمين » فنظمت  
في معاليه ما طاب لفظه ومعانيه ... »<sup>(١)</sup> فهو بمدحه على أن يكون الثالث  
الذي لا رابع له « وبر الصفي بهذه اليمين فعلاً ولم بمدح رابعاً . فعلى الرغم  
من إكرام (الملك المؤيد اسماعيل) صاحب حماة له وتعميمه إياه وجريان عطاياه  
وهداياه عليه « لم بمدحه بقصيدة واحدة ، وإنما كان يقول شعراً يشكره فيه  
على إكرامه وعطاياه ، ويهته بالأعياد ويسميه شكراً وتهته ولا يسميه مدحاً .  
وهكذا كان على الصفي أن بمدح . وحقيقة المدح وصف المدوح بأخلاق  
كريمة يحمده عليها . والشعر العربي مليء بالمدح منذ القديم وكان قليل من  
الشعراء بمدح لرغبة في نفسه (كزهير بن أبي سلمى) حين مدح المربيع

- هرم بن سنان « والحارث بن عوف - ولكن أكثرهم يمدح للتكسب ، فكان معظم هذا المديح مفتعلاً لا عاطفة فيه يتصف بالمبالغات ويمتليء بالكثير مما لا يعقل « وتزايد الغلو على مر المصور حتى قال المتنبي لسيف الدولة : تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي إلى قول قوم أنت بالغيب عالم وصار الشعراء يكيلون الأوصاف لمدوحهم دون حساب ، وأفضوا إلى الكفر والخروج عن الحد واصفين بمدوحهم بما ليس فيهم .

أما شعر الصفي فلم يكن كذلك « لأن الصفي ما كان يقول غير ما يعتقد ، وما كان يعبر إلا عما يحس به في قرارة نفسه « فديحه ليس كمدح أولئك الشعراء ، لأنه صادر عن طبع سليم ونية صادقة وشعور عميق « ولأنه لم يمدح إلا ثلاثة كان المدح أقل مما يمكن أن يجازيهم به ، لما أولوه من فضل جزيل وخير عظيم « حتى أصبح يحس نحوهم إحساس الأخ الودود لأخيه الحميم . فما كان مدحه طلباً لكسب أو رغبة في جاه « وهو ليس محتاجاً إلى التكسب بشعره . ويرى الشعر فناً سامياً يجب أن يصان ويرفع عن الانزلاق إلى هذه الشبهات . وليس هو بحاجة إلى الجاه وهو ابن الكرام الأشراف .. فهو يقول هذا المديح صادقاً دون مبالاة أو مراعاة ، ودون كذب أو نفاق ، يعبر عما يحس به أصدق تعبير نحو هؤلاء السلاطين الثلاثة... يقول للملك الصالح :

مدحي لمجديك عن وداد خالص وسواي يضم صابه في شهبه  
أنا لا أروم به الجزاء لأنه بحر أنزه خلتي عن ورده  
لا كالذي جعل القريض بضاعة متوقفاً كسب الغنى من كده

ومدائح الصفي (تسع وعشرون قصيدة) و (ثلاث وعشرون مقطوعة) موزعة على هؤلاء السلاطين الثلاثة .

ولم يفارق الصفي الأسلوب القديم في المدح ، فهو يبدأ أكثر هذه القصائد بالغزل والنسيب أو يبدأها بذكر الخمر أو بوصف الطبيعة . وكل هذه القصائد تشهد للصفي ببراعة الاستمهال « وروعة الفاتحة وأشراف الديباجة .

وهو بعد أن ينتهي من المقدمة يعهد للمديح فينتقل أحسن انتقال لا يشمر  
العامع بأي اضطراب فيه ، ولا يحس بأي نبوة أوجفاء كقوله في مدح الصالح :  
كيف الضلال وصبح وجهك مشرق وشذاك في الاكوان مسك يهب

.....

حتى بدا فلق الصباح فراعته أن الصباح هو المدو الأزرع  
ولقد رضيت من الصباح وإن غدا للعاشقين غراب بين ينمق  
وغفرت ذنب الدهر حين بدت به من طلعة السلطان شمس تشرق  
وهو بمدح هؤلاء السلاطين بالكرم فيأتي بصور جميلة ومعاني رائعة . يقول  
في الملك الصالح :

ملكية فلكية يسمو بها كرم ترشح كنهه في ذاتها  
سبقت مواهبه السؤال فإله عدة مؤجلة إلى ميقاتها

ولا ينبغي عن باله أن يصف هؤلاء السلاطين إلا بطلان الأقوياء الذين هموا  
الاسلام ودافعوا عنه بقوة وشجاعة ، فهذا الملك المنصور يقول فيه :

كم قد أبدت من الأعداء من فئة نحت المجاج وكم فرقت من فرق  
رويت يوم لقام كل ذي ظمأ في الحرب حتى جلال الخيل بالمرق  
ويوم وقعة عبتاد الصليب وقد أركبتهم طبقاً في البيد عن طبق  
منقت بالموصل الحدايه شملهم في مأزق بوميض البيض ممتزق

ولست هذه الصفات فقط هي التي يصف بها صني الدين بمدوحه فهو يصفهم  
بالتقى والورع والتدين وخافة الله ، ويقول إنهم هم الذين هموا الدين وردوا  
أعداء المسلمين كقوله للملك الناصر :

يا ملكاً فاق الملوك ورعاً إن شام أهل الملك طيش ورعاً  
ويقول له أيضاً :

قد عز دين محمد بسميته وسما بنصرته على الأديان

ويقول للملك المنصور :

فاستبشرت فئة الاسلام إذلمت لهم بوارق ذاك العارض الغدق  
وأصبح العدل مرفوعاً على نثر لما وليت وبات الجور في نفق  
وقد يفالي في مديحه • ويبالغ فيما يسبغ من صفات على ممدوحه فيخرج  
عن حده مقلداً بذلك المتفني ومدرسته . يقول :

لقد برّوع الملك المنصور محي الأنام قبل نفخ الصور  
باني العلي قبل بنا القصور قاتل كل أسد هصور  
ملكه الله زمام النصر

ويحتم الصفي قصائده هذه في الغالب مفتخراً بشعره معتزاً به ، فيشبهه القصائد  
بالحسان الأBKار . يقول :

فاستجل بكر قريض لا صداق لها سوى القبول وود غير مكفور  
على (أبي الطيب السكوفي) مفخرها إذلم أصغ مسكها في مثل (كافور)  
رقت لتعرب عن رقي لمجدكم حباً وطالت لتمحو ذنب تقصيري  
ويقول واصفاً شعره بالوشاح المطرز والسحر الحلال :

فقد جعلت الأرض من مدحك خصرأ وشعري جائل كالوشاح  
خففت بالنفس استعاراته كما أعير الذل خفض الجناح  
إذا تلاه الوفد قال الوري : هذا هو السحر الحلال المباح  
وقد يحتم قصائده بالتهنئة . قال في آخر قصيدة مدح بها الملك الصالح :  
ليهنك ملك لا يزال مخيماً لديك وذكر في الأنام شريد  
لئن بت محمود الخصال فلا أذى كذا من غدا في الناس وهو فريد  
إذا نم نور البرق في أفق سمده فاضره أن السماك حمود  
وقال له أيضاً في قصيدة أخرى :

تهن بعيد النحر وانحر به العدا فجودك عيد للوري ليس يبرح  
وضح بها لا زلت تحر مثلهم ومن دون مفناك العقاقير تضح  
فهو يهنه بعيد النحر ويهنه بسعادته في الحياة .

### ٣ - الرثاء :

للصفي الكثير من المراني الرائعة ، وهي ( خمس وعشرون قصيدة ) و ( خمس مقطوعات ) ، في رثاء السلاطين وأولادهم ، وفي رثاء أهله وأقاربه ، وفي رثاء أصدقائه وإخوانه . وبعضها في تمزية أهل الفقيد ... والغريب أنه ليس للصفي من مراني الحسين بن علي حتى ولا قصيدة واحدة ، بالرغم من تغافل العقيدة الشيعية في نفسه ، وهذا الرثاء خير ما يعتر به الشيعة ويتميزون به .

قال الصفي شعر الرثاء منذ صباه ، فله مرثية جيدة منذ كان في الثالثة عشر من عمره يرثي بها قاضي الحلة ( تاج الدين محمد بن وشاح الحلبي ) مطلعها :  
لو أفادتنا العزائم حالا لم نجد حسن العزاء محالا  
ولم يخرج الصفي في مرثيته عن طريقة القدماء في شعر الرثاء ، فيبدأ قصيدته أما بالحكمة وأما بالتفجع على الميت وتصوير الحزن عليه ، قال يرثي خاله ( صفي الدين بن محاسن ) وقد بدأ بالتفجع والحزن :

سفها إذا شقت عليك جيوب إن لم تشق مرائر وقلوب  
وتملقا سكب الدموع على الثرى إن لم يعازجها الدم المسكوب  
ورثي أحد أبناء الملك المنصور فابتدأ رثاءه بالحزن والبكاء أيضاً قائلاً :

بكى عليك الحسام والقلم وانفجع العلم فيك والعلم  
وأضحت الأرض قاعباً ديارها لاطمة والبلاد تلتطم  
ومن استهلالاته بالحكم قوله في رثاء القاضي ( شهاب الدين محمود ) كاتب السر بدمشق :

حبل المني بحبال اليأس معقود والآن من من حادث الأيام مفقود  
ورثاؤه السيد ( النقيب مجد الدين أبا الفوارس ) :

صروف الليالي لا يدوم لها عهد وأيدي المنايا لا يطلق لها رد  
وليس من عادة شعراء العرب أن يبدأوا قصائد الرثاء بالنسيب أو ذكر الحجرة



أو ما شابه ذلك كما في المدح وغيره . . وقد شذ عن هذه القاعدة ( دريد بن الصمة ) إذ بدأ إحدى مراثيه بالنسيب ■ ومطلعها :

أرثَ جديداً الحبل من (أم معبد) بعافية وأخلفت كل موعِد ■  
وهناك أبيات تروى أحياناً في قصيدة ( أعشى باهلة ) في رثاء ( الدجاء ) :  
هاج الفؤاد على عرفانه الذكر وذكر خود على الأيام ما يذر  
قد كنت أذكرها والدار جامعة والدمر فيه هلاك الناس والغير

ولكنها مشكوك في أمرها ■ فما اشتهر عند العرب في هذا سوى قصيدة ( دريد ) . وإن كان ( السكيت ) في كثير من الأحيان يلجأ بالنسيب إذ يقول : تركت كذا وشغلت عن كذا فيتغزل ويصف أحوال الفناء قبل الرثاء<sup>(١)</sup> ولكنه غير صريح . ولكن الصفي أتى بمرثيتين خالف فيها أساليب العرب في الرثاء ، فقد بدأ الأولى بالحزر ووصف مجلسها وهي القصيدة التي رثى بها ( الملك المنصور ) ، ولعله معذور في ذلك ، فحين علم بوفاة وكان في بغداد ، أسرع إلى ماردين ومعه قصيدة عصماء في رثاء الملك الذي بدّل خوفه أمناً وجوعه شبعاً . غير أنه ما كاد يصل ماردين حتى وجد مجلس العزاء قد انفض ، وأولاد الفقيد قد نصبوا مجلس الحزر والهو والأنس والطرب ■ فاضطر إلى مجاراتهم وحضور هذا المجلس ، فوصفه في شعره وذكر الحزر فأرضاهم ، وأرضى نفسه في التعبير عما يحس به من حزن نحو الراحل العظيم برثائه أيضاً . ومطلع هذه القصيدة :

أدراها بأمن لا يفيرك الوهم وزف على الجلاّس ما خلف الكرم

وأما الثانية فهي القصيدة التي رثى بها ( الملك المؤيد : عماد الدين اسماعيل ) صاحب حماة إذ سمّط - خمّس - نونية ( ابن زيدون ) المشهورة فقال :

كان الزمان بليقياً كم ينعيننا وحادث الدهر بالتفريق يثنيينا

فعمدا صدقت فيكم أمانينا (أضحى التناهي بديلاً من تدانينا)  
(وناب عن طيب لقيانا نجافينا)

وجل مرآتي صني الدين - إن لم تكن كلها - جيدة يعبر بها عن شعور فياض  
وطائفة صادقة وإحساس متدفق ، لأنه لم يرث غريباً ، لا يمكن أن يحس  
نحوه بشعور ما ، ولا يشعر لفراقه بحزن . فالذين رثاهم أقاربه وأهله  
والسلطين الذين يرثهم مثل أهله ، وأصدقاؤه المقربون . لهذا نلست في مرآتي  
إحساسه باللوعة والألمى لفراقهم ، وتصويره الحزن مخيماً على الجميع ، وهو  
يكيهم بكاءً مرأً . فلنستمع إليه يكي خاله :

لا جدت أدمي ولا خمدت نار أسمى في حشاي تضطرم  
وحين رثى ولده وأخاه قال :

بكيت دماً لو كان سكب الدما يفي وضاعفت حزني لو شفى كدأ حزني  
وأعرضت عن طيب الهناء لأنني نقتم الرضا حتى على ضاحك المزن  
وما هو يعبر عن حزنه لفقد صديقه ( الأمير محمد بن الحاج صالح ) بماددين :

كلما شام برق مغناك قلبي أرسلت سحب أدمي أمطارا  
وإذا ما ذكرت ساطات أنسي بك أذكي التذكار في القلب نارا  
فكان التذكار حج بقلبي فهو بالحزن فيه يري الجمارا  
فسأبكك ما حيت بدمع لا تقال الجفون منه عثارا

وتمتاز مرآتي الصني بقلة إهتمامه بالصناعة ، على كثرتها في بقية أغراض  
شعره ، فلا نكاد نجد آثاراً لهذه الصناعة المختلفة التي تفنن فيها الصني في شعره  
كله ، رأى أن الصناعة أبعد ما تكون عن الرثاء ولا يمكن أن تتفق مع  
الحزن ، فشر الرثاء يجب أن يكون طبيعياً لا تكلف فيه ، طارياً من الرثية  
والتجميل .

وهو غالباً ما يمدح الفقيد ويصفه بأحسن الصفات ، كالكرم والشجاعة .  
فحين رثى السلطان الملك الناصر قال :

وما كان يدري من يتم جوده      ونكب لج البحر أنهما البحر  
 منافع أرزاق العباد بكفّه      فيمنى بها يمن ويسرى بها يصر  
 ويتحسس في صرائيه ، فحين يبكي السيد ( غياث الدين عبدالكريم ) يقول :  
 كأن لم يقدها كالأجادل سرباً      ويرفع قب الليل من نفع قبه  
 ولم يقرع الأسماع وقع خطابه      ولم يطرّق الهيجه موقع خطبه  
 ولا كان يوم الدست صاحب صدره      وللجيش يوم الحرب مركز قطبه  
 ولا كان ما بين الصوارم والقنا      وفوق متون الخيل إدراك نجبه  
 وينتقل من رثاء الميت إلى تمزيه أهله :

فلذ بالصبر في اللأني وأحسن      عزاءك واغتم حسن الثواب  
 فانك من أناس ليس يخفى      على آرائهم وجه الصواب  
 ويسلي أهل الفقيده بوجود خلف له ينوب عنه ويعلاّ فراغه قال في الملك الناصر :  
 وإن لنا من بعده من سليله      مليكاً به عن فقده يحسن الصبر  
 فان غاب ذاك البدر عن أفق ملكه      فقد أشرقت من نجله أنجم زهر  
 أو يقول إن الموت لا مفر منه لأن القدر لا رادّ له :

لا تعجبين فإني الموت من عجب      إذ ذاك حدث به الإنسان محدود  
 فالمستفاد من الأيام مرتجع      والمستعاد من الأعمال مردود  
 وللعنية أظفار إذا نشبت      رأيت كل عميد وهو معمود  
 وقد يختم الصفي صرائيه بالنعيب على      الفقيد والتفجع له والترحم عليه  
 والدعاء له :

سقى الله ترباً ضم جسمك وابلاً      يمتع روضاً برده فيفوق  
 إذا أنكرت أيدي البلا عرصاته      ينمّ على أرجائه فيمرف  
 فهو يدعوا لخاله ( صفي الدين بن محاسن ) أن يسقي ثرى قبره المطر الغزير .  
 ويقول داعياً لملوكه :

فسقى عهدك العهاد فقد فز      ت بزلفى الجنان فوزاً عظيماً

وعليك السلام حياً وميتاً ورضيماً وإفعماً وفطياً  
ويبكي قاضي القضاة بماردين قائلاً :

سأبكيك بالأشعار حتى إذا وهت سلوك عقود النظم أنجذني النثر  
أو يقول :

فسأبكيك ما حييت بسدمع لا تقال الجفون منه عثارا  
ليس جهدي من بعد فقدك إلا أرسل الدمع فيك والأشعارا  
إلا أنه قد يفخر بشعر في نهاية القصيدة ، استمع اليه يقول في سرنيته للقاضي  
شهاب الدين محمود كاتب السر بدمشق المتوفى سنة ٧٢٥ :

فسوف ترثيك مني كل قافية بها لذكرك بين الناس تخليد  
وأسمع الناس أوصافاً عرفت بها حتى كأنك في الأحياء معدود  
وقد بضمن قصائد الرثاء هذه بعض تجاربه في الحياة على شكل حكمة ما أعذبها  
تسري على لسانه !.. استمع اليه يقول :

من خالط الناس كان الحزن غايته من أكثر النوم لا يستعذب الخلها

## ٤ - الإخوانيات :

فن الإخوانيات قديم في الشعر والنثر . وهناك من يسميه مناجاة الأصدقاء ،  
وقد ازدهر هذا الفن في القرن الرابع للهجرة ، خاصة في النثر . واهتم به  
الأدباء والكتاب . فمعد له الثعالب فصولاً خاصة في ( بقيمة الدهر ) وفي  
( سحر البلاغة ) . واختار نماذج مختلفة من أحسن ما قاله الأدباء والشعراء  
فيه . ويمتبر ( أبو حيان التوحيدي ) أفضل كتاب الإخوانيات ، فقد أبدع  
في كتابه ( الصداقة والصدق ) أيما إبداع . وللهمذاني كثير في هذا الفن ،  
وقد يوصله بالعتاب . و ( لأبي نصر العتبي ) رسائل إخوانية عديدة جيدة

وكذا ( الميكالي ) و ( ابن العميد ) « فلان العميد قصائد جميلة في هذا الفن كتب إلى ( أبي الحسن العباسي ) يقول :

أشكو إليك زماناً ظل يمركني عرك الأديم ومن بعدي على الزمن  
وصاحباً كنت مغبوطاً بصحبته دهرأ فنادرني فردأ بلا سكن

(١) ... .. = ... .. (١)

وقد كان الكثير من هؤلاء الكتاب يضمنون رسائلهم الاخوانية شعر الشعراء .  
وتزايد تضمينهم للشعر حتى اكتفوا أخيراً به وحده « فصاروا ينظمون  
القصائد الاخوانية « كابن العميد وغيره .

وعند صفي الدين كثير من هذه القصائد الاخوانية تبلغ ( ثمانى عشرة )  
قصيدة ، وأما المقطوعات فكثيرة جداً . هناك قصائد أرسلها وهو في الحلة  
إلى أصدقائه في مختلف البلاد ، وهناك قصائد أرسلها من ( ماردين ) إلى  
أهله وأقاربه وأصدقائه في الحلة وبغداد والقاهرة والشام « وقد نظم القصائد  
الاخوانية في القاهرة ودمشق وحلب وغيرها وأرسلها إلى الملوك والامراء  
والقضاة والعلماء والأدباء « وكانت هذه القصائد في شتى المواضيع ، في  
الرد على قصائد وردته منهم ، وفي تقرير الكتب التي يهدونها إليه ، وفي  
التهنئة بالحب والزواج ، وفي الشكر على الهدايا والحببات وفي التشوق والحنين «  
وفي الاعتذار والعتاب إلى غير ذلك .

والصفي يتألق في هذا الشعر أيما تألق ، فشعره هذا عذب وأسلوبه  
متدفق ، فهو صادق تمام الصدق لأنه يكتبه إلى أصدقاء مخلصين ، يجمعه  
بهم الحب الصادق والود الأكيد ، وليس هناك أي داعٍ للتصنع أو التكلف «  
وليس هناك أي دافع الرياء والتظاهر بما لا يحسه نحوم . فكل ما يقوله لهم  
- أو أكثره - حقيقي . لذا وجدناه صريحاً فيما يقول ، وقد تصل به الصراحة

إلى مداعبة لا يمكن أن يقولها إلا إلى أخلص صديق ممن رفعت عنه الكلفة ،  
كما قال لصديقه سيف الدين أبي بكر السلامي الحلبي :

لا أجازيك بالاهانة والسب ولا كن جزاك يا نجس عندي

ففي هذا البيت وفي غيره يستعمل أقصى العبارات في سب أصدقائه مما يبين لنا  
الصلة القوية التي تربط بينه وبينهم ، والصراحة التامة التي تتجلى في هذا الشعر .

ونرى الصفي يحن كثيراً إلى وطنه في هذه الرسائل الشعرية التي كتبها إلى  
أصدقائه وأقاربه وهو بعيد عن العراق ، فهاهو يقول للشيخ ( مذهب الدين  
الحلي ) وأرسلها إليه من ماردين :

أحباي بالفيحاء إن طال بعدكم فأنتم إلى قاي كسحري من محري  
وإن يخل من تكرار ذكرى حديثكم فلم يخل يوماً من مديحك شعري  
فيا أيها الشيخ الذي عقد حبه تنزل مني منزل الروح من صدري  
تجاذبني الأشواق نحو دياركم وأحذر من كيد العدو الذي يدري  
أو يقول :

يا قاطع البید يطوبها على نجب لم تبق فيها الفياضي غير أشخاص  
إذا وردت بها شاطي الفرات وقد فكبت من ماء ( حوران ) و ( قیاص )  
وجزت بالحلة الفيحاء ملتصاً آرام مرب حمتها أسد عیاص  
فقف بسمدتها المشكور منشئه ( سعد بن مزید ) لا ( سعد بن وقاص )  
واقراً السلام على من حل ساحتها وصف ثنائي وأشواق وإخلاصي  
واخبر بآني وإن أصبحت مبتسماً وأغلي قدري بعد إرخاص  
صاب إلى نحوكم صب بحبكم محافظ الود للداني وللقاصي

وحين يذكر وطنه - الحلة - لا يغيب عن باله أن يذكر لنا أنها كانت في يوم  
من الأيام وطن الحضارة المريقة الضاربة في القدم ، فلا يدعوها إلا باسم  
( بابل ) المحب الجميل . يقول :

سقى روضة السمدي من (أرض بابل) سحب ضحوك البرق منتحب القطر  
ويقول :

وترى السحب قد نشأن نقالاً سحبت في ربوع (بابل) ذبلاً  
والصني بين حاله وبعض مظاهر حياته في هذه القصائد على نحو ما ترى  
في قوله :

ولكن لي في (ماردين) معاشرأ شدوتُ بهم لما حلت بها أزمري  
ملوك إذا ألقى الزمان حباله جعلتهم في كل نائبة ذخري  
وما أحدثت أيدي الزمان إساءة ووافيتهم إلا انتقم من الدهر  
أو قوله :

وإذا ما غرقت في لجج الهم ففي (ماردين) ملقى المراس  
بلدة ما أتيتها قـطـط إلا خلتها بلدتي ومسقط راسي  
بذلوا لي مع الساحة ودأ هو منهم يزيد في إنسامي  
والصني يخلص أي اخلاص لهؤلاء الأصدقاء الذين يرسل اليهم هذا القصيد  
ويحافظ على العهد ، يبين ذلك قوله :

زاد قدري بحبه إذ رأى النـاس من التزامي بحبه وامتصاصي  
مذهب ما ذهب عنه ودين ما تمرضت فيه للأشـراك  
إن تغب عن سوى عيوني فقلبي شاكر عن علاك والطرف شاكي  
ولهذا نراه دائماً يطلب الإجابة عن قصائده والرد عليها ، استمع إليه يقول  
(لأن نبأته المصري) في قصيدته التي أرسلها إليه من دمشق :

لك من وافر العلوم نصاب فاجعل الرد للجواب زكاته  
وكثيراً ما نراه يظهر الخضوع لهؤلاء الأصدقاء فيخطبهم بألفاظ غاية في  
المجاملة والخضوع كسيدي ومولاي وغيرها ... ويقول انه عبد لهم ، من  
مثل قوله :

سيدي صاحبي أنيسي جليسي طوق جيدي معاشرى تاج راسي  
وقوله :

سيدي بل سمعت عنك كلاماً هو في مهجتي شبيه الكلوم  
وقوله :

كل يوم أقول : قد قال مولاي وما قلت ساعة : قال عبيدي  
وقوله :

وردت عبدك المقصر أيسات فأغته عن كؤوس السلاف  
ونجد عند الصني ، في قصائده هذه ، الكثير من الفخر بشعره ، استمع  
اليه يقول :

أسوق الى البحر الخضم جواهري وأهدي الى أبناء بابل من سحري  
أو يقول :

ولقد هزرت اليك دوح قريحتي مدحاً فأينع دوحها المهرزوز  
صغت القريض ولم أقله تكلفاً لكنه طبع لدي عزيز  
أجلو عليك من القريض عرائساً من خدر أبكاري لمن بروز  
أبكار أفسار تزف كواعباً لا كالقريض تزف وهي عجوز  
ويصف الطبيعة في هذه القصائد ، متأثراً بما يحيط به من مناظر جميلة . أو  
متذكراً مناظر وطنه الخلافة فيصفها وصفاً رائعاً :

كأن به (الجودان) بالسحب شامت فما انتجت إلا انثى باسم الثمر  
تماقت الأغصان فيه فأسبلت على الروض أستاراً من الورق الخضر  
إذا ما حبال الشمس منها تخلصت الى روضة ألفت شبا كاً من التبر  
وهكذا نجد الصفي قد أبدع في هذه القصائد الاخوانية لأن إخوانه كثيرون  
تربطه بهم وشائج متينة . وصلات أخوية صادقة . فكانت هذه القصائد  
صادقة العاطفة جميلة المعنى جيدة السبك متدفقة الأسلوب .



## ٥ - الغزل :

في ديوان الصفي غزل بالمرأة وغزل بالغلمان « على عادة عصره ، وغزله الأول يندمج فيه ( تسع وعشرون قصيدة ) و ( اثنتان وتسعون مقطوعة ) فيما عدا فوائح القصائد . وهذا ، لا ريب « شعر غزير « وهو شعر رقيق عذب يمتاز بحلاوة الألفاظ وعذوبة الجرس وسهولة المعاني ووضوحها . فهل هذا الغزل غزل صناعي أو هو غزل طائفي يمر عن حب حقيقي صحيح ، أي : هل أحب الصفي حقاً - كان يتغزل معبراً عما في نفسه من الوجد والجوى « أو أنه كان يقول الغزل تقليداً لغيره من الشعراء لكي لا يتخلو ديوانه من هذا الفن الشعري الجميل ؟

في الحقيقة إنه ليس لدينا من المعلومات والأخبار ما يبين ذلك بله ما يؤكدده . ولكن ... مما لا ريب فيه أن الصفي قد أحس يوماً ما بعاطفة الحب « والشاعر العربي يقول :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فأنت وعير في الفلاة سواء  
والصفي شاعر فنان رقيق العاطفة مرهف الحس ، يتأثر بالجمال ويمشق الحسن « ذو قلب كبير . والله ما خلق للانسان قلباً وفي الطبيعة جمالاً إلا ليحب الانسان الجمال ، والله جميل ويحب الجمال . ولو استمرضنا آراء الصفي في الحب لرأيناه يقدره ويقدسه :

يا رب أعط العاشقين بصبرم في الخلد غايات النعيم المطلق  
وأذقهم برد السرور فطما صبروا على حر النرام المطلق  
حتى يرى الجبناء عن حمل الهوى غايات عزم التي لم تلحق  
فيكون أصغر جاهل حمل الهوى يلهو بأكبر عالم لم يعشق  
فالصفي في هذه الأبيات يريدنا أن العاشق - عنده - أفضل ممن لم يعشق وأن أكبر عالم لم يدخل الحب قلبه لا يستحق أن يقارن بأصغر جاهل عرف الهوى

طريقه إلى قلبه . . . وهو يصرح بأنه أحب فعلاً وأنه ليس كغيره من المحبين ، يقول :

يظنون أن الحسن بالعين مدرك وسرُّ الهوى بادٍ لكل لموح  
وليس طموح الناظرين بمبصر إذا كان لحظ القلب غير طموح  
فليس (جميل) في الهوى و (كثير) ولا (عروة المذري) و (ابن ذريح)  
بأعرف مني في السلاح توسماً ولا جنحوا في العشق بمض جنوح  
والصفي يقول إنه يشرع في العشق وما شيد أحد في الحب مثل ما شيد هو :  
بذلتُ روحي إلا أنها تمنى للوصل منكم ولا يكن حسب مجهودي  
أنا المحب الذي أهل الهوى نقلوا غني فأعطيتهم بالعشق تقليدي  
من أين للعشق مثلي في تشرعه ومن يشيد دين الحب تشيدي  
فهذه عاطفة محب حقاً ، فكل عاشق يخيل إليه أنه ما عشق أحد مثله من قبل  
ومن بعد ، وأنه هو رب العشق والهوى ، وأنه سلطان الحب والغرام .  
فالصفي إذاً قد أحب وعرف قلبه العشق وذاق حلاوته ومرارته .

ولكن . . . أي نوع من أنواع الحب كان في قلب الصفي ؟  
لا ريب أنه لم يكن من الحب الماجن . فهو رجل فاضل وليس في شعره  
الغزلي ما يدل على هذا المجون . ولكن . . . أكان حبه من نوع حب ( ابن  
أبي ربيعة ) وأضرابه ممن كانوا يحبون الجمال أينما وجد ويعشقون كل حسناء .  
دون أن يكتفوا بواحدة يخلصون لها الهوى ؟ أو إنه كان من نوع حب  
( جميل بثينة ) الذي يحب واحدة فحسب لا يميل إلى سواها . بحبها حباً  
صادقاً غيفاً لا تشوبه شائبة ، ولا يعمر قلبه إلا بالوفاء والاخلاص لها ،  
يذكرها كل حين ويرى أن كل جمال في الدنيا يفتن من جمالها .

هذا ما لا نعرفه ولا نستطيع أن نستبينه من شعر الصفي . فقد نعهد  
الصفي أن يموت علينا ذلك . فهو تارة يذكر أنه يحب الحسن أينما وجد فيقول :  
طابوا ابتهاجي بالغرام وإني ماعشت من سكر المحبة مائد

قالوا : أنعشق كل رب ملاحه وأجبتهم : إن المحرك واحد  
فالحسن حيث وجدته في حيز هولي بأرسان الصباية قائد  
وتارة يقول إنه يحب واحدة فحسب ، وإنها في الحلة : وفي حي الجامعين  
بالذات :

نعم الهوى لما تذكر إلفه بالجامعين وحبسه لم يجذب  
ذابت لكم يا أهل بابل مهجتي فتنصبت بالعيش بمد تلذب  
وتارة يحدثنا أنها حبيبان ، في ماردين وفي الجامعين . يقول :

لئن سكنت إلى ( الزوراء ) نفمي قارب القلب بين محررين  
هوى يقتادني ( بديار بكر ) وآخر نحو أرس ( الجامعين )

ومن حق الصفي أن يفعل ذلك حتى لو كانت حبيبته واحدة ■ فربما كانت من  
بنات الأسر الكريمة في الحلة ■ فكان يخاف على سمعتها ويحاذر أن يخذل  
شرفها حين يصرح باسمها فيعرف الناس من هي ، وقد أحبها منذ الصبا ، فهو  
يقول متذكراً عهود الصبا :

مغاني الحمى جادت سحاب أدمي عليك إذا جفت عيون الفئام  
ملاعب لهوكم قضيت بربعها لبانات أيام الصبا المتقادم  
من الجانب الغربي من أرض بابل معاهد أنس مشرقات المباسم  
فيتذكر أيام الصبا حيث كانوا يلعبون معاً ، صبية من بنين وبنات ■ فكانت  
أياماً سعيدة هائلة ، وحين كبروا نحتم عليه ألا ييوح باسمها لئلا يؤذيها فصار  
يعوه الاسم فيقول :

ولقد أموه بالمغاني والمها خوف العدا وأضن عن ذكراك  
إذ لم يكن لك في النزول بالمها لقب ولا أسماء من أسماك  
فكنه يقول أيضاً ما يؤكد أنها واحدة :

وحق من لا سوام عندي القمم ومن بغير هوام ليس لي قسم  
ومن أموه بالذكرى بغيرهم معرضاً بسوام والمراد هم

وذلك لأنه مخلص أمين يحفظ العهد ويصون الوعد :

وإني مع صدودك والتجني وفيّ ليس لي منك انتقال  
وأوتر أن ينال دمي ووفري ومحبوبي عزيز لا ينال  
لأنّي لا أخون عهود خلّ ولو حفت بي النوب الثقال

ومع كل هذا فقد يكون الصني أحب غيرها - فيما بعد - فأنفواني في مجالس  
اللهو التي كان يرتادها كثيرات - وقد يكون بعض غزله غزلاً صناعياً ليس فيه  
عاطفة صادقة وإنما يقوله لتقليد غيره من الشعراء .

وهو على كل حال ، لم يبعد عن أساليب الغزلين المتقدمين فكان غزله  
قصائد ومقطوعات يصف بها عاطفته وحبّه « وشعوره وإحساسه ، ويصور  
الحبيب وبعض لياليه في أيام الصبا يوم ضحك له الزمان ، ويمر عن لوعة  
الفراق وألم البعد ونار الجوى ، ويتحدث عما يتمنى وتتمنى معه نفسه من لقاء  
الحبيب ، وكان يصف ذلك في اليقظة والحلم . والغزل عنده يميل إلى الأوصاف  
المادية « فهو يحسم جمال المحبوب « فيصف القامة والحصر والرذف والصدر «  
ويصف الشعر والحد والوجه والعينين « فقوامه كالرح أو كالغصن :

..... مليح يغير الغصن عند اهتزازه

ووجهه مشرق كالبدريضي بنور لآلاء :

حتى إذا تم معنى حسنه وبدأ  
وخصره الدقيق ينوء بردفه الثقيل :

بخصر مثل عاشقها نحيل  
وفي خده نار تطفى كأنها نار الكليم :

ظبي من الأتراك فوق خدوده  
ونفره كأس مليء بالؤلؤ والدر :

بكأس حكاها نفره في ابتسامه  
وعينه ترشق قلب المحب بالنبل :

ها قد جرحت بنبل عينيك الحفا فدعي فؤادي فالجروح قصاص  
وشعره أسود كأنه الليل المدهم :

سفهن رأي المانوية عندما أسبلن من ظلم الشعور غياها  
وليس ذلك فقط ما يعشقه الصفي ويمجب به وإنما وجدناه يعجد الحب الروحي  
ويمجب بالكثير من المعنويات كالصوت والحديث الذي يسكر به . فهو يقول :  
يحاول طرفي لحظة من خياله ويشاق سمعي لفظه وكلامه  
ويقول :

لقد نلت إذ نادمته من حديثه من السكر ما لالته من عقيقه  
فلم أدري من أي الثلاثة سكرني أمن لحظه أم لفظه أم رحيقه  
وهو يقنع بالنظرة ويكتفي بطيف الحبيب حين يزوره فيأنس به :  
جزى الله غني الطيف خيراً فانه يعيد لي الذات حين يعود  
وكثيراً ما يزارج بين ألفاظ الحماسة وألفاظ الغزل ، يقول :

البيض دون لحاظ الأعين السود والسمر دون قدود الخرود الغيد  
والموت أحلى لصب في مفاصله تجري الصبابة تجري الماء في العود  
فهنا صورة عناصرها من مقومات الصور الغزلية والصور الحماسية ، فنشاهد  
الأعين السود بجانب السيوف البيض ، والرماح السمر إلى جانب القدود .



وإذا تركنا غزله بالمرأة إلى غزله بالفلان وجدناه كثيراً أيضاً إذ يبلغ  
( ثمانين وخمسين مقطوعة ) و ( قصيدتين ) . وقد كانت هذا الغزل شائعاً في  
عصره . فنذ بدأه أبو نواس وهو يزداد انتشاراً واتساعاً حتى بلغ حداً  
كبيراً في عصر الصفي . وأصبح من مستلزمات الشعر خصوصاً أن مفاسد  
المجتمع قد كثرت وكان من بين هذه المفاسد اقتناء الفلانة . وقد اقتنى الصفي  
الكثير من الفلانة ، ويظهر لنا من شعره أن هؤلاء الفلانة كانوا يربون  
أحسن تربية ويعتنى بتثقيفهم وتعليمهم ، فيكون منهم فرسان وكتاب

وشعراء . وقد اهتم الصني بتربية غلمانه فكانوا مثل أولاده لا يموت أحدهم إلا ويرثه رثاءً حاراً ويحزن لفقده أشد الحزن . يقول :

لا عبد يغني عنه ولا ولد ما كل عبد عليه يمتد  
وكان يحب هؤلاء الغلمان حباً جماً ويصحبهم معه في كثير من رحلاته فقد أخبرنا في ديوانه أنه اتفق مع غلام أن يسافر معه إلى (ماردين) حين رحل عن العراق ولكن الغلام اعتذر عن ذلك فكتب إليه الصني قصيدة يذكره بذلك ويتنزل به مطلعها :

أذاب التير في كأس اللجين      رشا بالراح مخضوب اليدين  
وطاب على الصباح بكأس راح      فطافت مقلته بآخرين  
رخيم من بني الأعراب طفل      يجاذب خصره جبلي حنين  
... ..

ولم صيرت بعدك قيد قلبي      وكان جمال وجهك قد عيني ؟  
فصرنا نهبه (النسرَيْن) بعداً      وكنا ألفة كالفرقدين  
علمت بأن وعدك صار ميناً      لجزري مقلتيك بصارمين  
وقلت وقد رأيتك : خاب سعي      لكون البدر بين العقرين  
فلم وليتني بحبال زور      ولم أطمعتني بسراب مين  
وهلاً قلت لي قولاً صريحاً      فكان النع إحدى راحتين  
والصني لم يكتف بهذه النظرة نحو الغلمان : فكان يصرح لنا - أحياناً - بحب غير هذا الحب فهو يريد أن يترك حب المرأة ويكتفي بحب الغلمان إذ يقول :

خلياني من فترة النسوان      وانعشاني بنشطة الغلمان  
... ..

ويقول أيضاً :

في حب ذي القرطين يالأنمي      لي شاغل عن حب ذات الوشاح

وكان هناك من يقع في هوى أحد الغلمان فيسبح في عالم من الغرام المضي والمشق الخفيف فهذا عالم فاضل وشيخ جليل هو (مدرك بن علي الشيباني المغربي) ، أحب فتى نصرانياً حباً أودى بحياته . وقد نظم قصيدة مريمة فيها سائر عبادات النصارى ومواقبتهم وقرايبهم .... وقد سخط الصني هذه القصيدة بعد أن قال في سبب تسميته إياها : « ولما كنت قد وقعت في قريب مما وقع فيه الشيخ مدرك ... »<sup>(١)</sup> فهو يصرح لنا بأنه أحب غلاماً كما أحب الشيخ مدرك .

وقطع شعر الصني في هذا الغزل معظمها في غلمان مخصوصة بالأسماء والصفات ، فهناك ابراهيم ويوسف وأحمد ومحمد وموسى وسليمان وغيره . فليس من المعقول أن قلبه اهتز لهذا الحشد الكبير من الغلمان وغيرهم . وأرى أن هذا الشعر « أو أكثره » نظمه إجابة لطلب بعض إخوانه « كما فعل ذلك في الهجاء ، ونظم بعضه الآخر تقليداً لغيره من الشعراء لكي لا يخلو ديوانه من هذا الفن . ونظم البعض الآخر في المجالس للتندر والفكاهة . وربما كانت هناك مقطوعات تعبر عن شعور صادق نحو الغلمان الذين رباهم واعتنى بتثقيفهم وعاشوا في كنفه وبالقرب منه .

وهذا الغزل لا عاطفة فيه ، وليس فيه شيء من الجدة في المعاني . وكان الصني يستغل أسماء الغلمان فيقارن كل غلام بسميه من الأنبياء وغيرهم . فإذا تغزل بمن اسمه ابراهيم جاء بقصة النبي ابراهيم (عليه السلام) ونجاته من النار . فقال :

يا سليماً من داء قلبي السقيم ومقيماً على الوداد القديم

ويقول الوصال يا نار برداً وسلاماً كوني لابراهيم

يا سمي الذي فدى الله اكرا ما له نجمه بذبح عظيم

وإذا تغزل بغلام اسمه (علي) أتى بذكر الامام علي بن أبي طالب :

كيف حَلَّتْ يا-لي دي فيك وإني من شيمة الأنصار  
وتلا مرحباً فؤادي للقياس لك فَنابَت عيناك عن ذي الفقار  
وهكذا نجد عند الصفي من هذا الغزل ما يُلْذُّ الانسجام ولا يزعج القلوب لأنه  
يخلو مما في غزل النواصي وغيره من خلاعة ومجون .

## ٦ - الخمریات :

للصفي كثير من شعر الخمریات ■ ولم يكن هذا الشعر كله تقليداً فقط بل  
كان معظمه عن شعور وإحساس . فهو يشرب الخمر ويحضر مجالسها ، ويقول  
الشعر حين يحس بفشوتها . أجل ، لقد شرب الخمر لانتشارها في مجتمعه ■  
ولأنه كان جليس ملوك يحب عليه أن يسايرهم فيما يعملون . فوصف مجالسها  
كثيراً ■ وصفها وصفاً جميلاً دقيقاً ■ تناول فيه الخمر وأنواعها وشربها ومرضها  
بالماء وآنتيتها وأباريقها وما تعمر به المائدة من فاكهة شهية وطعام لذيذ وزهور  
جميلة وشموع مضيئة ■ وما يجب أن تضم هذه المجالس من مطربين ومطربات  
وندمان وغلمان . استمع إليه يصف أحد مجالسها يقول :

أزل بالخمر أدواء الخمار وعافر صفو عيشك بالعقار  
وجلسنا به ساقٍ صفيِّرٌ بحميننا بأقداح كبار  
وشادٍ قد حوى في الخدِّ منه كما في الكأس من ماء ونار  
وحضرتنا من الأزهار ملأى من الورد المسكّل بالبهار  
وراح في لجين الكأس تحكي بصفرة لونها لون النضار  
ويقول داعياً أحد أصحابه إلى مجلس يصفه بقوله :

فاسرع الخطوف فنندي شادنً وفتاة وخور وأمور  
وسقاة وحداة وغنا وجنوك وطبول وزمور



كلما درنا رأينا بيننا شادناً يشدو وكاسات تدور  
وربما تشدد فيما يجب أن يحفل به المجلس فجملة ثمانية أشياء هي :  
تصدقُ فانا ذا النهارَ بجلوة إذا زرتنا تمت لدينا المحاسن  
أوانٍ وساقٍ غيرُ وانٍ ومطربٌ وراح لها طيب السرور مقارن  
فان زرت مقننا تـكن أفت أولاً وعبدك ثانيها وشاد وشادن  
وخامسها الراوق والسكاس سادس وسابعها الابريق والعود ثامن  
فهو لا يشرب الخمر إلا بمجلس طاهر يحفل بالمآكل والمشارب والزيفات والندمان  
والطربين والأصدقاء .

ويحضر هذه المجالس في أماكن متنوعة : فتارة مع الملوك ، يسامرهم  
ويتحدث اليهم فيلتذون بحديثه ويمعجبون بصحة اطلاعه . ويصف مجالسهم ،  
كان في أحد مجالس الملك الصالح فوصفه بشعر يدعو فيه إلى الشراب مكوفاً  
من سبعة أبيات تنتهي بذكر اليوم وهو يوم السبت . وقد آلى على نفسه أن  
يكمل ذلك في جميع أيام الأسبوع :

ألا يا ملك العصر ويا نادرة الوقت  
ومن شرف قدر الدهر ت والعكرمي والتخت  
.....

وبادر — غير مأمو ر — وكن اللهم ذا مقت  
وزف الزاح لا زل ت سعيد الجد والبخت  
من السبت إلى السبت إلى السبت إلى السبت

وقال في يوم الأحد :

يا ملك العصر ومن الجـوده الغيث حسد  
.....

وواصل الشرب وقيل : أنجز حرّ ما وعد  
من الأحد إلى الأحد إلى الأحد إلى الأحد

وتارة يشربها في بيته ويصف مجلسه بالأنافة والكمال فما هو يدعو أحد  
أصدقائه إلى هذا المجلس :

فزرنا إن مجلسنا أنيق يكاد يعيد منظره الشبابا  
فولدان تريد هذا مداماً وغلمان تدبر هذا كتابا  
وقهوتنا من المطبوخ حلت إذا دُعي الفقيه لها أجا  
تجلت في الزجاج بغير خدر وصيرت الحباب لها نقابا  
وهو يشربها في تخيم بضربه خارج المدينة كما فعل ذلك في ظاهر ماردین ،  
ويوضح ذلك قوله داعياً أحد أصحابه :

أجلك أن يسخو الزمان وتبخل ويعدل فينا باللقاء فيعدل  
فان لم تزرنا والخيـام قريبة ولا ستر إلا (الأتحمي) (المدعبل)  
وليلة سعد يصطلى العود ربها سروراً وفي آنائها البدر يشغل  
أدار بها الولدان ككأساً روية وشمر منى فارط متهمل  
هذا هو الوصف المادي للمجلس الخمر ، وأما الوصف المعنوي فنراه يبين آثارها  
وفعلها في نفس شاربها « فهي مسلية مسرة :

فأهي إلا أصل كل مسرة فكم روتها وكم فرجت كربا  
وهي تفعل بالعقل ما يفعله النعاس بالأجفان :

خندريساً تكاد تفعل بالعقل فعل النعاس بالأجفان  
وهي تهز الأعطاف وتكسب الوجه حمرة جميلة :

مدامة أثرت في وجه شاربها أضعاف تأثير نور الشمس والقمر  
يسمى بها عمل الأعطاف يسعها بنشوة من سلاف الفنج والخور  
والصني يعرف ما يجب أن يتبع في هذه المجالس من شروط وطادات يقول :

كم عكفنا على المدامة يوماً إذ دعانا إلى المسرة داعي  
وخلونا بها باخوان صدق رؤساء الحديث والاستماع  
والتزمنا شروطها واتبعنا أدب الافتراق والاجتماع

طُجِتمنا لها على غير وعد واغترقنا منها بغير وداع  
طُلْدامة تدعوم إلى المسرة فيجتمعون إخوان صدق يدور بينهم الحديث  
ويستمعون إلى الغناء ويلتزمون الشروط الموضوعية للصمت والكلام والاجتماع  
والافتراق .

وأما ما يجب أن يكون عليه التذمان من خلق فيصفه الصفي بقوله :  
طلبت نديماً يوجد الراح راحة إذا الراح أودت بالكثير من العقل  
يشاركني في سرّها وسرورها فيعلو ويحمسو أو يكتب أو يعلو  
ويشربها بالكيف والأبن والتمت ويعرفها بالجنس والنوع والفعل  
ويمازج في وصف الخمرات وصف الطبيعة ومناظرها الفتانة في السماء يصف  
الظلام الدامس الذي تهتك الشموع حجمه :

وليلتنا شبّيه الصبح نوراً وقد عقد البخور لها ضباباً  
كأن ظلامها بالشمع فود وقد وخط القثير به فشاباً  
وحين يسهر حتى الفجر يصف لنا انبلاج الفجر ، ويوقظ من نام من أصحابه :  
هبوا فقد قدّ ذبل الليل من دبر ونبه الصبح شدو الورق في السحر  
وأقبل الصبح يدعو بالصباح لنا مناجياً بلسان الناي والوتر  
فاستيقظوا من ثياب السكر وابتدروا راحاً تريح من الأُحزان والفكر



وقد أفاد الصفي من خمرات أبي نواس ، فلا عجب فأبو نواس أستاذ الشعراء  
في هذا الفن « صحيح إن الكثير ممن سبقه من الشعراء قالوا في الخمر  
( كحسان ) و ( الأعشى ) و ( المنخل المشكري ) و ( الأخطل ) وغيرهم ،  
لكنهم لم يبلغوا ما بلغه النواسي في خمرياته من الجودة والكثرة « فقد اهتم  
بها كثيراً وسيطرت على حواسه وجود فيها لجمع في شعره من أوصافها ما  
يخطر على البال « وما لا يخطر « من الصور والمعاني والأخيلة . فصار الشعراء  
الذين جاءوا بعده يقلدونه جيماً في فنونه ويستعينون بمعانيه وصوره . ومنهم

صني الدين « فقد أفاد كثيراً من شعر أبي واقتبس من معانيه فثلاً قوله :  
بكأى لها أشخاص كسرى وقصر وقد أهدت من حولها الروم والفرس  
مأخوذ من بيت أبي نواس :

قرارتها كسرى وفي جنباتها مهى تدر بها بالقصي الفوارس<sup>(١)</sup>  
وهذه الصورة لا شك من صور أبي نواس وقد اقتبسها الصفي قائلاً :  
فرأينا في راحة البدر شمساً أطلمت في سما الكؤوس نجومها  
وقد أخذ الصفي بيت أبي نواس الذي يقول فيه :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمه تروني عظامي بعد موتي عروفا<sup>(٢)</sup>  
فوسعه الصفي وطوره فقال :

إذا مت فأنعني بخفق مثالت وصرخة ناي واصطفاق مزارس  
ولا تمقرني غير المقار لتنضحني ترى جدني من سيرها المتجاور  
وإذا تأملنا هذا البيت :

وانركا اليوم في مداي ملاي أن فرط الملام في ذاك يغري  
وجدنا أن معناه مأخوذ من النصف الأول من بيت أبي نواس المشهور :  
دع عنك لومي فان اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء<sup>(٣)</sup>  
وأما قول أبي نواس :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا<sup>(٤)</sup>  
وكما كان أبو نواس يفتنم الفرصة ولسان حاله يقول :

رأيت الليالي مرصديات لمدي فبادرت لذاتي مبادرة الدهر<sup>(٥)</sup>

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٩٥

(٢) نفس المرجع ص ٣٠٩

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٤

(٤) نفس المرجع ص ٢٤٤

(٥) نفس المرجع ص ٢٨٢

وجدنا هذا شائماً في شعر الصفي فكان مبدأ طاماً له . يقول :  
فانتبهز فرصة الزمان فليس المسره من جور صرفه في أمان  
أو يقول :

نب إلى اللذات فالعمر قصير وحياة المرء في الدنيا غرور  
لا تدع نهب سرور عاجلاً كلما أمكن في الدنيا سرور  
وقد كان أبو نواس يصطنع القصص في شعره . فيسير ليلاً يطرق أبواب  
الأديرة والحنانات بطلب الخمر :  
وخمارة للهو فيها بقيعة إليها ثلاثاً نحو خانتها مرناً (١)

... ..

ونجد مثل هذا عند الصفي ، فها هو يشرب الخمر حتى الفجر فتتضب زجاجته  
ويضطر إلى الخروج بحثاً عن خمرة جديدة فيسير إلى حانة ويطرق بابها فيفخر  
صاحبها ويمطيه الخمر الممتقة :

شعشتها فأضاء الشرق منبلجاً	بها وقام لها الحرباء منتصباً
حتى إذا أعلت منها زجاجتنا	وظل منها غدير الدن قد نضبا
نبتت راهب دير كان يؤنسنا	ترجيمة الصوت إن صلى وإن خطبا
بادرته وقرعت الباب واحدة	قرعاً توهم من إخفائه الأدبا
فقام يسحب برديه على مهل	فما استشاط بنا خوفاً ولا رعباً
وجاء يسأل عما ليس ينكره	عما نروم ولكن يثبت الطلبا
فقلت : ضيف ملى غير ذي طمع	بالزاد لكنه يرضى بما شربا
فأطلق الباب إذناً في الدخول لنا	وقال : هذا علينا بعض ما وجبا
وجاءنا بسلاف نشرها عبق	شمطاء قد عتقت في دنها حقبا

... ..

وهناك فروق بين مخريات الصفي ومخريات أبي نواس :

فقد كان أبو نواس يتهافت على الخمر ويتهاك على لذتها ، ويحبها حباً يكاد يصل إلى التقديس والعبادة فهو يقول فيها :

أئن على الخمر بالآثامها      وسمها أحسن أسمائها<sup>(١)</sup>  
أما صني الدين فلم يكن كذلك ، فهو يشربها لأنها مسرة مسلية :  
فما هي إلا أصل كل مسرة      فكم رَوحتَهما وكم فرجتَ كربا  
وهو يشربها باعتدال :

إن شئت أن أشرب الكثير من الراح      نهاني الوطار والأدب  
فهو بعكس أبي نواس الذي يشربها بنهم عجيب وشراهة غريبة :

فعميش الفتى في سكرة بعد سكرة      فان طال هذا عنده قصر الدهر<sup>(٢)</sup>  
ويشرب النواصي الخمر بمجون وخلاعة وكفر ولا تحلوه بدون ذلك :

فلا خير في فتك بغير مجانة      ولا في مجون ليس يتبعه كفر<sup>(٣)</sup>  
دون أن يبالي بحلال أو حرام ، في حين أن الصني لا يشربها إلا بعد أن يعطل تحليلها ويتعلق به ، ولا يشربها في رمضان لأنه يرى أن ذلك محرم عليه :  
قلت : شهر الصيام أقبل والشرب      ولو في دجاء - عندي - حرام

ولكن أبا نواس يضيق ذرعاً في رمضان ويتم به ، ويزعم أنه أطول من غيره من الشهور ويومه أطول من الأيام الأخرى ، لأنه قد منع من شربها فيه . وبحسبه كالسجن .

منع الصوم العقارا      وزوى الله - وفصا - را  
وبعثنا في سجون الصو      م لام - - - م أس - - - اري<sup>(٤)</sup>  
وما يكاد يخيم الليل حتى ينطلق النواصي من تلك القيود فيشربها بشره :  
غير أنا من - - - داري      فيه من ليس يداري

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٣٩

(٢) نفس المرجع ص ٢٧٣

(٣) نفس المرجع ص ٢٧٣

(٤) نفس المرجع ص ٢٨٧

نشرب الليل إلى الصب مع صفاراً وكباراً  
 وتظهر في شعر أبي نواس آثار الشموية والدعوة لها . فهو فارسي يحاول أن  
 يحط من قدر العرب فيصطنع لذلك شتى الأسباب :  
 عاج الشقي على رسم يسائه وعجبت أسأل عن خماره البلد  
 ومن نعيم ومن قيس ولغها ليس الأعراب عند الله من أحد<sup>(١)</sup>  
 ولا يمكن أن نجد هذه الروح عند الصفي العربي . وهو لم يتطرق إلى العرب  
 وغيرهم أو إلى السياسة في خمرياته ، في حين أن أبا نواس تطرق إلى ذلك  
 وناقض آراء المذاهب السياسية والدينية . فهو يقول للنظام :  
 فقل لمن يدعي في العلم معرفة : حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء<sup>(٢)</sup>  
 ورأينا من تأثير أبي نواس في الصفي في الدعوة إلى التجديد ، أنه لم يبدأ  
 واحدة من قصائده بوصف الأطلال أو البكاء على الدمن وإنما بدأها بالغزل  
 أو ذكر الخمر أو وصف الطبيعة :

## ٧ - الطرديات :

كان لاهتمام الصفي بالصيد منذ صباه أن وجد له شعر كثير فيه . وقد  
 أفرد له فصلاً خاصاً في ديوانه . وشعر الصيد عنده أما مسمطات وأما  
 أراجيز . فأما المسمطات فهي ( ثلاث ) وأما الأراجيز فهي ( تسع ) أراجيز  
 طويلة و ( ست ) مقطوعات .

وقد وجد الرجز منذ العصر الجاهلي إذ كان ثانياً للشعر ، وكان الفن الشعبي  
 الذي يعتمد عليه العرب في القتال والتزال . وفي الحداة والاستقاء على الآبار

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٦٦

(٢) نفس المرجع ص ٢٣٥

وغير ذلك من الأهمال . وهو يمتاز عن الشعر بوزنه الخاص فالتام منه ( مستغفلن ) ست مرات ، وقافيته التي لا تلتزم في القصيدة كلها ويجب أن تكون قصيدته فردية الأبيات وذلك ليثبتوا أنهم لا يتقيدون بالقافية . وقد كان الرجز في الجاهلية مقطوعات قصار لم تبلغ أكثر من خمسة أبيات ، أما في العصر الإسلامي فقد زاد الاهتمام به وصار فناً شامياً يتغنى به الممالي والمخاربون وغيرهم ، وصارت العناية به تزداد ، وقيل فيه أكثر أغراض الشعر وبخاصة الهجاء حتى كاد أن يتخصص به . وفي العصر العباسي أصبح الرجز أداة للوصف والصيد . فحين صار الصيد فناً من فنون الترف واللهو أكثر الشعراء من نظمه رجزاً للسهولة التي يتخففون بها من القافية التي تلتزم في الشعر والسهولة وزنه <sup>(١)</sup> . وهناك من يعتبر الرجز من فنون الشعر فهو قصيد أيضاً . وهناك من يقول إنه فن آخر غير القصيدة . وقد سئل ( الخليل بن أحمد ) عن ذلك فقال بالرأيين . ويظهر أنه يرى أن الرجز إذا كان تاماً من الوجهة العروضية - أي تام الوزن وليس فيه حذف أو نقص في التفعيلات - فهو قصيد أما إذا كان غير تام العروض كالمجزوء والمنبهوك كقوله : « أنا النبي لا كذب » وما شاكل ذلك فهو ليس من الشعر <sup>(٢)</sup> .

وقد برع الصنفي في طردياته براعة تامة . فكان يصف كل شيء من أدوات الصيد وحيواناته ومواقفه ، فهو يصف صناعة القوس وصفاً دقيقاً إذ يقول :

ومدٌ للصنعة كفاً واحداً      منزهاً عن الفساد والغلط  
وظل يستقرى جمال عودها      فنبر الأطراف واختار الوسط  
وجود التدقيق في لحامها      فأسقط الكرشات منها والسقط

(١) محاضرات الدكتور طه حسين على طبعة اللسانس بكلية الآداب - قسم اللغة العربية - جامعة القاهرة سنة ١٩٥٢  
(٢) لسان العرب لابن منظور مادة ( رجز )



ولم يزل يبلغها مراتباً تلزم في صنعه وتضطرط  
فمنـدا أفضت إلى تطهيرها صحح دارات البيوت والنقط  
حتى إذا عتقها بدهنها جاءت من الصحة في أحلى نعط  
وعندما يصف البندق واندفاعه نحو العير بسرعة فائقة يشبه بحامل السكره  
والحقده على الأطيـار :

وبندق معتدل المقدار كأنما قُسمَ بالعمار  
قد حمل الحقده على الأطيـار فهو إذا انقض من الأوتار  
يرى فناء الطير فرضاً واجباً

وقد وصف الصني حيوانات الصيد كلها وصور لها مشاهد تصطرع فيها مع  
فريستها ، فلم تفته صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها . فها هو يصف يوماً قضاءه  
في صيد النعام بقوله :

عن لنا سرب من النعام مشرقة الأعناق كالأعلام  
فاغرة الأفواه للبيـام كأيـنق فرّت من الزمام  
وحش على مثنى من الأقدام بالطير تدعى وهي كالأنعام

.....

ويصف الطريقة التي يصطاد بها الفهد فريسته ، فيخاثلها ثم يفاجئها منقضاً  
عليها :

نخاثل السرب بغير وقصٍ منخفضاً للختل أي خفضٍ  
مصاحفاً بالبطن ظهر الأرض يجسها بالكف جس النبض  
حتى إذا أمكن قرب البعض طاجلها كالكوكب المنقض  
فعاثق الأكبر عند النهض عناق ذي حبٍ لبٍ بغضٍ

ويصف كلاب الصيد بصفاتھا الخاصة فيقول :

وأهرت من الكلاب أخطلي أصفر مصقول الالهاب أشعل  
أعصم مثل الفرس المحجل بخال مرحوضاً وإن لم يفسل

مختصر السلول ثقيل الحمل      منفسح الهامة فاني المقل  
مهضم الخصر عريض الكفل      ذى أبطل خالٍ ومتن ممتلي  
خصيب أعلى المضب فخل الأسفل      قصير عظم الماعد المقتل  
مقصر الأيدي طويل الأرجل      مزدهم الأنظار ثبت المضل  
ذي ذنب سبط قصير أفتل      أسلس من دفته كالمزحل

فهو يصفه بالصفات التي تشتط فيه عند العرب ليكون صالحاً للصيد ، فان العرب ( يصفونه بأن يكون صغير الرأس طويل العنق « بارز الحدة واسع الشدين فاني الجبهة عريضا وأن يكون الشعر الذي تحت حنكه كأنه طاقة .. ويكون قصير اليدين طويل الرجلين لأنه إذا كان كذلك كان أسرع في الصمود بمنزلة الأرنب . قالوا : ولا يكاد يلحق الأرنب في الصمود إلا كل كلب قصير اليدين طويل الرجلين » (١) .

ووصف الصفي طيور الصيد فأجاد ذلك « فحين يصف البازي يقول :

غليظ خط الجؤجؤ المنكب      ذي عنق خصب ورأس أحذب  
قصير عظم الساق ثبت الركب      قليل ريش الصفحتين أربع  
نامي الجناحين قصير الذنب      عيونه مثل الجمان المذهب

وواضح أنه يصفه وصفاً دقيقاً « فيصف شكله العام ويصف أعضائه كلها وما تمتاز به . وصفات الصقر كصفات البازي سواء بسواء .

ويصف الطبيعة في طرياقه وما حوله من مناظر . فالفجر وطلوع النهار عليهم وهم منهكون في الصيد بصوره قائلاً :

ورب يوم أدكن المقام      بمنزج الضياء بالظلام  
سرنا به لقنص الآرام      والصبح قد طوح بالثام  
كراقد هب من المنام      بضمير طامية الحوام

ولا ينسى أن يصف الخيل التي يمتطي « وصحبته » صهواتها في هذه الرحلات  
الجميلة :

ولقد أروح إلى القنيس وأغتدي في متن أدم كالظلام عجّل  
رام الصباح من الدجى استنفاه حسداً فلم يظفر بغير الأرجل  
أو يقول :

وغادية إلى الفارات صباحاً تريك لقدح حافرهما التهابا  
كأن الصبح ألبسها حبولاً وجنح الليل قصّها إهابا  
جواد في الجبال تحال وعلاً وفي الفلوات تحسبها عقابا  
إذا ما سابقتها الريح فرّت وأبقت في يد الريح الزبابا  
وقد ينتهي من طردياته إلى مدح أحد السلاطين كما في مسمطته التي مطلعها :  
دارت على الراح سلاف القطر فرنحت أعطافه بالسكر  
ونبه الورق نسيم الفجر ففردت فوق الغصون الخضر  
تغني عن العود وصوت الزمر

فانتهي إلى مدح الملك المنصور قائلاً :

نجم به الأنام تستدلّ من عزّ في حماه لا يذلّ  
في القرّ شمس والمصيف ظلّ وبلّ على العفافة مستهلّ  
أغنى الأنام من هتون القطر

\*\*\*

وكان لأبي نواس القدح العملي في هذا الفن « لأنه كان قد لعب بالكلاب  
زماناً وعرف ما لا تعرفه الأعراب »<sup>(١)</sup> في ديوانه أربعون أرجوزة في  
الطرديات وصف فيها الحيوانات المختلفة وصفاً دقيقاً جليلاً . وقد التزم ما التزمه  
العرب من مميزات فن الرجز مما وجدناه عند صفي الدين أيضاً . غير أننا نجد  
أن أبا نواس اهتم بكلاب الصيد أكثر من غيرها من الحيوانات وقد وصفها

في ٢٨ أرجوزة ، أي بأكثر من نصف أراجيزه . وبهذا فهو يختلف عن الصني الذي وزع أراجيزه على الحيوانات المختلفة . ووصف كلاب الصيد في أرجوزة واحدة وفي كل شيء حقه من صفات الكلب . لكن أبو نواس كان أوسع أفقاً وأكثر اطلاعاً فتنوع وصفه وتنوع وشمل كل شيء فهو يقول :

أنت كلباً أهله من كدّه      قد سمعت جدودهم بمجده  
وكل خير عندهم من عنده      يظل مولاه له كمبده  
يبيت أذن صاحب من مبهده      وإن عرى حمله بربه  
ذا غرة مجلاً بزده      تلذ منه العين حسن فده  
تأخير شذقيه وطول خده      تلقى الظباء غنتاً من طرده<sup>(١)</sup>

فهو هنا يصف جمال الكلب واهتمام أصحابه به حتى أنهم يفتونهم ببردته إذا ما عري لأن رزقهم من كدده وتعبه . وقد وصف أبو نواس الفهد فقال :  
فجاء يزجيه على سمنده      أصغر أحوى بين بين ورده  
وامتد للناظر في مراده      كوكب عفريت هوى لعهده  
كما انطوى العاقد من ذي عقده      خمسين طاماً بيدي معتهده  
حتى احتوى العين ولما يرده      فنحن أضياف حسامي غمده  
فيما اشتبهنا من ذوات طرده<sup>(٢)</sup>

فهذه الصورة للفهد حين ينقض على فريسته مشابهة للصورة التي رأيناها عند الصني وليس ببعيد أن يكون الصني قد تأثر بها .

ولم ينظم أبو نواس في طردياته غير الأراجيز في حين أن الصني نظم ثلاث مسطعات طوال كالتي مطلعها :

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٠٦

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

أما ترى الأنواء والسحابا قد أصبحت في مدحها سكايا  
فاكتست الأرض بها جلايا فأظهرت أزهارها عجائبا  
غرائباً أضحت لها رغائباً

وقد وصف أبو نواس حيوانات لم يصفها الصفي ولم يتعرض لها كالديك والحمام  
وغيره . وقد مدح الصفي في بعض طردياته الملوك والسلاطين ووصف الطبيعة  
في حين اختص أبو نواس فيها على الصيد ووصف الحيوان فحسب .  
وقد امتلأت طرديات أبي نواس بالألفاظ الغريبة التي لا تكاد توجد في  
طرديات صفي الدين إلا نادراً .

## ٨ - الوصف :

ذلك الجمال الطبيعي الأخاذ ، وتلك المناظر السحرية الفاتنة التي عاش الصفي  
متنقلاً بينها في الحلة وماردين وحماسة وحلب والقاهرة أثرت في نفسه وفي  
حسه وفي شاعريته . وجعلته يمشق الطبيعة ويفتقن بسحرها وجمالها ، وينبغي  
أطيافها الصداحة . ويتنزل بأزهارها الفواحة . وكان له حس مرهف في  
الدخول إلى أدق سمات الجمال في كل ما يوجد حوله ، مما تقع عليه الحواس  
ويدركه الفكر . فاذا رأى جالاً اندمج معه وطاش فيه . وانصل الجمال  
بوجدانه وقاض على شعوره . وبدأ في تحليل مشاعره وأحاسيسه منفصلاً انفصلاً  
صادقاً ، فاذا ما تم انفعاله عبر عن ذلك بشعر جميل رتب فيه المعاني ونسق  
الأساليب . ونسق الصور ونحير الألفاظ . لهذا كان عند الصفي وصف  
كثير . فقد وصف كل شيء جميل . وكل ما وقعت عليه عينه ، وصف  
الطبيعة بأشجارها وأنهارها ووديانها ورياضها وأزهارها وأثمارها ونسيمها  
وأطيافها . ولم يدع شيئاً إلا تغفل إلى دقائق صفاته وغوامض ميزات .  
فحين وصف الحلة اهتز قلبه بحبها فقال :

ما حلة ابن ديس      إلا كحصن حصين  
للقلب فيها قرار      وقرة للميون  
إن أصبح الماء غوراً      جاءت بماء معين  
وحولها سور طين      كأنه طور سين

ووصف وادياً بالفرس فأعجب بظلاله الوارفة وهوامه الليل :

لله وادي الفرس حين حللته      زمناً كان العيش فيه منام  
وادي حريري الرياض فكم به      من حارث يغدو به وهام  
يمتد أودية الظلال فقمره      ياكي الميون وثغره بسام  
فالشمس فيه مدى النهار فطيمة      والظل ككل والنسيم غلام  
ويصف الزهور فيحيط بأنواعها جميعاً ولا يفوته شيء . ويمطي كل نوع  
صفاته الخاصة به :

( والورد ) في أعلى الفصون كأنه      ملك تحف به سراة جنوده  
وكأنما ( القداح ) سمط لآليهم      هو للقضيب قلادة في جيده  
( الياسمين ) كماشق قدشفه      جور الحبيب بهجره وصدوده  
وانظر ( لترجسه ) الشهي كأنه      طرف تنبه بعد طول هجوده  
واعجب ( لآذريونه ) ( وبهاره )      كالتبر يزهي باختلاف نقوده

... ..

ورغم هذا العمول في وصفه اسكل ما يقع حوله فهو يمتاز بالدقة والاستقصاء  
فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة من صفات موصوفه إلا ويشير إليها . فحين يصف  
الطبيعة في الربيع لا يغيب عن باله أن يرحب معه بالورد والأزهار ، ووحسن  
المنظر وطيب الهواء . وجمال الألوان وروعته . ولا ينسى أن هذا الفصل  
لما فيه من حسن يفخر به الزمان . وأن النسيم هو علاج للمزاج ... إلى آخر  
ذلك مما يتنبه الانسان وما لا يتنبه له :

ورد الربيع فرحاً بوروده      وبشور بهجته ونور وروده

وبحسن منظره وطيب نسيمه وأنيق ملبسه ووشي بروده  
فصل إذا افتخر الزمان فانه إنسان مقلته وبیت قصيده  
ينفي المزاج عن العلاج نسيمه بالطف عند هبوه وركوده  
يا حبذا أزهاره وثماره ونبات ناجمه وحب حصيده  
... ..

وإذا وصف النرجس لم يرض بتشبيه العيون به وعد ذلك خطأ وقارن بين العين  
وزهرة النرجس قائلاً :

أمشبه الطرف الكحيل بنرجس بمد القياس وذاك من أضداده  
نافاه في تدويره وصفاره وجحوظ مقلته وفرط سهاده  
فأعجب لهر (الباقلاء) وقد بدا فوق القضيب عيس في أبراده  
يحكي عيون الحين في تلويزه وفتوره وبياضه وسواده

والصني بهم في وصفه بتجسيم الصورة وتشخيصها ، وإبرازها أمام السامع  
واضحة المعاني حية ملموسة ، ويكسبها حركة لا بد منها « يصف زهر النيلوفر  
فيقول :

وبركة نيلوفر زهرها ثنى جيد في الدجى واحتجب  
فذلح وجه حبيبي له وشاهد أنواره كاللهب  
توهمه الشمس قد أشرقت فقام على سوقه وانتصب

فأزهر يثني جيدته ويحسن ، فهو محتجب عندما يرى وجهاً جميلاً ، ولكنه  
حين يرى النور يظنه نور الشمس فينتصب قائماً لاستقبالها ليتزود منها بالدفء  
والحياة .

وأما زهر النرجس فله وجوه ناظرة وعيون محدقة :

وللنرجس الغض ما بيننا وجوه بمحضرتنا فاضرة  
كأن تمدق أزهارها عيون إلى ربها ناظرة

وربما جميل لصورته هذه أشخاصاً تتحدث بموار عذب جميل فيقول :

قال الحيا للنسيم لما ظل به الزهر في اشتغال  
وضاع نشر الرياض حتى تمطرت برودة الشمال :  
أما ترى الأرض كيف تثقي عليّ منها لسان حالي ؟  
فأعجب لأقرارها بفضلي وسكرها بي وشكرها لي

وهو يبدع في إيجاد الصور الفنية واللوحات الرائعة التي تصور انبلاج الفجر  
وانبثاق نور الصباح . يقول :

فيروزج الصبح أم ياقوتة الغسق بدت فهـيجت الورقاء في الورق  
أم صارم الشرق لما لاح مخضباً كما بدا السيف محترأً من العلق  
ومالت القضب إذ مرّ النسيم بها سكرى كما نُبّه الاثنان من أرق  
فهنأ نشاهد تلمبه الورقاء حين يهب النسيم على الأغصان فتميل كأنها ثملة وذلك  
عند الفجر .

ويقول كذلك :

نمّ بسر الروض خفق الرياح واقتدح الشرق زناد الصباح  
وأخجل الورد شعاع الضحى وابتسمت منه ثغور الأفاح  
وقام في الدوح لنمي الدجى همائم تطربنا بالصياح  
مذ وُلدَ الصبح ومات الدجى صاحت فلم تدرِ غنى أم نواح

فنشاهد هنا كيف تحركت الأطيّار عندما ظهر ضوء الفجر فقرحت له وبدأت  
تفرد بألحانها العذبة وكيف ابتسمت ثغور الازهار ودبت الحياة في كل شيء .  
وكم شهدنا من حفلات راقصة جميلة ، تفرد فيها الطيور بأعذب الألحان  
فتراقص على فروع الدوح وأغصان الشجر :

والظلّ يسرق في الجمائل خطوه والغصن يخطر خطرة المشوان  
وكأنما الأغصان سوق رواقص قد قيدت بسلاسل الرياح  
والشمس تنظر من خلال فروعها نحو الحداثات نظرة الغيران



فهذه حفلة من حفلات الطبيعة البهيجة « ومهرجان من مهرجانات الرياض الجميلة يتحرك فيه كل شيء ، فالظل يسير بين الأشجار والأغصان تتمايل سكرى على الدوح كأنها الراقصات الجميلات ، وحتى الشمس تنظر من خلال الأشجار وتمجّب بهذا المنظر .

ولكننا قد نستمع إلى غير هذا الحفل المفرح ، فقد نسمع ندباً وعويلًا ونواحًا محزنًا من الطبيعة أيضًا « يقول :

والأرض تمجّب كيف تضحك والحبيا يبكي بدمع دائم الهملان  
حتى إذا افترت مباسم زهرها وبكى السحاب بدمع هتان  
أو يقول :

والسحب تبكي وثغر البر مبتسم والطير تسجع من تيه ومن شبق  
نشاهد هنا السحب تبكي فينزل المطر غزيراً كأنه الدمع الهتون .

وليست الحركة فقط ما يعتمد عليه الصفي في تجميل صورته وإنما يستعين باللون « فها هو يبين لنا ألوان الزهور وصفات أشكال لتلك الألوان :

وقد بدا الورد مفتحاً مباسمه والترجس الفض فيها شاخص الحديق  
من أحمر ساطع أو خضر نضر أو أصفر فاقع أو أبيض يقق  
ومثل ذلك قوله :

وتنوعت بسط الرياض فزهرها متباين الأشكال والألوان  
من أبيض يقق وأصفر فاقع أو أزرق صاف وأحمر ثاني  
وقد يستعين باللون في الأغراض الأخرى فها هو يقول في بيته  
المشهور :

بيض صائغنا سود وقائمنا خضر مرابنا حمر مواضينا  
فهو يلون كل شيء بلونه الذي يدل على عظيمته وعلو منزلته .

## ٩ - القصيدة الساسانية :

بنو ساسان هم المسكدون والشحاذون ، ويسمون بهذا الاسم نسبة إلى شيخهم الأول ورئيسهم ( ساسان ) ، وهو رجل فارسي فقير حاذق في الاستمطاء دقيق الحيلة في الاستجداء<sup>(١)</sup> . وقد تنوعت الروايات التي تحدثت عنه وعن أصله واختلفت . فيقال إنه كان ملكاً واغتصب الملك منه ( دارا ) فهام على وجهه محترفاً الكدية<sup>(٢)</sup> . ويقال إن أباه طرده بعد أن رأى أنه لا يصلح للملك فعاشر مع الشحاذين والمكدين ، وابتكر الحيل المعجبية في هذا الباب . ويقال إن هذه النسبة ليست حقيقية وإنما هي من باب التحقير لجد ( الساسانيين ) بعد زوال دولتهم الفارسية التي أسسها ( أردشير بن بابك ) والتي عبقها الاسلام ، وبقي من أطرافها أفراد أذلاء سقطوا في أسنة فتیان المسلمين فكانوا يطردونهم من مكان إلى آخر ، فبعد أن كانت نسبتهم إلى ( ساسان ) تشير إلى المجد والرفعة أصبحت تشير إلى القذف والسب<sup>(٣)</sup> . ولا يعني أن يكون هذا هو الصواب أو ذاك ، وإنما الذي يعني أن أخبار المكدين انتشرت في القرن الرابع انتشاراً واسعاً ، وصار الشعراء والكتاب يهتمون بها ويروون نوادرهم وقصصهم ، وينظمون فيهم وفي حيلهم القصائد الطوال ، ويسمونهم الساسانيين .

وقد كان بدیع الزمان الهمداني يعتبر من أوائل المهتمين بأخبار الساسانيين المكدين في مقاماته ، فقد تحدث عنهم طويلاً في عدة مقامات . ( كالرصافية ) التي يصور فيها أحوالهم وحيلهم ، و ( الدينارية ) التي يعطينا فيها صوراً عجيبية لألقابهم وشتائمهم ، وهناك مقامة سماها ( الساسانية ) يذكر فيها طرق الشحاذة عندهم .

(١) مقامات الهمداني ص ٨٩ — هامش .

(٢) الفن ومذهبه في النثر العربي للدكتور شوقي ضيف ص ٢١٦ .

(٣) مقامات الهمداني ص ٨٩ — هامش .

وربما كانت الفكرة الأولى في هذا الأدب قد نبئت في عصر الجاحظ  
فقد ذكرهم في كتابه (البخلاء) في الحديث عن (خالد بن يزيد) : « قالوا  
انك لتعرف المكدين . قال : وكيف لا أعرفهم وأنا كنت كالخان في حدائنه  
سني ثم لم يبق في الأرض مخطراني ولا مستعرض إلا قضيته . . »<sup>(١)</sup> ويستمر  
في سرد طرقهم وحيلهم وأسمائهم ، إلا أنه لا يسميهم باسم الساسانيين .

ثم جاء بعد (الجاحظ) من توسع فيهم كما نجد عند (البيهقي) إذ نقل  
الكثير من أخبارهم ثم توسع في ذكر أفعالهم ونوادرهم<sup>(٢)</sup> . ثم جاء الشاعر  
(الأخف المكي) فنظم قصيدته الدالية في وصف المكدين وبيان حيلهم  
وطرق مبيشتهم وأحوالهم . وقد عارضه في هذه القصيدة (الشاعر أبو  
دلف الخزرجي) بقصيدة طويلة . وكان أبو دلف يحفظ الكثير من أخبار  
الساسانيين ونوادرهم ، وكذلك كان (الصاحب بن عباد) ، وربما كان هذا  
من أسباب إعجاب الصاحب بن عباد بأبي دلف الخزرجي<sup>(٣)</sup> .

وقد ظلت أخبار المكدين تشغل بال الأدباء والشعراء والظرفاء حتى عصر  
الصفي فنظم الصفي قصيدته المعروفة بهذا الاسم ، لكنه نظمها بلغة مزج فيها  
بين الألفاظ العربية والألفاظ الفارسية الساسانية ، وهذه القصيدة تبلغ خمسة  
وسبعين بيتاً يبدأها بقوله :

بقربخ ادصماني وتربخ مشتاني      غدت سائر الأخشان والفرس تخشاني  
خفت دوانيك المراكيس كلها      فشخمني من كان من قبل داصاني  
وها برتهم فيما استكافوا بفيضهم      وبالقمج من تبك ومرد ومرقات

وسبب نظم هذه القصيدة - كما يقول الصفي ذلك في الديوان - أن أحد

(١) البخلاء للجاحظ ص ٤٧ .

(٢) الحضارة الإسلامية لادم متز ص ٣٤٧ .

(٣) قيمة الدهر للشعالي ج ٣ ص ١٧٥ .

أصدقائه رغب في أن يجمع له لغة الغرباء وفنونهم وحيلهم ومعائشهم في قصيدة ،  
 فرأى أن يجمعها في بني ساسان وقد قال في مقدمتها « لما أطلقت عنان  
 أسفاري ، وإن بمد التحجب إسفاري » طفقت أجوب البلاد وأسبر أحوال  
 المباد « فلم أجد في طوائف الناس ، على اختلاف الأجناس ، طائفة قليلة  
 السكف كثيرة التحف ، آمنة عواقب التلف ، كطائفة تجار اللسان وورثة  
 ملك ساسان ... » <sup>(١)</sup> ويذكر أيضاً أنه مطلع على أحوالهم عارف بأمرهم  
 بالرغم أنه لم يكن منهم يقول : « وكنت مولماً بكشف حقائقهم واقتباس  
 دقائقهم » غير أنني لم أنتظم في سلكهم ولم أشاركهم في ملكهم ، مع أنني  
 كنت أنقل من (الهاذور) من شيخهم (ساسان) في علمهم وعملهم واصطلاحهم  
 وحيلهم « ما لم يحيطوا به خبراً ولم يستطيعوا عن سماعه صبراً » . وأما سبب  
 منحه ألفاظ هذه القصيدة بين الفارسية الساسانية والعربية فقد بينه قائلاً :  
 « وأن أجعل ألفاظها بلغتهم كي لا تعلم العامة حقائقهم » وتسلك الأخشان  
 - العامة - طرائقهم .

وقد شُرحت ألفاظ هذه القصيدة في نسختين من النسخ الخطية الموجودة  
 في دار الكتب المصرية « فاستطعت أن أقف على معانيها وأعرف الأخبار  
 التي غني الصفي بها عن هذه الطائفة الظريفة .

ويحدثنا الصفي عن السكدين واحترامهم لمن ينتسب إلى شيخهم الأول  
 وكيف أنهم يتجمعون حوله حين يروونه ويؤدون له واجبات التعظيم والاكبار ،  
 وكيف أن من عادات هؤلاء السكدين أن يظهر أحدهم مرة محترماً كامل اللباس  
 فيجلبه الأمراء والعظماء والحكام ، لكنه يظهر ساعة العمل فيبدو مهلهل اللباس  
 أغبر الخلقة شقيان « يرتعي بجوار جامع أو مسجد . وهو طوراً يظهر الصيام  
 والجوع للحاجة والموز . وطوراً يولع بالسكر ومجالسه والغلمان ومعاشرتهم .  
 وطوراً يسلب أموال العامة وينهبها . والصفي يعرض علينا في هذه القصيدة

من حيل هؤلاء العجب العجاب ، فمنهم من يتظاهر بأنه مكسح أو أقطع أو مريض أو أعمى ، ومنهم من يحتال ببيع الأدوية والمقابر ، ومنهم من يبيع الطلاسم والأدعية والتماويز ومنهم من يمكس الأفاعي والحيات إلى آخر هذه الطرق المجيبة والحيل الغريبة .

وفي قصيدة الصفي هذه شيء من المعاني والصور التي وردت في قصيدة ( أبي دلف الخزرجي ) ، فربما كان الصفي متأثراً بها ولكن قصيدته تخلو من المجون في حين امتلأت قصيدة أبي دلف الخزرجي به .  
ولا شك أن صفي الدين قد أبدع في تصوير هذه الطائفة وبيان أحوالهم ومظاهر حياتهم الاجتماعية .

## ١٠ - الأغراض الأخرى :

لم يترك الصفي غرضاً من أغراض الشعر ، فقد كان لا يريد أن يخلو ديوانه من أحد فنون الشعر ، فبالإضافة إلى الأغراض التي تحدثنا عنها سابقاً هناك أغراض أخرى .

فهناك الشكوى والعتاب ، وأكثر هذا الفن مقطوعات من شعر جيد يعاتب به السلاطين إذا لحقه ضرر ولم يسرعوا لرفعه عنه ، ويعاتب أصدقائه إذا ما بدر منهم شيء نحوه ، ويعاتب جيرانه إذا جفوه ولم يزوروه ، ويشكو عدم وفائهم وجفاءهم :

لما رأيتُ بني الزمان وما بهم خلٌّ وفيّ للشدائد أصطفي  
أيقنت أن المستحيل ثلاثة الغول والمنعاه والخل الوفي  
وهو في شعره هذا منطقي يورد الأسباب ويعدد المسببات ويكثر من ذكر الحجج والبراهين ويستعمل الطرق الجدلية للاقتناع . قال يعاتب جاره :

لا يؤخذ الجار في الاعراض بالجار إن دام وهو على رسل الهوى جاري  
على ذوي الودّ بالحسنى بأنفسهم وما عليهم بفعل الغير من طار  
فكيف ألحقتهم فعل المدة بنا لقرب دارهم ، بالرغم ، من داري  
ولم عذبتهم بنا ما قال ضدكم عنكم وإن قلته من غير إثاري  
كما سمعت بصوت النار في حطب والصوت للريح ليس الصوت للنار  
فهو يطلب من جاره أن يترث في حكمه فرمما كان ما سمعه عنه غير صحيح  
ويستدل على ذلك بالصوت الذي يخرج عند اندلاع النار وهو في الحقيقة  
صوت الريح وليس بصوت النار .



وهناك شعر الهجاء ، وهو عبارة عن مقطوعات قصيرة نظمها تقليداً  
للشعراء . فقد قال في بداية هذا الفصل إنه نظمها بناءً على اقتراح أفاضل  
أصحابه . وهو في كل قطعة يقول : « وطلب إليّ ذلك » ، أو يقول :  
« وطلب إليه هجاء كذا » . ويستعمل في هذا الهجاء الصور السريعة الخاطفة  
والفكاهة العابرة والسخرية اللاذعة . مثل هجاء مغنٍ فقال :

وشادٍ يشقت شمل الطرب يعيت السرور ويحيي الكرب  
بوجه بعيد إذا ما بدا وكف يضرب إذا ما ضرب  
شدا فغدا كل قلب به قليل النصب كثير النصب  
تفتى فتى قلوب الرفاق وماس فس قلوب العطب



وهناك شعر الزهد والتصوف ، ويدعو فيه إلى التوبة وعمل الخير ،  
ويذكر أن الله تواب رحيم عفو غفير ، ويوصي بتقوى الله وإطاعة أوامره  
والتوبة إليه لغفران الذنوب :

تب ونب وادعُ ذا الجلال يصدق نجى الله للداء سميما  
لا تخف مع رجاء ربك ذنباً إنه يغفر الذنوب جميعا

وهو يستغفر الله مملئاً التوبة طالباً الرحمة كما كانت يفعل أبو نواس في  
أواخر حياته :

يا ربّ ذنبي عظيم وأنت عني حلّيم  
بل غرني منك وعد له الأنام تروم  
إذ قلت في الذكر للمصطفى وأنت كريم :  
نبيّ عبادي أني أنا الغفور الرحيم  
وقال أيضاً في هذا الشعر غزلاً يشبه غزل المتصوفة في الحب الالهي فيتغزل  
بالبذات الالهية التي يرى أنه اندمج فيها فيقول :

ترامت لنا بين الأكلة والحجب فتاه بها طرفي وهام بها قلبي  
وأعجب شيء أنها مذ تبرّجت رأيت حسننها عيني ولم يرها صحي  
تلقيتها بالرحب مني كرامة ومنها تعلمنا التلقي بالرحب

.....

وناجيتها فيما أحب سماعه مشافهة لا بالترسل والكتب  
حملت الظما شوقاً اليها فساقتني إلى (عين تسنيم) أدمت بها شربي  
علمت بها ما كنت أجهل علمه وكنت بها أنبا فصرت بها أنبي

\*\*\*

وهناك شعر (الأدب والحكم) وينصح فيه بالنحلي بالآداب الرفيعة والخلق  
الكريم :

عوّد لسانك قول الخير تنجح به من زلة اللفظ بل من زلة القدم  
واحذر كلامك من خلّ تنادمه إن النديم لمشتق من الندم  
ويضمن هذا الشعر بعض تجاربه في الحياة وما مرّ به من حوادث فاستفاد منها  
فهاهو ينصح بمصاحبة المهذبين وعدم مصاحبة اللثام :

لا تصاحب من الأنام لثيماً ربما أفسد الطبع اللثيم  
فالهواء البسيط في جرة القيسظ سموم وفي الربيع نسيم

وابغ منهم مجانساً يوجب الضم فقد يصحب الكريم الكريم  
واعتر حال طالم الطير طراً كل جنس مع جلسه مضموم  
وقال ينصح في أخذ الحكمة من أي وطاء خرجت :

نصحتك فاصنع إلى منطقتي يقذك إلى السن الأرشد  
ولا تستقلن رأي امرئ وإن كان دونك في المحتد  
فان سليمان في ملكه وكل بآرائه يهتدي  
أطاعته كل ذوات الجناح وأصغى إلى نبأ الهدهد

كما يقول :

أقلل المزح في الكلام احترازاً فبافراطه الدماء تراق  
قلة السم لا تضر وقد يقتل مع فرط أكله الدرياق



وهناك شعر النوادر المختلفة والملح الظريفة استمع إلى هذه القصة الجميلة :

رأيت في النوم أبا مرة شيخني في تهذيب عـ لم البيان  
وحوله من رهطه عصبه يشير نحووي لهم بالبنان  
وقال : يا بشراكم بالذي غنيتم عن ذكره بالبيان  
هـ ذا الذي أخبرتكم أنه في نظمه أوحد هذا الزمان  
وقال : لو شفت أسماعنا ببعض ما نظمت في ذا الأوان  
فعندما أوردت من مدحك بدائماً منظومة كالجمان  
فعاد كل منهم قائلاً : أحسنت يارب المعاني الحسان  
فقال : مع ذا المدح هل أنعم بضيمة طامرة أو فدان ؟  
فقلت : لا ، قال : ولا منزل مستحسن يفنيك عن بيت خان  
فقلت : لا ، قال : فتم صاغراً ما أنت إلا بغوي اللسان

وقال في الدرهم :

لن يقضي الحاجات إلا درهم عـ ز الغني ودرهم لمؤمـ ل



يدني لك الغرض البعيد بسحره      ويحل عقدة كل أمر مشكل  
فاذا فهمت السر فيه رأيت      دخر المؤمل نزهة المتأمل  
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه      لمعت كلمع العارض المتهلل



وإلى جانب هذا كله هناك شعر كثير في أغراض أخرى منها تقاضي أجوبة  
الكتب ، وقبول الهدايا ، والألغاز ، والمجون والأحماض ، وهناك الشعر  
الذي قيد به العلوم والفنون كأبجر الشعر وغيرها ، وهناك شعر الصناعة  
البدعية وما إلى ذلك . لكن هذا الشعر صناعي ليس فيه جدة ، وليس  
فيه ما يتميز به عن غيره من شعر الشعراء .

---

## الفصل الرابع

### الفنونه المستحدثة

طاوعني جواهر المدح فيه فأتت في النظام مثل السباط  
طيب اللفظ لو حوته الآتي جطته الحسان كالأقراط  
طرف كالعقود فالدر منها ذكره والبيوت كالأسباط

#### ١ - الموشحات :

الموشح من أطرف فنون الشعر في الأدب العربي ، وقد كانت له أهمية عظيمة وصوله وجولة في دنيا الأدب في عصور مختلفة وأما كن متنوعة ، فكان له شأن كبير في القرون : الرابع والخامس والسادس والسابع . وأعجب الناس به جميعاً وظلوا يحفظونه ويتناقلونه ، وتغنى به المغنون . وقد سمي بهذا الاسم تشبيهاً بوشاح المرأة المرصع المطرز المزين ، فهو يشبه لما فيه من زينة وصناعة .

وهذا الفن أندلسي الأصل ، اخترعه شعراء الأندلس في القرن الثالث للهجرة . فحين كثر الشعر عندهم وتهذبت مناحيه وتنوعت فنونه وبلغوا في تنقيحه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم هذا الفن ، وكان مخترعه ( مقدم ابن معافر الفريري ) من شعراء الأمير ( عبدالله بن محمد الرواني ) . وأخذ عنه ( أبو عبدالله محمد بن عبدربه ) صاحب ( العقد الفريد ) . ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فيه بعدهما ( عبادة بن القزاز ) شاعر ( المعتصم بن صلاح ) صاحب المرية <sup>(١)</sup> .

وكان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق في فنونهم . ثم اخترعوا فن الموشح ونوعوه وفتنوا فيه فانتشر واشتهر ، واقتبس منه أهل المشرق ونظموه وجودوه وهذبوه . وهناك من يقول إن أهل الأندلس اخترعوه لتأثرهم بالأسبان في مظاهر حياتهم وسبل معيشتهم وفنونهم ، فقد امتزج العرب بالأسبان واقتبسوا صوراً من غنائهم . فاخترعوا الموشح متأثرين بهم حتى أنهم كانوا يحورون بالأوزان العربية ويعلّون الشعر بألفاظ أعجمية . ولم يظهر الموشح في المشرق إلا في القرن السادس عند ( ابن سناء الملك المصري ) ومن ثم ذاع وانتشر .

والموشح فن له شروطه وأوزانه وقوافيه . وهو ينظم أسطاحاً أسطاحاً وأغصاناً أغصاناً تتوالى بعضها مع بعض . قفل ثم بيت ، ثم قفل ثم بيت وهكذا . . .

والقفل هو الجزء الذي يجب أن يتفق مع البقية في الوزن والقافية وعدد الأجزاء فيه . فالقفل في موشحة لسان الدين بن الخطيب :

وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس  
فكساه الحسن ثوباً معلماً يزدهي منه بأبهى ملابس  
والبيت هو الجزء المفرد . أو المركب . الذي يجب أن يكون متفقاً مع بقية  
الآبيات في الموشح ، في عدد الأجزاء لا القوافي ، بل بحسن أن تكون  
قوافي البيت مخالفة لقوافي البيت الآخر . لكنها متفقة في البيت الواحد :  
إذ يقود الدهر أشتات المنى تنقل الخطو على ما نرسم  
زسراً بين فرادى وثنى مثلما يدعو الوفود الموسم  
فقوافي هذا البيت متفقة بعضها مع بعض لكنها تختلف عن قوافي  
الآبيات الأخرى .

ويتألف الموشح في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات . ويقال له التام ، وفي الأقل ، من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقصر ، فالتام ما ابتدئ

فيه بالأفعال والأقارع ما ابتدئ فيه بالآيات . ويتركب القفل من جزء إلى ثمانية أجزاء ، وقد يوجد من الموشحات ما قفلها تسعة أو عشرة وهو نادر . ويتكون البيت من ثلاثة أجزاء - أو اثنين وهو نادر - إلى خمسة أجزاء . وقد يكون ثلاثة أجزاء ونصف . والجزء من البيت قد يكون منفرداً وقد يكون مركباً من فقرتين أو ثلاث - أو أربع وهو نادر - <sup>(١)</sup> .

وللموشح خصائص ومميزات يجب أن تتوفر فيه ، فأوزانه موسيقية خفيفة سريعة الضربات أكثر أجزائها قصيرة متلاحقة ، لكي لا يتعذر تلحينها وإنشادها . فقد اخترعت الموشحات من أجل الغناء . والملاحظ أن أكثر البحور استعمالاً هي الرمل والمديد وما يتفرع منها .

وأغراض الموشحات هي الأغراض التي تتلاءم مع روح الغناء كالغزل والحجر ووصف الطبيعة وقد توسعوا أخيراً إلى المدح والثناء والزهد والهجاء . وأما معانيه فهي لطيفة سائغة جميلة الخيال مشرقة الصور ، لكنها في الغالب معادة مرددة لا تعمق فيها ، قليلاً ما يمتد المدقق على معاني جليلة لأنها تعتمد على الموسيقى وجمال الألفاظ .

وأما لغتها فليونة ، ولها تعابير خاصة لا تكاد تتهداها في وصف الطبيعة والغزل وذكر الحجر . وألفاظها جميلة موسيقية سهلة رقيقة . تمتاز بالحلالة والطلاوة . والكثير فيها استعمال اللفظ العامي ومزجه باللفظ الغريب . ويلتزم فيها الصناعة البديعية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وتشبيهات . . .



وقد افتتن الصني بالموشح افتتاناً عظيماً وأحبه حباً جما . ففي ديوانه اثنتا عشرة موشحة مختلفة الأسماط والأغصان . متنوعة القوافي والأوزان . متباينة المقاصد والأغراض ، في المدح والغزل والشكر والتصوف . واتبع الصني المتقدمين في كل شروط فن الموشح ، وقد نظم هذه

الموشحات في الأبحر التي كثر استعمالها في التوشيح كالمديد والرمل والنصرح  
والمقتضب وما تفرع منها من أجزاء وتفعيلات . وكان يستعمل الأجزاء  
المتفق عليها في القفل والبيت دون زيادة . وأما القوافي فقد اتبع فيها ما فعله  
المتقدمون أيضاً ، فكانت قوافي البيت الواحد متفقة كلها مختلفة مع قوافي  
البيت الآخر . فقوافي هذا القفل :

خذ من الدهر لي نصيب	واغتنم غفلة القدر
ليس طول المدى يصيب	صفو عيش بلا كدر
تتفق مع قوافي القفل الثاني وهو :	
فأرشف الراح يا حبيب	إن في ذاك معتبر
أترى الشمس إذ يغيب	نورها في قم القمر
أما هذا البيت :	

فاجل لي كاعبا عروس	لم ترعها يد المزاج
نشرها عطر الكؤوس	وكسا نورها الزجاج
في الضحى تشبه الشموس	وهي تحت الدجى سراج
فقوافيه متفقة بعضها مع بعض لاسكنها تختلف عن قوافي البيت الثاني وهو :	
في رياض بها الشقيق	قد جلا بهجة الغمام
وزهى زهوها الأنيق	إذ بكت أعين الغمام
وانثنى غصنه الوريق	فشدت فوقه الحمام

ولما كانت مثل هذا الالتزام لقافية الأقفال في الموشحة كلها مما يبعث على  
السأم فقد استعمل الصفي ذيلاً مغايراً في الروي للقافية الموحدة في الأقفال  
مما يبعد الضجر ويخفف السأم :

زار وصبغ الظلام قد نصلا	بدر جلا الشمس في الظلام ألا فاعجب
والقفل الثاني :	

وأدهم الليل منه قد جفلا	وقد أتى رائد الصباح على أشهب
-------------------------	------------------------------

ولغة موشحاته عذبة فصيحة « سهلة موسيقية الألفاظ حسنة الاتساق ، جميلة الجرس إلا أنه لم ينس أن يتخلص في بعض موشحاته ( بخرجة زجلية ) . والخرجة الزجلية هي القفل الأخير من الموشح ويشترط فيها أن تكون « من قبل السخف قزمانية من قبل اللحن حارة محرقة حادة منضجة من ألفاظ ولغات الداصة - أي اللصوص - وقد تكون الخرجة الزجلية عجيبة اللفظ بشرط أن يكون لفظها في المعجم أيضاً سفسافاً »<sup>(١)</sup> . وقد صنع ذلك العني في موشحته التي مطلعها :

صاحب السيف الصقيل المحلى جرد اللحظ وألق السلاحا  
وخرجتها الزجلية هي :

( عن مبيت ليلة ما تسمح بقبلة ) لا عدمننا منك هذا الصباح  
وأما الأغراض التي نظم فيها الصفي موشحاته فهي لم تعتمد الأغراض التي نظم فيها المتقدمون موشحاتهم ، فقد مدح ( الملك المنصور ) في موشحتين :

قد بدا عزه المهيب	وبمنصوره انتصر
ورأى فتحه الغريب	من أبي الفتح يفتظر
ملك أضحك السيوف	فبعث أعين العدى
جدعت بيضه الأنوف	وردت كفه العدى
صارم يطر الختوف	ويد تمطر الندى

ومدح ( الملك الصالح ) في موشحة واحدة منها :

الزهر غدت مسكية الأردان	للعنشق
أم أكسبها نثرنا السلطان	طيب العبق
ملك كفت أكنافه كل غريب	
كم أبعد بالنوال من كان قوب	

... ..

وشكر ( الملك المؤيد ) صاحب حماة وابنه ( الملك الأفضل ) على هداياهما  
بثلاث موشحات واحدة للمؤيد واثنان للأفضل :

أفضت عليّ للنعمى ملابس فصار لديّ رطباً كل يابس  
أأزعم أنني بالمدح جازي  
وهل يجزى الحقيقة بالمجاز  
ولكن في ارتجالي وارتجازي  
إذا قصرت بالله المجازي

فلو نظمت من مدحي نفائس فاني من قضاء الحق آيس  
وتنزل في خمس موشحات مختلفة الأعاريف والقنون منها هذه الموشحة :  
يا من حكى الظبي في تلفته وفاقه في الدلال والخمر  
أتلقتني في الصدود معتدياً فذلّ عزي وعزّ مصطبري  
نهلّ مضمي جفاك تحمّل ، ذبت في هواك  
وله موشحة على طريقة المتصوفة مطلعها :

لنا نضوة في الدجى ماشيه بأدراكها أصلحت شائيه  
نرى ظلها في الضحى والمقبل  
أشدّ وطاء وأقوم قيل  
وألفت على الضد قولاً ثقیل  
فكانت لأنفسنا هاديه ولكنها للعدى واهيه

ويبدأ الصفي موشحات المدح والشكر بالفزول أو الخمریات في موشحته التي  
هنا بها الملك الأفضل بالعید يبدأ بذكر الخمر :

زمان الربيع ربيع الزمان  
وحسن الوجود وجود الحساب  
وإن البليغ بلوغ الأمان  
فبادر لفضّ ختام الدنان

وزوج بقاء الحيا السلسل عروساً من الحر  
ومن موشحاته التي بدأها بالفزل مدحه الملك الصالح :  
بروحي جوذر في القلب كانس تراه نافراً في زي آنس  
وأحوى أحور الأحداق أبلى  
نكاد خدوده بالوم تدمى  
كأن الحسن لما منه نأى  
وآثر أن ذاك الروض يحمى

غدا للروض في خديه غارس وظل له بسيف اللحظ حارس  
ونرى من هذا أن الصفي قد اتبع المتقدمين في كل شروط الموشحات وخصائصها  
في الأغراض والمعاني والأساليب والألفاظ واللغة والأطاريض وحتى الخرجة  
الزجلية استعملها في موشحاته . على أنه لم يرض على فنه أن لا يبدع فيه شيئاً  
جديداً ويكون مقلداً فحسب فاخترع في الموشح جديداً سماه ( الموشح  
المضمن ) . إذ أنه نظم موشحة ضمن أبياتها ( بائية أبي نواس الغزلية ) التي  
مطلما :

حامل الهوى تعب يستغفنه الطرب

فقال صني الدين :

وحق الهوى ما حلت يوماً عن الهوى ولكن نجمي في المحبة قد هوى  
وما كنت أرجو وصل من قتلي نوى وأضئ فؤادي بالقطيعة والنوى  
ليس في الهوى عجب إن أصابني النصب  
( حامل الهوى تعب يستغفنه الطرب )  
أخو الحب لا ينفك صعباً متبها غريق دموع قلبه يشتمكي الظما  
لفرط البكا قد صار جليداً وأعظما فلا عجب أن يمزج الدمع بالدماء  
الفرام أنحله إذ أصاب مقلته  
( إن بكى يحق له ليس ما به لعب )



وقد طرق الصني فناً جديداً في الموشح . وهو ( الموشح المجنح ) ، وقد سُمي بهذا الاسم لأنه يلتزم فيه اتفاق قافيتي الجزء بن الثاني والرابع من أبيات الموشحة كلها ، هذا بالإضافة إلى اتفاق هذه القوافي في الأفعال . وبذلك يكون للموشحة قافيتان . قافية للأفعال وقافية للأبيات كما في قول الصني :

عزمت يا متلني على السفر      واطول خوفاً عليك واحذري  
يؤيسني من لقاءك قولهم      بأنه لا رجوع للقمر  
تمهل . مضى جفاك      تحمل ، ذبت في هواك  
يا من حكي الظبي في تلفته      وفاقه بالدلال والخفر  
ألتفتني بالصدود معتديا      فذلّ عزي وعزّ مصطبري  
تدل . مهجتي فداك      تمهل ، بعض ذا كففاك

ففي هذه الموشحة قد اتفقت قافية الأفعال - كما يشترط ذلك في فن الموشح - وهي ( جفاك ) و ( هواك ) في القفل الأول وتتفق مع ( فداك ) و ( كففاك ) في القفل الثاني . وتتفق إضافة إلى ذلك قوافي البيت الأول . ( حذري ) و ( للقمر ) مع قوافي البيت الثاني وهي ( الخفر ) و ( مصطبر ) . ليس هذا فقط وإنما جعل أول كلمة في الصدر بوزن وقافية أول كلمة في الصدر . كما في ( تمهل ) و ( تحمل ) في قوله :

تمهل . مضى جفاك      تحمل . ذبت في هواك

ولعل هذا هو السبب في تسميته به ( الموشح المجنح ) فقد قيل : أجنح الرجل في مقعده إذا انكب على يد واحدة . وقال ( الأزهرى ) : الرجل يجنح إذا على المشي يعمل به يديه وقدميه<sup>(١)</sup> . وهذا الموشح يعتمد على اتفاق قافية الأفعال ، واتفاق قافية الأبيات ، ولذا سُمي بالمجنح .

وكان لا يكاد يسمع بموشحة نالت حظاً من الشهرة إلا وطارضاها . فقد طارض موشحة ( غيلان الغول المصري ) التي يقول فيها :

شربنا سلفاً بلا آتية فلا تحسبوا عينها آتية  
فقال الصني وقد التزم تجنبيس القلب :

لنا نشوة في الدجى ناشيه بادراكها أصلحت شانيه  
تري ظلها في الضحى والمقبل  
أشد وطاء وأقوم قيل  
وألقت على الضد قولاً ثقیل

فكانت لأنفسنا هاديه ولكنها للمعدى داهيه  
فهناك ( ناشيه ) مقلوب ( شانيه )  
وهنا ( هاديه ) مقلوب ( داهيه )

وقد يقترح عليه أحد السلاطين أو بعض أصدقائه نظم موشح يعارض به  
موشحاً مشهوراً كما طُلب منه عمل موشحة يعارض بها موشحة ( أبي بكر بن  
تقي الدين المغربي ) التي أولها :

لست من أسر هواك محلا لو يكن ذا ما طلبت سراحا  
فقال الصني :

صاحب السيف الثقيل المحلى جرّـد اللحظ وألقى السلاح  
لك يارب العيـون القـواتـل  
ما كفى عن حمل سيف وذابـل  
أعين تبدو لديها المقاتـل  
ما سرى في جفنها الغنج إلا أوثقت منا القلوب جراحا

## ٢ - المسهطات :

والمسطة قصيدة تبدأ ببيت مصرع ثم بعده أربعة أقصم ( شطرات )  
على غير قافية البيت الأول ويليهما قسم خامس تتفق قافيته مع قافية البيت الأول

الذي بدئت القصيدة به ، وهكذا إلى آخر القصيدة . مثال ذلك قول اسري القيس :

نوهت من هند معالم اطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

\*\*\*

مرابع من هند خلت ومصائفُ يصيح بمفناها صدىً وعوازفُ  
وغيرها هوج الرياح المواصفُ وكل مسف ثم آخر رادفُ  
باسم من نور الماكن هطال

فالبيت الأول في هذه القصيدة مصرع لاتفاق ( اطلال ) و ( الخالي ) وقد اتفق معها آخر القسم الخامس بكلمة ( هطال ) أما الأقسام الأربعة فقد انفقت بالكلمات : مصائفُ وعوازفُ ، والمواصف ، ورادف . ولا تتكرر القافية القافية في الأبيات الأخرى وإنما تكون كما يريد الشاعر ، إلا أنه يجب أن يحمل قافية الأقسام الخمسة في القصيدة كلها تتفق مع ( الخالي ) و ( هطال ) وهذه القافية تسمى ( عمود القصيدة )<sup>(١)</sup> . وقد تكون القصيدة المصنوعة بأقل من أربعة أقسام كقول أحدهم :

خيال هاج لي شجنا فبت مكابداً حزنا  
عميد القاب مرتهنا  
بذكر اللهو والطرب  
سبتي ظبيسة عطل كأن رضاها غسل  
ينوء بنصرها كفعل  
ثقل روادف الحقب

وقد يتبدى الشاعر مسمطته بأكثر من بيت واحد - أربعة أبيات أو خمسة -

الأول منها مصرع .. وبمدها يأتي بالأبيات ذات الأقسام الخمسة . كقول.  
خلد القناس :

لقد نكرت عيني منازل جيران      كأسطار رق ناهج خلق فاني  
توهمت من بعد عشرين حجة      فما استبين الدار إلا برقان  
فقلت لها : حيت يا دار جبرني      ابيني لنا أني تبدد إخواني  
وأي بلاد بعد ربك خالفوا      فان فؤادي عند طيبة جبراني



وما نطقت واستمعجت حين كنت      وما رجعت قولاً وما أن ترمرمت  
وكان شغائي عندها لو تسكمت      إلي ولو كانت أشارت وسلمت  
ولكنها ضفت علي ببيان<sup>(١)</sup>

وهذا الفن الشعري قريب من الموشح - إلى حد ما - ولكنه ليس  
بالموشح . وقد استعمله الشعراء للتخلص من إلزام القافية الواحدة كما في  
القصيد ، وبخاصة حين يريد الشاعر أن يطيل فيتحرر من بعض قيود القافية .  
أضف إلى هذا جمال التنويع وتبديل نغمت القوافي .

وسميت هذه القصائد بالمسمطات • وسمي هذا الفن ( فن التسميط ) مشتقاً  
من ( السمط ) ، وهو سلك اللؤلؤ الذي يضمه ويجمع حباته ، لأن هذا الشعر  
متفرق القوافي نجمعه وترده إلى البيت الأول قافية واحدة هي التي في الشطر  
الغامس ، كما تجمع اللائي والخرز في عدة سلوك ثم تجمع معاً في سلك أو نحو  
ذلك حتى يتم السمط .

وقد نظمت هذه المسمطات في أوزان كثيرة كالرجز وغيره .. ولكن  
أكثر ما نظم كان في نوعين من الرجز هما المشطور والمنهوك<sup>(٢)</sup> .

وقد ينظم الشاعر هذه المسمطة كلها بنفسه • وقد يسمط إحدى القصائد

(١) العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢١ .

الشهيرة للشعراء المتقدمين وذلك بأن ينظم مع كل بيت من أبيات القصيدة ثلاثة أجزاء تكون ، الأول والثاني والثالث ، وتتفق كلها مع قافية الجزء الأول من البيت الأصيل فيكون رابعاً لها . ويكون الجزء الثاني خامس الأقسام . وقد يسمى هذا بالتخميس وتسمى القصائد الخمصات . كتخميس صفي الدين لقصيدة السموهل ومنها :

( ١ ) يريك الثريا من خلال شعابه ( ٢ ) ونحديق شهب الأفق طول هضابه  
( ٣ ) ويعتز خطو السحب دون ارتكابه ( ٤ ) رسا أصله تحت الثرى وتراه  
( ٥ ) ( إلى النجم فرع لا يُنال طويل )

فالأجزاء الأول والثاني والثالث من شعر صفي الدين والرابع للسموهل وهي متفقة كلها في القافية والخامس للسموهل أيضاً وهو يختلف عنها في القافية لكنه متفق مع جميع الأجزاء الخامسة للسموط .

ولا شك أن النوع الأول ( التسميط ) أكثر أصالة من الثاني ( التخميس ) ، إذ أن الشاعر في التخميس يكون مقيداً بقيود كثيرة . تمنعه من أن يكون حراً يتصرف بالشعر كما يشاء ، ويبدع فيه كما يريد ، وأن يعبر عما يحس وما يرى تعبيراً صادقاً فهو هنا مقيد بقوافي الأبيات لا يحيد عنها . ويجب عليه أن يكمل الماعاني والأبيات التي يريد تخميسها ليكون السمط وحدة موحدة المعنى .



وقد نظم صفي ثلاث مسمطات مدح بأحداها ( الملك المنصور ) وقد بدأها بوصف الطبيعة قائلاً :

دارت على الدوح سلاف القطر فرنحت أعطافه بالسكر  
ونبه الورق نسيم الفجر ففردت فوق الغصون الخضر  
تفني عن العود وصوت الزمر

وأما الثانية فشكر بها ( الملك الأفضل ) على إنعامه وهباته وهنأه بعيد الفطر ومطلعها :

قم بي فقد ساعدنا صرف القدر وجاء طيب عيشنا على قدر  
فكم علا قدر امرئ وما قدر فارضع بنا درء الهنا إن تلقَ در  
فالشهم من حاز السرور إن قدر

والمسمة الثالثة في وصف الصيد ويبدأها بوصف الطبيعة فيقول :

أما ترى الأنوار والسحابا قد أصبحت دموعها سكائباً  
فاكتست الأرض بها جلايباً فأظهرت أزهارها عجائباً  
غرائباً أضحت لها رغائباً

ونجد أن الصفي جعل الصيد أم غرض في هذه المسمطات بالرغم من أنه مدح في واحدة وشكر في الثانية ٥ فان المهمة الأولى في كل مسمطاته هو الصيد لا غير . فالمسمة الأولى التي مدح بها الملك المنصور تتكون من خمسة وثلاثين قسماً خمسة أقسام منها في وصف الطبيعة وتسعة عشر في الصيد وأحد عشر في مدح المنصور . وهو يصور فيها الصيد ويذكر حيواناته وطيوره وأنواعها ، ويصف القسي وصناعاتها ، ويصف حادثة برهن فيها على مهارته في الصيد ، ويختتمها بالدعاء للمنصور قائلاً :

لا برحت أفرأحك مجدده وأنفس الضد بك مهدده  
وأربع المجد بك مشيئده والأرض من آرائك ممهده  
والدهر بالأم من ضحكك الفخر

وأما الثانية التي يشكر فيها ( الملك الأفضل ) على إنعامه وبهنيته بعيد الفطر فتتكون من تسعة وعشرين قسماً ٥ عشرة منها في الملك الأفضل ٥ والباقي كله في الصيد ووصف الصيادين وأحوالهم ومهارتهم وحيلهم وصفاتهم وأنواع الطير وأسماؤها ، ويختتمها بتهنئة الأفضل بالعيد فيقول :

فاسعد بعيد فطرك السعيد ممتعاً بعيشك الرغيد

في الصوم والافطار والتعبيد للناس في العام انتظار عيد

وأنت عيـد دائم لا يُنتظر

والمسمطة الثالثة في الصيد « وهي ثلاثون قسمًا ، ثلاثة منها في وصف الطبيعة ، والباقي في الصيد « فوصف القوس والبندق « وطريقة الصيد ، وأنواع الطير وعاداتها وأحوالها وغير ذلك « وختمها بقوله :

فيا لها من فرحة لو تمت كنت وهبت للقديم مهجتي

ولم يكن ذو قدمة كقدمتي بل فاتني الثاني وكانت همتي

نرى جلاء الجوّ منه واجبا

ونلاحظ أن هذه المسمطات طويلة النفس « فأصفرها مكونة من تسعة وعشرين

( مقطوعة ) أي ( ١٤٥ ) شطرة فهي تساوي قصيدة تقرب من خمسة وسبعين

بيتًا . وهذه المسمطات تمتاز بسهولة اللغة وخلوها من الغريب وعذوبة الأسلوب

وجمال الألفاظ ودقة المعاني ، وهي جميعها في بحر واحد هو بحر الرجز .

فكأن الصني أبي أن يقول الصيد في غير بحر الرجز . وقد أبدى الصني براعة

عظيمة في هذه القصائد « وأبدع أحسن الابداع « فليس أجل من وصفه

للطبيعة بقوله :

هذي الروابي بالكلا قد توجت ونسمة الحريف قد تأرجت

وقد صفت مياهه ورُجّجت والأرض بالأزهار قد تدبجت

وأصبح الطلُّ عليها ساكبا

وليس أبدع من دعوته الانسان إلى اغتنام الفرص في زمانه القصير قائلا :

لا تسكب الدمع على عيش مضي ولا تقلّ كان زمان وانقضى

واغتنم الغفلة من صرف القضا فالموت كالسيف متى ما ينتفضي

تضحى لنا أعمارنا ضرائب

... ..

ويجدر بنا ، هنا « أن نذكر أن الصني لا بد أن استفاد من شاعر اشتهر بهذا

الفن « ونظم المسمطات الطردية العظيمة فأبدع فيها وهو ( عمر بن الصفت )  
وكان رامياً ماهراً « يصف في أشعاره ما يعمل في أسفاره . وله :

هيج لي البرق على الخفيف اضا طيب ليالينا على وادي الفضاء  
مع طيب عيش قد تولى ومضى آه له لما تولى وانقضى  
بل آه والهني على تلك الدول

أثم في أفق السما وأنجدا وقبقة الرعد به ثم حدا  
فصحت مما حلّ بي وأكدا باسمد إن كنت زميلا مسعدا  
قف بالحمى دون السكتيين وسل

فلاحظ أن الصفي قد أفاد كثيراً من صور وألفاظ وعبارات هذا الشاعر .



وبجانب هذه المسمطات نجد سبع نغمات هي :

واحدة في الرثاء ، فقد خمس ( نونية ابن زيدون ) المشهورة راثياً  
( الملك المؤيد اسماعيل ) صاحب حماة « وقد مر ذلك في الكلام عن الرثاء .  
وإثان في الغزل الأولى تخميس قصيدة الشيخ مدرك الشيباني المربعة  
التي يتغزل فيها بفلام نصراني فقال :

من طاشق ناه هواه دان ناطق دمع صامت اللسان  
موثق قلب مطلق الجثمان معذب بالصد والهجران  
طلد - ق دمع قلبه في أمر  
من غير ذنب كسبت يده غير هوى نمت به عيناه  
شوقاً إلى رؤية من أشقاء كأنما طافاه من أبلاء  
إذ كان أصل نفعه والضر

ونلاحظ أن الصفي لم يتبع في تخميس هذه القصيدة طريقة التخميس المعروفة  
إذ أنه أضاف الشطر الخامس في كل جزء منها وذلك لأن القصيدة مربعة  
الأجزاء . وبذلك يكون هو صاحب الأشرط الخامسة والقافية في هذه



القصيدة . والثانية خميس لأبيات ( محي الدين بن زيلاق ) التي مطلعها :  
بمعت لنا من سحر مقلتك الوسنا سهاداً يذود النوم أن يألف الجفنا  
وأربع قصائد في الحماسة ، إذ ختمت قصيدة السموهول الحماسية التي مطلعها :  
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداً يرتديه جميل  
فقال :

قبيح بمن ضاقت عن الرزق أرضه وطول الفلا رجب لديه وعرضه  
ولم يبل سربال الدجى فيه ركضه ( إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه )  
( فكل رداً يرتديه جميل )

وقصيدة قطري بن الفجاءة التي مطلعها :  
أقول لها وقد طارت شماعاً : من الأبطال ويحك لا تراعي  
فقال :

ولما مدت الأعداء باها وراع النفس كرم سراها  
برزت وقد حمرت لها القناها ( أقول لها وقد طارت شماعاً )  
( من الأبطال ويحك لا تراعي )

وخمس الصفي كذلك فأنحة الحماسة وهي :  
لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا  
فقال :

يا للحماسة ضاقت بينكم حميلي وضاق حقي بين العذر والعذل  
فقلت مع قلة الاتصال والحوول ( لو كنت من مازن لم تستبح إبلي )  
( بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا )

لو أنني برعاة العرب مقترن لهم نزيل ولي في حبههم سكن  
ومسني في حمى أبشاهم حزن ( إذا لقام بنصري معشر خشن )  
( عند اللقيطة إن ذلولته لانا )

والصفي في هذه القصائد لا يبعد عن روح الشاعر في المعنى والتعبير والاحساس والمأطفة ، لأنه كان يختار القصائد التي يرى أنها تعبر عن إحساسه ، ففي تخميسه لقصيدة السموهول يقول :

وعصبة غدر أرغمتها جدودنا فبات ومنها ضدنا وحسودنا  
إذا عجزت عن فعل كيد يكيدنا ( تعبرنا أنا قليل عديدنا )  
( فقلت لها : إن للكرام قليل )

يوازي الجبال الراسيات وقارنا وتبنى على هام الهجرة دارنا  
ويأمن من صرف الزمان جوارنا ( وماضنا أنا قليل وجارنا )  
( عزيز وجار الأكثرين قليل )

ولا شك في أن الروح في هذه الأبيات واحدة عند الصفي والسموهول ، وأن التعبير والأسلوب وكل شيء لا يختلف في هذه الأبيات الأصلية عما في التخميس ، حتى لنكاد نحس أنها لشاعر واحد .

### ٣ - النجل :

حين اتسعت رقعة البلاد الاسلامية بالفتوحات الكثيرة شملت أقطاراً عديدة ، واختلط العرب بالأهم وتأثروا بهم في كل شيء ، ضعفت لغة العرب ، ودخل فيها الكثير من الألفاظ الأعجمية وصاروا يجدون صعوبة في التكلم بها ، فتكلموا بلغات عامية جديدة تختلف بعض الاختلاف بين بلد وآخر . وتمتاز هذه اللغات بسهولة ، وخلوها من الاعراب ، وكثرة الألفاظ الأعجمية فيها ، واستعمال التعبيرات الشعبية والاصطلاحات اليومية . وطلعت هذه اللهجات في العصر المغولي حتى زاحمت العربية في كل ميدان ، وبدأ الشعراء يحاولون أن يكون شعرهم المنزع من بيتهم معبراً بنفس

اللغة اليومية التي يتكلمون بها ويتعاملون « أي أن يكون شعراً طامياً خالياً من الاعراب ، وساعد على ذلك وشجبه السلاطين الأعاجم لصعوبة الفصحى وسهولة العامية . وقد امتنع الشعراء والأدباء في بادئ الأمر عن ذلك ، وحاولوا محاربة الأشعار العامية ، واعتبروها انحطاطاً بالشعر ونكسة بالأدب » ورجوعاً بالفن إلى الوراء » وظلوا ينظمون الشعر الفصيح ويرفعون عن العامي . لكنهم لم يجدوا بداً « في آخر الأمر ، من السير في ركاب التطور ، فنظموا الشعر العامي .

والشعر العامي هذا عدة أنواع أهمها أربعة فنون هي : الزجل ، والموالي ، والكان وكان « والقوما . ومعرفتها - كما قال الصفي - بالطبع السليم ، وافتها من الفهم السقيم . فليس لها قواعد ثابتة تسير عليها » ونظم مؤكدة تتبعها بل يعتمد فيها على الذوق والفهم والطبع السليم . ولهذا كان من الصعب على الدارس أن يخضعها للدرس والبحث والنقد . ومع هذا فهناك قواعد عامة لكل فن ، وميزات ظاهرة يجب أن تتوفر فيه .

وقد ألف صفي الدين كتاباً في الأشعار العامية سماه ( العاقل الحالم ) والمرخص الغالي في الأزجال والموالي ( درس فيه فنون هذا الشعر من زجل ، وموالي ، وقوما وغيره ، وأنواعها وشروطها وتفاعيلها وأوزانها وقوافيها وما يجوز فيها وما لا يجوز . ومثل لكل نوع بنماذج من الشعر الأندلسي ونماذج من شعره هو . ويعتبر هذا الكتاب الوحيد في دراسة هذه الفنون بالرغم من أنه لم يف بالغرض تماماً . فلم يؤلف أحد من قبل الصفي في دراسة هذه الفنون ولا من بعده .



والزجل أرفع الأشعار العامية رتبة وأشرفها منزلة ، وأكثرها أوزاناً « أرجحها ميزاناً . أوزانه متجددة وقوافيه متعددة .  
والزجل في اللغة الصوت ، ويقال سحاب زجل إذا كان فيه رعد ،

ويقال لصوت الأُحجار والحديد أيضاً والجناد : زجل<sup>(١)</sup> . والرجل التطريب  
ورفع الصوت<sup>(٢)</sup> وخص به التطريب ، وأنشد سيبويه :

له زجل كأنه صوت حاد إذا طلب الموسيقى أوزمير<sup>(٣)</sup>

اخترع هذا الفن أهل الأندلس فجاءوا فيه بالفرائب واتسع فيه للبلاغة  
مجال حسب لغتهم المستعجمة . وأول من أبدع في هذا الفن ( أبو بكر بن  
قزمان ) ، فهو وإن كان هذا الفن قد قيل قبله بالأندلس لكنه لم يظهر  
حلاه وروعته . ولا اشتهرت معانيه ورشاقته إلا في زمانه . فكان هو إمام  
الرجالين . وقد رويت أزجاله في بغداد أكثر منها في الأندلس<sup>(٤)</sup> . وقيل  
إن مخترعه غير هذا ، ومنهم من قال إنه ( عمر بن غرلة ) وقد استخرجه من  
الموشح . ومنهم من قال إنه ( مخلف بن راشد ) ، وكان إمام الرجل قبل  
( ابن قزمان ) ، فلما جاء ابن قزمان نظم السهل الرقيق قال الناس إليه . وقيل  
إنه ( مدغليس )<sup>(٥)</sup> .

وكانت الأزجال الأولى قصائد كقصائد القريض ، وأحياناً على عروض  
الشعر العربي بقفافية واحدة . ولا تختلف عن القصيد إلا بالحن واللفظ العامي .  
ويسمونها ( القصائد الزجلية ) . ثم نوعوا أوزانها وقوافيها وجعلوا لها أقبالاً  
وأوزاناً . ونوعوا في الأوزان وخالفوا فيها فصارت كأوزان الموشح . بعد  
أن كانت كالقصيد . وأصبحت قافية الزجل كذلك متنوعة مختلفة .

وقد قسمه مخترعوه أربعة أقسام ، فرقوا بينها بمضمونها أو غرضها  
وبالأوزان والوزوم : الأول ما تضمن الغزل والنسيب والحمر والزهد ويسمى  
( الرجل ) . والثاني ما تضمن الهزل والخلاعة ويسمى ( البليق ) . والثالث

(١) العاقل الحالي ورقة ١٨ مخطوط

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي ، مادة ( زجل )

(٣) لسان العرب لابن منظور ، مادة ( زجل )

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢

(٥) العاقل الحالي ورقة ٢١ — ٢٢

ما تضمن الهجاء والثلب ويسمى ( قرقياً ) . والرابع ما تضمن الوعظ والحكمة ويسمى ( المكفر ) (١) .

وأطلقوا على ما أعرب جزء منه وأهمل الجزء الآخر اسم ( الزنم ) فهو ملحق بالموشع لأعراب بعضه ، وبألجل للحن بعضه الآخر . فإعرب هو الموشع وما خلا من الأعراب الزجل ، والزنم وسط بين هذا وذاك .

ولكل أمة زجل يجري على ألسنة شعرائها ، بما في لغتها من خصائص وعميزات من إدغام بعض الحروف ، ومن مد وإمالة وقطع ، ومن تغيير حرف بآخر ، وغير ذلك . فللأندلسيين زجل ، وللمصريين زجل ، وللعراقيين زجل ...

ويمتاز الزجل بسهولة اللفظ ، وحسن السبك ، والرفقة والمذوبة .



وللصفي أزجال كثيرة أورد منها ( أحد عشر زجلاً ) في هذا الكتاب - العاقل الخالي - وقد أتبع فيها قواعد مختري الزجل ، وامتنع - كما قال - عن العيوب التي يجب ألا يقع فيها الشاعر لئلا يقال إنه اضطر إلى ذلك لضعف قدرته ، فها هو ينظم زجلاً على عروض زجل لشاعر مصري اسمه علي فيقول :

نمشق قر	قد طلع	في تمامو
عقلي قر	حين خلم	غيم لثامو
سيد السر	بالله مم	ذب كلامو
مترك اللحظ	أحـور	مستعرب اللفظ أسمر
.....	.....	.....

ويقول إن الشاعر رغم أنه نظم ما لا يتبعه أحد في البلاد ، فقد خلس لزوماته كما يجب ، وكانت في كل بيت ( إحدى وعشرين قافية ) . فزادها الصفي قافيتين وجعلها ( ثلاثاً وعشرين قافية ) .

ونلاحظ أن أكثر أرجال الصفي منظومة على عروض أرجال معروفة  
ليبرهن بها على براعته ومهارته . إذ يزيد عليها ويلتزم ما التزم شعراؤها في  
زجلهم . ويجوّد في معانيها .

وألفاظ الصفي في أرجالها سهلة مختارة ، كثير منها قريب إلى ألفاظ  
الفصحى . ولم نجد في هذه الأرجال - وفي غيرها من فنون الشعر العامي -  
من الألفاظ العامية والتعبيرات الشعبية ما بقي منتشراً حتى اليوم إلا قليلاً بل  
قليلاً جداً . فقد وجدنا ( اش علي ) بمعنى أي شيء علي ، ويراد بها « ليس  
لي أي دخل » في مثل قوله :

صرنم حكيمه شرحها نقل إليه أنتم هتكنم عرضكم فأنا اش علي  
وكلمة ( الزغلات ) بمعنى الفش في اللعب في مثل قوله :

أي من لب بقلبي بحكم شطرنج الهوى  
وغرني وغلبي بكثرة الزغلات

ومن ذلك حذف همزة إن وإضافة الواو إلى النون فتكون ( وِن ) كقوله :  
وِن طلب وصفو شعري قال فكري صب لذا مجموع  
و « معذب » بمعنى ما أعذب . كقوله :

سيد السمر بالله معذب كلامو

ولعل سبب هذا أن الصفي كان يتكلم بلغة الخاصة ، لغة الأدياء والعلماء .  
فهو مهذب الألفاظ بعيد عن كلام العامة قريبة إلى الفصحى . وقد وجدنا  
الصفي يرفع أواخر بعض الكلمات التي يقف عندها . كما هو في العامية المصرية  
اليوم فيقول : « كلامو » أي كلامه و « أخاصمو » أي أخاصه كما في قوله :

نمشق صغير لي شهر سيف عنادو

قلبي الكبير والنظر طوع مرادو

وقوله : وقفت يوم لحبيبي حتى أعتبو وأخاصمو

فقلت « وقال : جوابي بالغمز بالأجفاف

هذا بينا العامية المراقية تحرك هذه الحروف بالفتح فتكون ( عناده )  
و ( مراده ) و ( أعتبه ) و ( أخاصه ) .

ولكن معظم ألفاظ أزجاله - وغيرها من فنون الشعر العامي - من الفصح  
يبين ذلك قوله :

يا ما لقيت	من دعي	ذي المقلة
قلبي يبيت	منزعج	كل ليله
وقد بقيت	كنني	نون ليسلي

أو قوله :

ليس غريب من طارق أوطانو أو بعد عن ناظرو المحبوب

إلا من دارو قبل دارو والحبيب عن ناظرو محبوب

حتى غني حجبوه أهلو وأسرفوا في جمع حفاضو

والرقيب قد غيبو غني حتى غني قيد ألفاظو

كل يوم لأجلو يفيظ قلبو رب يحفظ قلب الذي غاظو

ونجد في هذه الأزجال بعض المحسنات البديعة كقوله في الجناس :

أصير إن خطر أسير في خطر

وأما معانيه فهي بديعة يختارها اختياراً ، ويفوص عليها إلى الأعماق »

ولسنا ندري أكل معاني أشعاره العامية بهذه الجودة أم أن هذه الجودة تختص

بما اختاره وأثبتته في هذا الكتاب فحسب »

وهذه الأزجال كلها في الغزل والخمرات ما عدا بليقين في الشكوى واحدة

في شكوى مشقة الصوم . فمن خمرياته هذا الزجل الجميل :

جنى والكاس والزهرة والراوق والطيور والسحاب

سته في مجلس ثلاث تضحك وثلاث في انتحاب

جيت صباح اليوم نستجلي شمس الراح على وجه الحبيب

وبقيت نجتلي من ألفاظو كل معنى غريب

ريت عشرة أشياء مقسم قسمين أيش غريب من قريب  
 در ثغرو ونظرو والاقراط والاقاح والحباب  
 وشعاع خدو والشفق والكاس والشقيق والزاب  
 ومن أزجاله الغزلية الرقيقة ما نظمها جواباً ( لشهاب الدين أحمد ) في دمشق :  
 إيش نحمد لك بقتلتني غبطة يا الذي تعشقو  
 لو تدع ما تبقى من عمري كان عليك تنفقو  
 بالله يستعبد القلوب حسنك يا لطيف اللطيف  
 جل من لطفك ومن خصك بالفعال الكثير  
 وجمع فيك مع قلة إنصافك كل معنى ظريف  
 قط ما نطالب من الجمال معنى ألا فيك الملحوظ  
 لو نصيب من قديم جمال بالله كان تسرقوا  
 ومما يكن فأزجاله خفيفه ، وليس فيها نقل ولا ما ينبو عن الأذن والدوق .

## ٤ - المواليا :

اخترع هذا الفن أهل واسط وله وزن واحد ، من بحر البسيط  
 - مستعملن فعان مستعملن فعل - ويتكون من بيتين لهما أربع قوافٍ على  
 روي واحد . ففي هذا الموالى :

أغنت وأفنت كفوفك في الندى والحرب  
 في البعد والقرب من في الشرق ومن في الغرب  
 وفيض جودك وسيفك في العطا والضرب  
 ذا فرج السكر وذو رمى في القلوب السكر

نجد أن الروي ، وهو حرف الباء متفق في الأجزاء الأربعة كلها في الكلمات :  
 الحرب ، الغرب ، الضرب ، السكر .



ونظموا فيه باللفظ القوي الجزل في النزول والمدح والصناعات وأغراض  
القرىض الأخرى . كقولهم في النزول :

ما بين أكناف راكس من حمى التلبم  
شرفي حزوي لباً ذات القضا ترسم  
ودون آرام رامه يسبق التسليم  
نبل يشق المرابر من لحاظ الريم

وقولهم في المدح :

أضحت أنوف القنا ترعف وبيض الهند  
تضحك وتفتجب الهامات خوفاً عند  
لقا سنان ابن طاصم مطعم الافرندي  
لم الحجاج ومن أعيا أساة السند

وكان يجوز فيه الاعراب واللحن . وليس معنى هذا أنه يجوز جمع الاتين  
في موالي واحد ، كما هو الحال في الرجل المزنم ، فهذا عيب كبير في الموالي  
وإنما يجوز أن يكون هناك موالي معرب وموالي خال من الاعراب .

ولم يزل كذلك حتى اقتبسه أهل بغداد فلفظوه ونقوه ورققوه وحذفوا  
الاعراب منه واعتمدوا على سهولة اللفظ ورشاقة المعنى ، ونظموا فيه الجـد  
والهزل حتى شاع في الأمصار وانتشر في البلاد وتداوله كل الناس واشتهر  
باسم البغداديين ونسب اليهم فقبل موالي بغدادي :

وسمي بهذا الاسم لأنه كان يتداوله العبيد والفلاحون بسهولة تناوله  
وقصره . فكانوا يتغنون به على النخيل وعند سقي المياه ويقولون في آخر  
كل صوت - مع الترنيم - يا مواليا ، إشارة إلى أسيادهم فقلب ذلك الاسم  
عليه وعرف به .

وهو يشارك الرجل في اللحن ، وإبدال بعض الحروف ببعضها . ويختص  
دون الرجل بالأماله خصوصاً في حروف القافية . كقولهم :

أي من مرد الهوى يلعب على فيرد  
ومن جعلني مثل للفيرد والويرد  
مو أقدر أصبر على شيطانك الميرد  
ولا يمكن غضب خيره جرد بيرد  
فالقافية هنا ممالاة الألف في (فيرد والويرد والميرد ويرد) وأصلها (فارد والوارد  
والمارد وبارد) .



وقد أورد الصفي في كتابه العاقل الحامي من موالياته (واحداً وعشرين  
صوتاً) ■ جعلها ثلاثة أقسام :  
الأول في الجزل القوي ، وسار فيه سيرة المتقدمين قبل أن يلفظه أهل  
بغداد ، وله في هذا النوع سبعة أصوات واحد في الخمسة وستة في المدح .  
قال في الخمسة .

إن اقمم النعم كنا الضاربين الهام  
وإن أفاضوا الحجى كنا ذوي الأنهام  
وما برحنا بارث الفضل والالهام  
تطوى الخناصر لنا أو بعقد الابهام

وفي المدح :

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت  
والمخضب الأرض والأمواء قد غارت  
هو اطل النجب من كفيك قد غارت  
والشهب من شهادت طلعتك قد غارت

أما القسم الثاني في الصناعات المشكلة ■ وهو ثلاثة أصوات ■ منها صوت  
فتح كل كلمة منه بحرف من حروف المعجم :  
أي بدرتم نقل جورك حصل خسري

دع ذاك ردُّ زمن سعدي شفا صدري  
ضدي طمع ظن عجز في قهري  
كم لج مذ نلت وصلك هات لا يدري

والقسم الثالث في الرقيق على طريقة المتأخرين ، وهو أحد عشر صوتاً في الغزل  
والتهنئة والعتاب والهجاء : قال في الغزل :

قالت وقد طاوعت أمري وزال القدر  
ووجهها في الدجى خجل لنور البدر  
ما ريت ملاح مثلك حاز هذا القدر  
تجذف بخنّ سفينة وأنت فوق الصدر

وقد أدخل الصفي موالياته من الاعراب « لكنه ميزه بسهولة اللفظ ورقته ،  
واتبع كل الشروط اللازمة في هذا الفن كما وضعها مخترعوه « فالصوت  
يتكون من ييتين وله أربع قواف على روي واحد « وقد جعله كله في بحر  
البسيط « إلى غير ذلك من مميزات مما أوجبه المتقدمون .

## ٥ - الكان وكان :

لهذا الفن وزن واحد وقافية واحدة ، غير أن الشطر الأول من كل بيت  
يكون أطول من الشطر الثاني . ويجب أن تكون قافيته قبل حرف الروي  
بأحد حروف العلة دائماً .

اخترع هذا الفن البغداديون « وانتشر إلى سائر البلاد فتداوله الناس  
ولسكنهم لم يبلغوا به مبلغ البغداديين . وسمي بهذا الاسم لأن من اخترعوه  
كانوا ينظمون به الحكايات والخرافات والمراجعات « فكان قائله يحكي ما  
كان وكان « ولفتة ( قال ) . لذلك قيل له الكان وكان ، إلى أن كثرت واتسع

طريق النظم فيه وظهر مثل الشيخ ( جمال الدين بن الجوزي ) و ( شمس الدين ابن الواهظ ) وغيرهم فنظّموا فيه المواعظ والتهديدات والأمثال والحكم وتداولها الناس . وظل يسمى بهذا الاسم .

والصني في هذا الفن عشر قصائد . خمس في الغزل وواحدة في تقييد عدد قرى الموصل وما جاورها وذكر أسمائها منها :

من كان من ( باعشيقا ) . ( باخذ يدا ) تمجبو  
يحتاج إلى ( بادني ) تايلنغ الآمال  
وإن قصد ( باطناي ) أو صوب ( باتلي ) طلب  
يصبر على ( برطلي ) ويبذل الأموال

... ..

وأما الغزليات فيحكي في واحدة منها قصة تصور فساد المجتمع وتدهور الأخلاق في عصر . . . إذ يصور طريقة النساء الساقطات في الاحتيال على الرجال لاصطيادهم وابتزاز أموالهم يقول فيها :

جاءت فقلت إن رتي لا بد أن تلعب معي  
ذي لعبها وعبثها أنا أعرفو إسراف  
من أبصرتني تهيت وحركت لي رأسها  
مثقلة مشيتها وهزّت الأعطاف  
قلت صباحاً مبارك قالت على من تكلمو  
قلت : إن سمع ما أقلو قالت : ولا انخاف

... ..

ويتغزل في قصيدة بغلام لعب معه الشرطي وكان الغلام يغشه في اللعب ويقول حتى غلبه :

أي من لعب بقلبي بحكم شرطي الهوى  
وغرني وغلبني بكثرة الزغلات

والله قوى أي يبدق غلبت فرزين الرفع  
ولو علمت حسبت لك حسابات  
جملت حظي الأسود ونهت بابيضك النقي بزغلك  
وإن عدلتك نقل لي السود للسادات

... ..

وهناك غزليه من الفراقيات يصف فيها فراق الحبيب وبين أثر هجره وما يقاسيه  
من حزن وألم فيقول :

أي سادة هجروني وهم نزول بخاطري  
لا أوحش الله منكم في سائر الأوقات  
أوحشتم العين مني وإنكم في خاطري  
فالقلب في النور منكم والعين في الظلمات

... ..

وقد اخترع الصوفي نوعاً جديداً في هذا الفن لم يسبق إليه ، فقد جمع عشرين  
بيتاً مختلفة الأغراض متفقه القوافي والأوزان مجبولة القائل ۝ ونظم هو عشرين  
بيتاً في قافيتها ووزنها مكمل لها في المعنى فكانت قصيدة كاملة :

أي من يسرو سخطي وكل أحد راضي منو  
وتستريح بو الخلايق وأنا معو تعبات  
( الخلق ومن خلق الله تصفك عندي بالكرم  
ما أدري الزمان تغير أم شوم حظي كان )  
أيش أقدر أحمل بحظي وأيش ينفعني الحسد  
يعطي الدليل النائم وبحرم اليقظان  
( ما هو بحمد الصوارم ولا بمشتبك القنا  
هذي هدايا تهدي لمن يشا الرحمن )

... ..

ونلاحظ أن لغته في هذه القصائد سهلة رقيقة ، قريبة من الفصحى . وأن معاني هذه القطع معظمها من المعاني السامية مثل :

لم يبق غير خيالي يلوح كالشبح الخفي  
أعد بين الأحياء وأنا من الأموات  
ودعتموني وسرتم والقلب يقبع ركبكم  
أيش كان لو كان جسمي من جملة التبعات  
ما مر ما ريت ضدي يقول لي من فرحتو  
هنا تفق المرائر وتسكب العبرات  
لو لم أسلي نفسي وأروض نفسي بالمتى  
لكان قلبي تقطع من بعدكم حميرات  
وقفت لما رحلتم حيران بين أضعائكم  
أخفض جناح المذلة وأرفع الأصوات  
ما أطول ليالي جفاكم ساعاتها مثل السنة  
وما أقصر أيام وصلي كأنها ساعات  
مالي أرى حسناني بالسيئات تبدلت  
وسيئات الأطاخي تبدلت حسنات  
نسكت ونصبر عنكم ويفعل الله ما يشاء  
فألهر من طاداتو يقلب الحالات

## ٦ - القوما :

اخترع هذا الفن البغداديون ، وقيل أن أول من اخترعه ( ابن نقطة )  
برسم الخليفة الناصر العباسي لكنه - في الحقيقة - وجد قبل ابن نقطة .

وكان الناصر يعجب به فيطلب من ابن نقطة أن يتغنى به كثيراً ، ولهذا اشتهر باسمه .

ولهذا الفن صورتان ، الأولى ما يتركب بيته من أربعة أفعال ، ثلاثة منها متساوية في الوزن والقافية ، والآخر - وهو القفل الثالث - أطول منها ويكون مهمل القافية . مثل :

لا زال سعدك جديد	دايم وجـدك سعيد
ولا برحت منها	بكل صوم وعيد
في الدهر أنت الفريد	وفي صفاتك وحيد
فأخلق شعر منقح	وأنت بيت القصيد
.....	.....

نجد أن القافية في البيت الأول في الأجزاء الثلاثة ، الأول والثاني والرابع هي ( جديد ، سعيد ، عيد ) متساوية مع ما يناظرها من قوافي البيت الثاني وهي ( الفريد ، وحيد ، القصيد ) بينما تختلف عنها قافية الجزء الثالث في كل من هذين البيتين ، وهي ( منها ) في البيت الأول و ( منقح ) في البيت الثاني . وأما الصورة الثانية فهي مركبة من ثلاثة أفعال مختلفة الوزن متفقة القافية القفل الأول أقصر من الثاني ، والقفل الثاني أقصر من الثالث ، من ذلك قول صبي الدين :

صرتم حكيه شرحها ينقل إليّ أنتم هتكم عرضكم فأنا اش عليّ  
أنا اش عليّ صونكم ما هو إليّ موراا علوايش ردتهم خرجتم من يديّ

نرى في هذين البيتين أن القفل الأول - وهو صرتم حكيه - أقصر من القفل الثاني - وهو شرحها ينقل إليّ - وهو بدوره أقصر من القفل الثالث وهو - أنتم هتكم عرضكم فأنا اش عليّ - ونرى كذلك أن القوافي في الأفعال الثلاثة متساوية وهي في البيت الأول ( حكيه ، إليه ، عليّ ) وهي متفقة

أيضاً مع قوافي البيت الثاني وهي ( على ، إلى ، يدي ) .  
وقد سمي هذا الفن باسم ( القوما ) لأنه كان يرتل في شهر رمضان عند  
السحور فيقول المتغني به في نهاية كل بيت : « قوما للسحور » يفه رب  
المنزل » فبقي هذا الاسم .  
وكانت معانيه : المدح والدعاء ومقاضاة الانعام » ثم بعد أن شاع وكثر  
نظموا به في الغزل والزهد والعتاب وسائر أغراض الشعر الأخرى .  
وكل بيت من أبيات القصيدة » في هذا الفن » قائم بذاته ولذا يجوز  
تكرير القوافي في بيتين من القصيدة الواحدة دون أن يكون في ذلك  
أي عيب .



وللصفي خمس قصائد في هذا الفن ، اثنان من الصورة الأولى ، ذات  
الأفعال الأربعة المتساوية الوزن . يقول في واحدة :

لا زال سعدك جديك	دايم وجدك سميد
ولا برحت مهننا	بكل صوم وعيد
في الدهر أنت الفريد	وفي صفاتك وحيد
فأخلق شعر منقح	وأنت بيت القصيد
يا من جناو شديد	ولطف راو سديد
ومن يلاقي الشدائد	بقلب مثل الحديد

... ..

... ..

وثلاثة من هذه القصائد في الصورة الثانية ذات الأفعال الثلاثة غير المتساوية »  
منها هذه القصيدة :

كنا مآلك دون إخوانك وآلك	سلبتنا الله يجعل أول سؤالك
رامواقتالك والأذى منهم أتى لك	وما نفع عنا انحرافك وانفتالك

... ..

... ..



واثنان من هذه القصائد في المدح ونظمها للسحور في شهر رمضان ، وهذا هو الغرض الذي اخترع من أجله هذا الفن - القوما - والثلاثة الباقية في الغزل. ونلاحظ أن الصفي اتبع كل شروط هذا الفن التي وضعها المتقدمون من الشعراء ومخترعي القوما . حتى تكرار القافية الواحدة في بيتين من القصيدة ، كقوله :

لا زال قدرك مجيد	وظل جودك مديد
ولا برحت موقى	كما توقى الوليد
لا زلت في كل عيد	نحظى بمجد سعيد
همرك طويل وقدرك	وافر وظلك مديد

فقد كرر في هذين البيتين كلمة مديد ، وليس بينهما إلا بيت واحد .



## الفضل الخامس

### مفرقة في الشعر العربي

وأشد من شمرى لهم كل جزلة      تحلى بها أممهم وتشنف  
قصائد في ألفاظهن مقاصد      من الصخر أقوى بل من الماء أطفد  
إذا رام أهل العصر نظماً لمنها      وجاءوا بلفظ دونها وتحكفوا  
ظننت حبال السحر ما قد أتوا به      وتلك عصا موسى لها تنافد

### ١ - تقليد :

يبدأ الفنان أو الأديب حياته بالتقليد ، فليس لديه من المواهب ما يستطيع أن يكمل عمله الفني ، ومواهبه لا تزال في دور التكوين . وفنه محتاج إلى اخراج وصقل وتهذيب . ووسائل الأداء والتعبير لا تزال ساذجة عنده ، فهو لا يستطيع أن يقوى للوقوف على قدميه ، لذلك يضطر إلى البحث حوله ليجد ما يستعين به على الوقوف والسير ، كالطفل الذي يبدأ تعلم المشي متوكئاً على كل ما يصادفه أمامه ، سواء بسواء . فالشاعر يستعين بالمقدمين من الشعراء ، يقرأ دواوينهم ويحفظ أشعارهم ، ويستوعب معانيهم ، ونطبع صورهم وتماثيلهم في مخيلته فيكوّن ثروة من المعاني والصور ، ونصيباً من الألفاظ والتعابير . فيخصب خياله . ويرهف حسه . ويقوى تفكيره . ويمكنه أن يسير شيئاً فشيئاً في التجويد ، ويرتقي سلم المجد قليلاً قليلاً . فإذا ما أحس أنه وصل إلى مكان يستطيع أن يظهر فيه بين الناس بمظهر لائق . وصار في حال يمكنه أن يفخر فيه بما عنده . يبحث عند ذلك عن شخصيته

وذاته ، ليعرف مواهبه وخصائصه ومميزاته « فإذا تبين له ذلك تمسك به ولم يفارقه إلى الأبد .

وهذا ما مر به الصفي فعلاً « فحين شب عن الطرق - على حد تعبيره - أصبح لهجاً بالشعر حفظاً ونظماً ، فكان يحفظ شعر الشعراء ويقرأ دواوينهم ويتأثر بهم ، بفنونهم وأساليبهم ومعانيهم وأخيلتهم ، ولسكنه « لا ريب ، كان يعيل إلى الشعراء الذين يجد بينه وبينه تجاوباً نفسياً واتصالاً عاطفياً « فاختار شعراء كان يقرأ لهم أكثر من غيرهم أمثال : المتنبي وأبي تمام وأبي نواس وزهير والحمول وغيرهم . وقد ظهرت آثار هؤلاء الشعراء في شعره « فضمن أبياتهم واقتبس معانيهم واستعمل ألفاظهم ، وصار يعتبرهم أسانذته - كل واحد في فنه - يضرب بهم الأمثال « ويحتج بأرائهم عند اللزوم . وكان يرى أنهم الصفوة المختارة من الشعراء في الأدب العربي ، ويعتقد أن ما وصلوا إليه هو غاية الابداع « وقلة الفن وذروة المجد ، لذلك كان على الأجيال المقبلة أن تسير سيرهم وتحذو حذوهم وتسلك سبيلهم ، فتقلد في كل ما وصلوا إليه ، وتحاكي كل ما قدّموا إلى الشعر العربي من فنون أي أنه كان يدعو إلى المحافظة على عمود الشعر - كما يقول القدماء - فكان صفي الدين نفسه يحرص كل الحرص على أن يبقى فنون الشعر العربي على ما هي عليه دون نقص أو زيادة « ولا أدل على ذلك من احتواء ديوانه لجميع هذه الفنون في شعره : الحماسة والمديح والرثاء والتعازي والغزل والخمرات والوصف والطرديات والاعتذار والعتاب والشكر والاستعطاف والاخوانيات والهجاء وتقييد العلوم والفنون وغير ذلك . وكان يضطر إلى نظم بعض الأغراض التي لا يتخلو ديوانه منها . وهناك الموشح والدوبيت « وهناك الرجل بأنواعه والموالي والـكان وكان والقوما . وظل يحافظ على ميزات الشعر العربي وخصائصه ، لم يحاول أن يفلت منها ، ولم يرد أن يتخلص من بعضها أو يغير فيها . فلقصيدة كما هي يلتزم فيها القافية الواحدة « ويعتمد على وحدة البيت فيها ، ويحافظ على البداية ثم الدخول

مع حسن الانتقال ، ثم الخاتمة . فيبدأ هذه القصيدة بالغزل أو بذكر الخمر ، كما كان يفعل الشعراء المتقدمون وربما بدأها بوصف الطبيعة . . . وينتقل بعدها إلى غرضه من مدح أو شكر أو حماسة أو غير ذلك ، وربما ختمها بالفخر بشعره . وفعل ذلك أيضاً في الموشحات ، فلم يترك قوائنها وأصولها ، ولم يغير تقاعيلها وقوافيها وحتى « المخرجة الرجلية » لم يتركها . وهذا ما صنعه كذلك بالفنون الشعرية العامية من زجل ومواليا وغيره ، فقد سار سيرة أسلافه دون أن يحيد عنهم قيد شعرة .

ومن مظاهر تأثر الصفي بهؤلاء الشعراء المتقدمين حبه لهم وإعجابه بشعرهم ، عنايته بقصائدهم حتى أن شعره امتلأ بشعرهم فضمن الكثير من أبياتهم في قوله :

أطاعن فرسان الكلام وتارة ( أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر )  
يضمن شطراً للعتفي من قوله :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر<sup>(١)</sup>  
وهو في قوله :

فمكن قائلاً قول السوء تائها بنفسك عجباً وهو منك قليل  
( ونسرك إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول )  
يضمن بيتاً من حماسة السموه ، ويشير إلى ذلك في بيته الأول . ويقتبس الكثير من ماني هؤلاء الشعراء وأضرابهم أو يشير إليها ، فقوله :

مثل أهل الجحيم إن تذهب النار جلوداً تبدلوا بجلود  
مقتبس من بيت أبي نواس الذي أخذ معناه من القرآن الكريم وهو :  
كأهل النار إن نضجت جلود أعيدت للشقاء لهم جلود<sup>(٢)</sup>  
وهو حين يقول :

(١) ديوان التني ج ١ ص ١٤٩

(٢) ديوان أبي نواس ص ٣٧٤

وقضية صمت القضاء ترفعاً عن فصلها والخصم فيها يحكم  
لا شك أنه استعان بمعنى بيت المتنبي الذي قاله لسيف الدولة :  
يا أعدل الناس إلا في معاملي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم<sup>(١)</sup>  
ولا ريب أن بيته هذا :  
أهلاً بشهب في سماء المجلس هتكت أشعتها حجاب الهندس  
مقتبس من بيت ابن المعتز :

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الهندسا<sup>(٢)</sup>  
وقد شطر بعض قصائد هؤلاء الشعراء كملقة اسري القيس المشهورة ، إذ  
شطر منها أبياتاً يشكو بها إلى ( الملك المنصور ) أحد نوابه حين ربط عنده  
فرسه فأمله فبات بغير عليق فقال :

رأى فرسي إصطبل موسى فقال لي (قنانك من ذكرى حبيب ومنزل)  
به لم أذق طعم الشمر كأنني ( بسقط الهوى بين الدخول فحول )  
تقمقع من برد الشتاء أضالعي ( لما انسجتها من جنوب وشمأل )

.....

فالصدور في هذه القصيدة للصفي والأعجاز لاسري القيس . وهذا ، دون  
أدنى ريب ، يبين لنا تعلقه بالشعر القديم أولاً ، واعتماده عليه ثانياً . فهو  
يستعين بهذه الأعجاز على التخلص من القافية وإكمال الوزن . وهو يوفر  
بهذا نصف مجهوده الذي يبذله في القصيدة أو أكثر من ذلك ، كما أنه شطر  
مقصورة ( ابن دريد ) المشهورة بطريقة جديدة تعتبر من مبتكراته ..

وخمس الصفي كثيراً من قصائد المتقدمين المشهورة وأبياتهم . نفخس حماسة  
السمول اللامية . وخمس أبيات قطري بن الفجاءة المينية في الحماسة وخمس  
نونية ابن زيدون وأبيات ابن زبلاق النونية في الغزل . وخمس رباعية الشيخ

(١) ديوان المتنبي ج ٣ ص ٢٦٦

(٢) ديوان ابن المعتز ص ١٢٢

مدرك الغيباني التي يتنزل فيها بصي نصراني . ولا يخفى ما يكسبه في هذا العمل من تدريب على صوغ الشعر واختيار القوافي « وإكمال الأوزان والبحور » وتحسين الصور « إلى غير ذلك مما يستفيد منه حين يخلص أمثال هذه القصائد .

ولسكن « هناك ما هو أهم من هذا وذاك ، فهناك فن المعارضة ، فالشاعر حين يريد نظم قصيدة في موضوع ما ، يختار قصيدة من القصائد المشهورة تناسب غرضه وتلائم مطلبه ، وينظم على وزنها وقافيتها وفي موضوعها . . .

ويقتبس منها الكثير من المعاني والأخيلة والصور ، ويتضمن الكثير منها من القوافي والألفاظ . ولا يخفى ما في هذا العمل من التقليد والمحاكاة والاستعانة بكل ما في القصيدة من مميزات ومحاسن ، وجودة وقوة » والتخلص مما قد يكون فيها من مظاهر الضعف أو عدم الاتقان .

ومما طارض الصفي ثلاث قصائد مشهورة ، الأولى للعتبي ، والثانية لأبي تمام ، والثالثة لابن المعتز .

\*\*\*

أما قصيدة المتنبي فهي بأبيته التي مدح بها ( علي بن منصور الحاجب ) التي مطلعها :

بأبي الشمس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاليا<sup>(١)</sup>  
 فحين جاء الصفي إلى مصر « ودخل بلاط الملك الناصر ( محمد بن قلاوون ) وأراد مدحه لما لقيه من الحفاوة والتكريم تذكر المتنبي وشعره في مصر فرت بخاطره هذه القصيدة « وتأملها جيداً - بعد أن استعرض معانيها في تخيلته - فرآها خير ما يحكي حاله ، وأحسن ما يعبر عن إحساسه « فعارضها بقصيدة مطلعها :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبسات القلوب ذوائبا

والصني يبدأ قصيدته هذه بالغزل ، كما فعل المتنبي ، ويستمر في غزله هذا إلى ما يقرب من ربيع القصيدة :

وجلون من صبح الوجوه أشعة      غادرت فود الليل منها شائبا  
بيض دماهن النقي كواعبا      ولو استبان الرشد قال كواكبا  
سفن رأي المانوية عندما      أسبلن من ظلم الشعور غياها  
وسفرن لي فرأين شخصا حاضرا      شدهت بصيرته وقلبا غائبا  
أشرقن في حلل كأن وميضها      شفق تدعه الشموس جلايبا

فالمعاني مستمدة من منبع واحد ■ والصور متشابهة عند الشاعرين ■ فوصف الفتيات وجمالهن ، وشعرهن ، وملابسهن . . ■ فأجاد ( صني الدين ) كثيرا ، إذ جعل هذه الملابس شققا . وهولون بهي بالعيون والقلوب . أما المتنبي فلم يزد على أن قال إن هذه الملابس من الحرير <sup>(١)</sup> . وقد وصف الشاعران دلال المحبوب ولكن المتنبي اكتفى في ذلك بقوله : « المبديات من الدلال غرائب » أما الحلبي فإنه صاغ ذلك المعنى في بيتين <sup>(٢)</sup> :

حلوا التعتب والدلال يروعه      عني ولست أراه إلا طابعا  
طابته فتضرجت وجناته      وازور الحاسا قطب حاجبا  
ثم ينتقل إلى المديح انتقالا جميلا إذ يقول :

ذو مظهر تغدو القلوب لحسنه      نهبا وإن منح العيون مواهبها  
لا بدع إن وهب النواظر حظوة      من نوره ودماه قلبي ناهبا  
فواهب السلطان قد كمت الوري      نعماً وتدعوه القساور سالب

ولا شك أن هذا الانتقال الذي لا يفاجيء السامع ولا يستفزه من مستلزمات الشعر الجيد ، شعر الفحول . وقد انتقل المتنبي - من قبل - إلى المدح بتمهيد جميل أيضا .

(١) الأدب العربي وتاريخه ج ٣ ص ٢٦٢

(٢) نفس المرجع ج ٣ ص ٢٦٢

ويدخل الصفي في المدبح « كما يدخل المتفني ، فيقول في الناصر :  
الناصر الملك الذي خضعت له صيد الملوك مشارقاً ومغرباً  
ملك يرى تعب المكارم راحة وبعد راحات القراع متاعها

... ..

وهكذا يستمر في اسباغ أكرم الصفات وأعظم الفضائل عليه . . ثم ينتقل إلى  
وصفه بالشجاعة ويفصل ذلك تفصيلاً :

كاليث بحمي غابه بزئيره طوراً وينشب في القنيص مخالباً  
كالسيف يبدى للنواظر منظرأ طلقاً ويعضي في الهياج مضارباً  
ويخرج من هذا الوصف إلى الحماسة وإطيل فيها إذ تبلغ ستة عشر بيتاً :  
أبقى ( فلاوون ) الفخار لولده إرثاً وحازوا بالثناء مكاسبها  
قوم إذا سئمو الصوافن صيروا للمجد أخطار الأمور مراكبها  
عشقوا الحروب تيمناً بالقي العدا فكأثم حسبوا العدا حبايبها

ويستمر في مثل هذا حتى ينتقل إلى وصف القتال والجلاد في المعارك التي  
يقودها الناصر في سبيل الاسلام فيفرق جموع المارقين :

صرمت شمل المارقين بصارم تمديه مسلوباً فيرجع سالماً  
تطأ الصدور من الصدور كأنما تمتاض من وطء التراب ترائبها  
ويسير في ذلك الوصف الرائع حتى ينتقل إلى وصف كرم الملك الناصر :

إن يحرس الناس النضار بحاجب كان السماح لعين مالك حاجبها  
لم يملأوا فيك البيوت غرائبها إلا وقد ملأوا البيوت رغائبها  
ثم يختتم القصيدة بالثناء عليه قائلاً :

فطفقت أملاً من نناك ونشره عقدأ وأملاً من نذاك حقائبها  
أنتي فتفتني صفاتك مظهرأ عتيك وكم أعيت صفاتك خاطبها  
لو أن أعضاءنا جميعاً ألسن تنثي عليك لما قضين الواجبا

ونلاحظ هنا حسن التسيق في قصيدة صفي الدين « فهو لا ينتقل من غرض



إلى غرض حتى يشبع غرضه فلا يعود إليه من جديد ، وينتقل بين أغراضه  
بتدرج جميل وتسلسل بديع . فن الغزل إلى المدح بالشجاعة إلى الحماسة إلى  
وصف القتال وهكذا حتى يختتم القصيدة . وأما المتنبي فنراه يمدح دون نظام  
ولا تفسيق . فيمدح بالشجاعة :

ملك سنان قناته وبنانه      يقباريان دماً وعرفاً ساكبا  
يستصغر الخطر الكبير لوفده      ويظن دجلة ليس تكفي شاربا  
ثم ينتقل إلى وصف ممدوحه بالكرم :  
كرماً فلو حدثته عن نفسه      بعظيم ما صنعت لظنك كاذبا  
ثم يعود للشجاعة من جديد :

سل عن شجاعته وزره مسالماً      وحذار ثم حذار منه محاربا  
وبعد ذلك يرجع إلى الكرم من جديد ، وهكذا نرى عنده عدة انتقالات .  
ويختتم قصيدته بالثناء قائلاً :

خذ من ثنائي عليك ما أسطيعه      لا تلزمني في الثناء الواجبا  
فلقد دهشت لما فعلت ودونه      ما يدهش الملك الحفيظ الكاتببا  
وإلى كل ذلك نجد أن الصفي أطول نفساً من المتنبي فقصيدته الصفي بلغت  
( واحداً وستين بيتاً ) في حين أن قصيدة المتنبي بلغت ( أربعين بيتاً ) فقط .  
وقد قلد الصفي المتنبي في البداية والخاتمة ، فالغائمتان غزل والغائمتان ثناء .  
والمعنى في الغائمتين يكاد يكون واحداً .

واتبع صفي الدين أبا الطيب حتى في مواضع التصريح في قصيدته . فهو  
عند المتنبي في المطلع وفي أوائل القصيدة في قوله :

حاولن تفديتي وخفن مراقبا      فوضعن أيديهن فوق ترابيا  
وكذلك في آخرها في قوله :

لبيك غيظ الحاسدين الرابيا      إنا لنخبر من يديك عجائبيا  
فكان التصريح عند الصفي في المطلع أيضاً وفي أوائل القصيدة في قوله :

بيض دماهن النقي كواعبا      ولو استبان الرشد قال كواكبا  
وفي أواخرها في بيته :

لم يملأوا فيك البيوت غرائباً      إلا وقد ملأوا البيوت رغائباً  
ووجدنا المتنبي يبدأ عدة أبيات متتالية من قصيدته بالتشبيه بالكاف :

كالبدر من حيث التفت رأيته      يهدي إلى عينيك نوراً ثاقباً  
كالبحر يقذف للقريب جواهرأ      جوداً ويبعث البعيد سحائباً  
كالشمس ... ..  
... ..

فلم يفت الصفي ذلك فقال :

كالغيث يبعث من عطاء وإبلاً      سبطاً ويرسل من سطاء حاصباً  
كالإيث يحمي غابه بزئيره      طوراً ويفش في القنيم مغالباً  
كالسيف ... ..  
... ..

ولا يخفى أن الصفي استفاد كثيراً من معاني المتنبي وألفاظه وقوافيه في قصيدته هذه . وإن كان الاستاذ محمود مصطفى يرى « أن معاني الحلي أكثر كما أن أسلوبه رصين . . وأسلوبه وإشارته دقيقة غير ممثلة في الغرابة ... » (١)



أما قصيدة أبي تمام فهي الرائية التي رثى بها ( محمد بن حميد الطوسي ) التي مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر      فليس لعين لم يفض ماؤها عذر (٢)  
وهي من أجمل مرثي الطائي وأصدقها عاطفة . ومن المرثي المشهورة في الأدب العربي . وحين توفي ( الملك الناصر ) وجد الصفي أن هذه القصيدة تستطيع أن تعبر عن حزنه وألمه فعارضها بقصيدته التي مطلعها :

وفى لي فيك الدمع إذ خاني الصبر      وأنجد فيك النظم إذ خذل النثر

(١) الأدب العربي وتاريخه ج ٣ ص ٢٦٣ .

(٢) ديوان أبي تمام ص ٣٦٨ .

ومعني الصني في تصوير الفاجعة وما خيم على الناس إزاءها من حزن « ويصور كيف سادم الأمل بل لقد أظلمت كل الأفقار الإسلامية :

فإن أظلمت أرض الشام لحزنه فلم يخل من ذلك الصعيد ولا مصر  
وينتقل الصني بعد هذا إلى ذكر صفات الفقيد الفاضلة وخلقه الكريم فيصفه  
بالشجاعة في شعر حماسي جميل :

ولم يغن عنه الجأش والجيش واللهي وفرط النهي والحكم والنهي والأمر  
ولا الخيل تجري بين آذانها القنا لحرب العدى والدم من دمهم حر  
لدى معرك خاضت به الخيل في الوغى من الدم فيما خاضت البيض والسمر  
ويطيل في هذا وفي وصف الفقيد بكل بر وتق حتى ينتهي إلى وصف كرمه :

كأن أديم الأرض قد من اسمه فما وجدت إلا وفيها له ذكر  
وما كان يدري من تيمم جوده ونكب لج البحر أنهما البحر  
ومعني في التفتي بهذا السكرم بمعاني طريفة وصور رائعة ثم لا ينسى أن يذكر  
أن القدر محتم وأن الموت لا بد منه :

وكيف يرد الطبأُ أمراً مقدراً إذا كان ذلك الأمر من له الأمر  
والفقيد لم يمت ، لما خلف من ذكر طيب وأخلاف كأنهم الأنجم الزهر :  
وإن لنا من بعده من سليله مليكاً به عن فقدته يحسن الصبر  
فإن غاب ذلك البدر عن أفق ملكه فقد أشرقت من نجمة أنجم زهر  
ويختتم القصيدة بالبكاء عليه والترحم له :

سأبكيك بالأشعار حتى إذا وهت سلوك عقود النظم أتجدني النثر  
عليك سلام الله ما ذكر اسمك وذلك بين الناس آخره الحشر

وإذا رجعنا إلى أبي تمام وجدناه ينتقل « بعد تصوير الحزن وكبر الفاجعة  
إلى ذكر محامد الفقيد فيصفه بالسكرم في أبيات قلائل :

وما كان إلا مال من قل ماله وذخراً لمن أمسى وليس له ذخ

ثم يصفه بالشجاعة في شعر حماسي رائع « ولا جرم فريته مات شهيداً في معركة للدفاع عن الاسلام :

فتى مات بين الطمن والضرب ميتة    تقوم مقام النصر إن فاته النصر  
وما مات حتى مات مضرب سيله    من الضرب واعتلت عليه القنا السم  
وينقل بمد ذلك إلى ذكر غدر الأيام ومساءات الدهر :

لئن أبغض الدهر الخوون لفقده    لمهدي به ممن يحب له الدهر  
لئن غدرت في الزوع أيامه به    فما زالت الأيام شيمتها الفسدر  
ويختتم قصيدته بالتسليم عليه :

عليك سلام الله وقفاً فاني    رأيت الكريم الحر ليس له غمر  
فالقصيدتان من نفس الدرجة في الجودة    في جزالة الشعر ودقة التعبير وصدق  
العاطفة    فكل منهما يرثي انساناً نصله به عاطفة الحب    وكل منهما بحس نحو  
فقيدته إحساساً صادقاً بالفقد فيجزع لذلك    ويحزن ويتألم ولا يجد ما يعبر به  
إلا شعره ففريته أعظم رثاء .

ويظهر لنا أن نفس الصفي أطول من نفس أبي تمام    ففي حين كانت قصيدة  
الصفي ( خمسة وخمسين بيتاً ) كانت قصيدة أبي تمام ( واحداً وثلاثين بيتاً ) .  
ولكن مما لا شك فيه أن الصفي تأثر بمرثية أبي تمام وأطاد منها وإلا لما عارضها  
وقد ظهر تأثره بمظاهر عديدة ، فآلماني التي يطرأها واحدة ، وفي القصيدتين  
حماسة كثيرة    ووصف الاثنان الدهر ومصائبه والدنيا وأقدارها ، واختتم  
الشاعران قصيدتيهما بالسلام على الفقيد . وكرر أبو تمام كلمة « فتى » في بداية  
خمسة أبيات :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة    دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر  
فتى دهره شطران فيما ينوبه    فني بأسه شطروني جوده شطر  
فتى ... ..

فلم يفت ذلك صفي الدين وكررها في أول سبعة أبيات :

فتى كان مثل الدهر بطشا وبسطة  
يرجي ويخشى عنده النفع والضر  
فتى طبق الأرض البسيطة جوده  
ففي كل قطر من نداء بها قطر  
فتى .....

وهكذا كان يعارضه ويحجري على إعطه في المعاني وفي الصياغة وطريقة التعبير  
ولا ريب في أن الفضل لأبي تمام ، فهو السابق لا من حيث الزمن فحسب  
ولكن من حيث الابداع الفني أيضاً .



وأما قصيدة ابن المعتز فهي القصيدة التي يهجو بها آل البيت ومطلعا :

ألا من لعين وتسكابها تشكي الأذى وبكاهها<sup>(١)</sup>

وليس معارضة الصني لها معارضة الإعجاب وإنما معارضة رد ومناقضة ، فقد  
طلب نقيب الأشراف بالعراق « ( تاج الدين الآوي ) » ، من صني الدين أن  
يرد على ابن المعتز ويفند مزاعمه فقال الصني ارتجالاً في مجلسه :

ألا قل لشر عبيد الآله وطاغي قريش وكذابها

وباغي العباد وباغي العناد وهاجي الكرام ومفتابها

أأنت تفاخر آل النبي وتبجدها أفضل أحسابها

وقصيدة ابن المعتز ضعيفة وتضم بعض أفكاراً يناقض بعضها بعضاً ، وعدتها  
أربعون بيتاً أكثر من عشرين منها في معاني طائفة ، يدور فيها حول  
الموضوع ولا يدخل صميمه . ولا يحس بذلك إلا بعد أن يقطع نصف  
الشوط فيقول :

نصحت بني رجمي لو عوا نصيحة برّ بأنسائها

وقد ركبوا بغيهم وارتقوا بزلاء تردّي بركابها

فيظهر نفعه بمظهر النصيحة الذي يريد الخير لأقاربه « ولكنه مرهان ما يدل  
بفطرسه ويزهو بمظاهر خداعه فيقول :

دعوا الأسد تفرس ثم اشبعوا بما تدع الأسد في ظاهها  
 قتلنا أمية في دارها ونحن أحق بأسلابها  
 ثم يناقض ابن المعتز نفسه في معتقده فيقول : إنهم ورثوا ثياب النبي ولا يجوز  
 أن يرثها العلويون ، في حين أن مذهبه لا يسمح بوراثه الأنبياء . ويعترف  
 بأن للعلويين رحماً لكنه يقول إن العباسيين أحق بهذا الرحم لأنهم أبناء  
 عم النبي :

ونحن ورثنا ثياب النبي فكم تجذبون بأهدابها ؟  
 لكم رحم يا بني بفتنه ولكن بنو أولى بها  
 ويدل على العلويين بأن أيام ثبت في ( يوم حنين ) حين تفرق عن النبي الناس  
 وظل يدافع عنه ، ونسي أن علياً كان معه في موقفه ذاك . ويختتم  
 قصيدته بقوله :

وأقسم أنكم تعلمون بأننا لها خير أربابها  
 وقد بدأ الصفي قصيدته بهجاء ابن المعتز « لكنه جاء مع هجائه هذا بما يبين  
 له أن له أن العلويين خير منه » فن خبر المباهلة إلى نص القرآن بأن الله طهر  
 آل بيت الرسول :

بكم باهل المصطفى أم بهم فرد العدة بأوصابها  
 أعنكم نفي الرجز أم عنهم لظهر النفوس وألبابها  
 ويسير الصفي في حججه القوية واحدة تلو الأخرى « دون غموض وإبهام »  
 ويرد على آراء ابن المعتز واحداً واحداً فيقول :

وقلت : ورثنا ثياب النبي فكم تجذبون بأهدابها ؟  
 وعندك لا يورث الأنبياء فكيف حظيتم بأثوابها ؟  
 فكذبت نفسك في الحالتين ولم تعلم الشهد من صابها  
 فالصفي يجادل جدلاً منطقياً ، يأخذ المسألة ويقلبها على شتى الوجوه « يقدم  
 لها المقدمات ويستنتج النتائج » ويعطي بعد ذلك الحكم . يريه أنه كذب

نفسه في الحالتين إذ يدعى بوراة أثواب النبي في حين أن معتقده لا يسمح بوراة الأنبياء ، وهذا تناقض في مسألة واحدة . ويذكره بأب جده ( ابن عباس ) لا يرضى بهذا فقد كان مع الامام علي ( ع ) في خلافه مع معاوية . وقد حاول الامام أن يجعله أحد الحكيمين ، لكن أعداءه لم يرضوا بذلك لأنهم يعرفون تقديره لابن عمه وأيمانه بأحقية في الخلافة ؟ ونقته بأنه على حق في كل أعماله .

أجدهك يرضى بما قلته وما كان يوماً بمرتابها  
وكان ( بصفين ) من حزبهم الحرب الطفلة وأحزابها  
وقد شمر الموت عن ساقه وكشرت الحرب عن نابها  
فأقبل يدعو إلى حيدر بارغابها وبارهابها  
وآثر أن ترضيه الأنعام من الحكيمين لأسبابها  
ليعطي الخلافة أهلاً لها فلم يرضوه لاجبابها  
وكان ابن عباس يصلي طول حياته مع الناس شأنه كشأن أي واحد منهم في  
حين أن علياً كان إمام الناس يصلي في صدر المحراب فصلي ابن عباس خلفه :  
وصلي مع الناس طول الحياة وحيدر في صدر محرابها  
فهيلاً تقمصها جدكم إذا كان إذ ذاك أخرى بها  
ويعيد اليه قصة الشورى التي نظمها ( عمر بن الخطاب ) ( رض ) لاختيار خليفة  
المسلمين فكان علي من الستة الذين اختارهم في حين لم يكن ابن عباس منهم :  
وإذ جمل الأمر شورى لهم فهل كان من بعض أربابها  
أخاسمهم كان أم سادساً وقد جلبت بين خطابها  
ويرد على ادعاء ابن المعتز أنهم أحق بها لأنهم أبناء عمه :  
وقولك : أنتم بنو بنته ولكن بنو العم أولى بها  
بنو البنت أيضاً بنو عمه وذلك أدنى لأنسابها  
فيذكره أن بني البنت هؤلاء هم أيضاً بنو عم الرسول . وبذلك يكون نسبهم

إلى الرسول أقرب لأنهم يرتبطون به عن طريق البت وطريق العم .  
وبعد كل هذا يخرج **ج** بنتيجة هي أن الخلافة ليست من شأنه وقد تقمصها  
ساعة واحدة ثم طرده منها شر طردة فليترك الكلام فيها :

فدع في الخلافة فصل الخلاف فليست ذللاً لركابها  
وما ساورتك سوى ساعة لما كنت أهلاً لأسبابها  
وكيف يخصوصك يوماً بها ولم تتأدب بآدابها  
ويرد عليه حين يقول أنهم قتلوا أسود أمية بأن الذي صنع ذلك ( أبو مسلم  
الخراساني ) الذي كان موالياً للعالميين . فيقول له :

وقلت : بأنكم « القاتلون ... أسود أمية في غابها »  
كذبت وأسرفت فيما ادعيت ولم تنه نفسك عن عاها  
فكم حاولتها سراة لكم فردت على نكص أعقابها  
ولولا سيوف ( أبي مسلم ) لعزت على جهد طلابها  
وذلك عبدٌ لهم لا لكم رعى فيكم قرب أنسابها  
فجازيموه بشر الجزاء لطفوى النفوس وإعجابها  
ويقارن الصفي بمد كل هذا بين خلق العالميين العاملين العابدين الراكعين  
الماجدين وبين خلق العباسيين اللاهين العابثين :

م الزاهدون م العابدون م الساجدون بمحارباها  
م الصائمون م القائمون م العالمون بآدابها  
م قطب ملة دين الاله ودور الرعى حول أقطابها  
وبختتم قصيدته بتقديم النصيح إلى ابن المعتز بترك هذه الأمور ، والاهتمام بما  
هو فيه من اللهو بالغانيات والسكر « وقول الشعر في تعاطي الخمر ووصف  
مجلسها ومدح ترك العبادة والصلاة :

عليك بلهوك بالغانيات وخلّ المـالي لأصحابها  
ووصف المذار وذات الخمار ونعت المقار بألقابها



وشعرك في مدح ترك الصلاة وسمي السقاء بأكوابها  
فذلك شأنك لا شأنهم وجري الجياد بأحسابها  
فلاحظ من كل هذا أن قصيدة الصني « وإن كانت أبياتها بقدر أبيات قصيدة  
ابن المعتز » إلا أنها اشبهت الغرض « فقد تحدث في صميم الموضوع ولم  
يحم حوله .

وبالإضافة إلى هذا فهناك قصائد أخرى عارضها الصني لكنها تأتي بعد  
هذه القصائد في الأهمية . . فقد عارض ( وصف واد ) للشاعر ( المنازي )  
الذي يقول فيه :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث للعميم  
فقال الصني في وصف واد خصيب :  
وواد تسكر الأرواح فيه وتحقق فيه أرواح النسيم  
به الأطيّار قد قالت وقالت كلاماً شافياً داء الكلام  
تسلسل في خمائله مياه يقد أديمها قد الأديم  
سروج للقلوب لها امتزاج كأن عيونها أيدي الكريم  
كما نجد القصيدة السكافية من قصائد ( درر النحور في مدائح المنصور ) على  
وزن وقافية قصيدة ( الشريف الرضي ) المشهورة التي يقول فيها :  
يا ظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم أن القلب سراعك  
وقد بدا الصني قصيدته هذه بالغزل ، وقد زادت أبيات الغزل على خمسة عشر  
بيتاً يقول فيها :

كفي القتال وفكي قيد أسراك كفاك ما فعلت بالناس عيناك  
كلت لحاظك مما قد فتكت بنا فن ترى في دم المشرق أفتاك  
ونجد أن الصني قد أفاد من قصيدة ( الشريف الرضي ) لفظاً ومعنى .  
ويجب ألا لا يفوتنا أن نشير إلى الموشحات الكثيرة التي عارضها الصني  
ونظم على غرارها من موشحات الشعراء الذين تقدموا عليه .

## ٢ - ابداعه :

لقد اختلف النقاد والكتاب في معنى الابداع . فمنهم من رأى أنه هو أن يخلق الشاعر أو الفنان شيئاً من العدم . فينتج أثراً لم يكن له وجود من قبل ، فهذه الكلمة مرادفة لكلمة الخلق . فالشاعر حين يحس إحساساً ما ، ويعبر عن هذا بقصيدة يبرزها إلى الوجود إنما يبدع خلقاً سوياً في عالم الأدب ، لم يكن موجوداً قبل لحظات . ومن قائل إنه إيجاد الفنان أو اختراعه شيئاً جديداً له سميات جديدة وخصائص جديدة وكل شيء فيه جديد ، لم يكن يعرفه أحد قبل أن يوجد ، كأن يبتدع شاعر فناً من الفنون الشعرية لم يكن معروفاً من قبل ، كالذي اخترع فن الموشح ، أو فن الرجل . فهذا الفن جديد لم يكن قبل مخترعه معروفاً في الشعر العربي . ومنهم من قال : الابداع بمعنى الاجادة والاتقان . . . فالشاعر يبدع في قصيدة يصف فيها الطبيعة عندما يكون وصفه دقيقاً صادقاً يعبر عما أحس به من مجالي الطبيعة وفتنتها ويصور لنا المنظر وكأنه أمامنا بألوانه وبهائه ورونقه وجماله وأنواره وظلاله . فنعجب به وكأننا ننظر إليه . وهناك فريق من الفنانين يرى أن الابداع ليس ممناها الخلق من العدم وإنما قد يكون الأثر الأدبي موجوداً من قبل لكن المبدع ينفت فيه الحياة فيجعله متحركاً حياً . وسواء أكان معنى الابداع هذا أو ذاك فقد هيأت الظروف لصفي الدين أن يبدع في الشعر فيخلد شعره رغم السنين ، وسيظل خالداً أبداً الآبدى .

فقد أبدع الصفي بالرغم من أن عصره لم يكن عصر إبداع ، بل لم يكن عصر شعر وأدب ، فهو عصر انحطت فيه كل مظاهر الحياة وتأخرت وتدهورت الحضارة الاسلامية وفسدت ، ومات الشعر وأصبح جسداً بغير روح ، ولم يمد له ذلك المجد القديم وتلك السطوة . ولم يبق فيه ذلك الجمال وتلك البهجة . ولم يكن هناك أحد ممن يشجعه ويرعاه . ويحمي أبطله من غائلات الزمن ،

فترك الشعراء الشعر ، وأهمل الأدباء الأدب وانشغلوا في خضم الحياة باحثين عن الرزق . فكيف يمكن أن يوجد من الشعراء من ينهض بالشعر ، ومن يجود به من يبدع ويخترع ؟

ومع هذا فقد وجد الصني فأبدع وخلد ، وجد إذ ساعدته ظروف عديدة على أن يقف للتيار الجارف ويثبت للعاصفة الهوجاء ، فظل محافظاً على بهاء الشعر وجماله ورونقه ورقته وجزالته وفصاحته ولعل من هذه الأسباب :

١ - ذلك التراث الأدبي العظيم الذي ورثه عن أجداده الطائيين من شعراء وأدباء أمثال : ( حاتم الطائي ) و ( أبي تمام ) و ( البحتري ) و ( السنبي ) وغيرهم فـكونت عنده موهبة كامنة في النفس وطبيعة شعرية سهلة مواتية .

٢ - تلك النهضة الأدبية التي كانت مزدهرة في الحلة يوم ولد فيها الصني فشب في ظل دنيا ممطرة بشذا الأدب فواحة بعرف العلم . فاستطاع أن يشبع رغبته الأدبية ويروي غليله ، فصقلت موهبته وتهذب طبعه .

٣ - وقد توفر له ما لم يتوفر لغيره من الشعراء من الغنى الوفير والحسب الطريف والذهب التليد ، فكان يرفل في بحبوحة من العيش وعز ونعيم لا يشغله شاغل في نهاره أو ليله من مشاغل الحياة الكثيرة فاهتم بشعره وفنه ومال بكليته إلى موهبته وإشباع رغبته .

٤ - وتلك الثقافة الواسعة التي تنقف بها ، نظرياً من الكتب الكثيرة التي قرأها ، وعملياً من رحلاته وسفرائه وتنقلاته بين مختلف البلاد وجوسه خلال مختلف المجتمعات والطبقات والشعوب . ولهذا كان الصني الشعلة التي نقلت الأدب إلى الأجيال التي جاءت بعده . وكان القبس الذي ظل يتلأأ في ذلك الظلام الدامس حتى أضاء الدنيا في المصور المتأخرة فهو ، وشعراء قلائل ، حافظوا على روح الشعر العربي ، واستطاعوا أن يخلصوه من الفناء المحقق والموت الأكيد . كل هذا ساعد الصني على الابداع في الشعر بكل نواحي الابداع .

فقد أبدع لنا قصائد تعتبر من روائع الشعر وفرائد القصيد . فهذه قصيدته في الحماسة :

سلي الزماح الموالي عن معالينا	واسقشهدي البيض هل خاب الرجا فينا ؟
وسائلي العرب والأتراك ما فعلت	في أرض قبر (عبيد الله) أيدينا
لما سمعنا فارقت عزائمنا	عما نروم ولا خابت مساعينا
يا يوم وقعة زوراء العراق وقد	دنا الأطاذي كما كانوا يدينونا
بضمير ما ربطناها مسومة	إلا لنغزو بها من بات يفرزونا
...	...

هذه القصيدة ملأى بكل معنى جليل ، وفكر راق ، وخيال خصب ، وأسلوبها جزل قوي متدفق فياض .

وأما قصيدته التي يحرض بها (الملك الصالح) على التخلص من المغول فهي إنذار حربي « لا شك في ذلك » يستنهض الهمم ويحرض على الوثوب ويدفع الأمة كلها دفعاً إلى قتال قوم اغتصبوها حقها وساموها الخسف ولكن هذا كله مشرب بالحكمة فالعاطفة عنده تتزاج مع العقل « والحس لديه يتمازج مع الفكر ، فتأتي القصيدة ناضجة عقلاً وقلباً .. فكراً وعاطفة . يقول فيها :

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا	ولا ينال العلى من قدّم الحذرا
ومن أراد العلاء عفواً بلا تعب	ففى ولم يقض من إدراكها وطرا
لا بد للشهد من نحل بمنّمه	لا يجتني النفع من لم يحمل الضررا
لا يُبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة	ولا تتم المنى إلا لمن صبرا
وأحزم الناس من لو مات من ظمأ	لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا
...	...

يا أيها الملك الباني لدولته	ذكر أطوى ذكر أهل الأرض وانتشرا
كانت عدالك لها دست فقد صدعت	حصاة جدك ذاك المدست فانكسرا
فاوقع إذا غدروا سوط العذاب بهم	يظل بخشاك صرف الدهر إن غدرا

وارعب قلوب العدى تنصر بخذلهم إن النبي بفضل العرب قد نصرا  
ولا تكدر بهم نفساً مطهرة فالبحر من يومه لا يعرف الكدرا  
ظنوا تأنيك عن عجز وما علموا أن التأني فيهم يعقب الظفرا  
وهذه مدائح للرسول جاء فيها بصفحة فخار ناصعة تدل دلالة واضحة على  
إيمانه العميق « وإجلاله الخالص للرسول ، وحبه لآل بيته السكرام . وهو  
في كل هذه القصائد وغيرها كثيراً ما يبدع في التعبير عن شعوره أصدق تعبير »  
فيوجد شيئاً من العدم ، ويجيد في إيجاد هذا الأثر ويتقن صنعته « ويبعثه  
حيّاً يبلغ أسمى مكانة بين الآثار الأدبية الأخرى .

أما ما أبدعه من الفنون ولم يكن موجوداً « بالرغم من حبه المحافظة على  
الفنون القديمة في الشعر العربي » فقد اخترع ما أضافه إلى سجل الخترعين من  
الشعراء والأدباء . ولما كان مولماً بالصناعة أبما ولوع « لانتشارها في عصره  
والإزام الشعراء بإياها في شعرهم ونثرهم أبدع في اختراع الجنس المجنح ، فالجناس  
النام في البلاغة يتكون من جناس كلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى »  
ولكن الصني اخترع جناساً تتلاحق فيه ثلاث ألفاظ متشابهة ذات معانٍ  
مختلفة . وقد نظم قصيدة مرصعة بهذا الجنس :

سل سلسل الريق لم لم يرو حر ظا بل بلبل القلب لما زاده ألما  
قد قد قد حببي حبلي مصطبري أن أن أن أجتنى جرماً فلا جرماً  
مذ مل مل قلبي في تعبه لو كف كففك دمعاً منه سال دما

.....

واخترع الصني كذلك فناً في الموشح سماه ( الموشح المضمن ) وهو أن ينظم  
موشحة بضمناها قصيدة لأحد الشعراء المتقدمين ، كما ضمن غزلية أبي نواس  
البائية في موشحته :

وحق الهوى ما حلت يوماً عن الهوى ولكن نجمي في المحبة قد هوى

وما كنت أرجو وصل من قتلي نوى وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى  
ليس في الهوى عجبٌ إن أصابني النصيبُ  
« حامل الهوى تعبٌ يستخفه الطربُ »

ومن أطرف مبتكرات الصفي في هذا الباب ما سماه : ( تضمين البيت )  
وهو تضمينه لمقصورة ابن دريد المشهورة - هو أبو بكر محمد بن الحسن بن  
دريد الأزدي - التي يقول في مطلعها :

يا ظبيّة أشبه شيء بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا  
أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجي  
(١) ... ..

فقد نظم الصفي قصيدة يشكر بها إتمام ولدي ( الملك المنصور نجم الدين غازي  
ابن ارتق ) وهما : ( ناصر الدين محمد ) و ( عماد الدين علي ) إذ قدما له جواداً  
أصيلاً « فجعل نصف أبيات هذه القصيدة من مقصورة ابن دريد هذه .  
وبالرغم من أن قصيدة الصفي مقصورة أيضاً إلا أنه لم ينظمها على نفس وزن  
قصيدة ابن دريد التي نظمها في تام الرجز أي « مستفعلمن مستفعلمن مستفعلمن »  
فقد نظم الصفي قصيدته في مجزوء الرجز « مستفعلمن مستفعلمن » ومع هذا فإن  
الصفي استطاع أن يختار أبياتاً لابن دريد تتوفر فيها القافية التي يحتاجها بعد  
حذف ما يزيد عن الوزن الذي تتطلبه قصيدته فكان يأخذ ثلثي بيت ابن دريد  
ثم يأتي ببيتة هو ، ثم يردفه بثلاثي بيت آخر لابن دريد ، ثم يجيء ببيت له  
وهكذا . . . حتى كانت القصيدة ثلاثة وثلاثين بيتاً ( ٣٣ ) سبعة عشر منها  
لابن دريد ، وستة عشر للصفي ، وهي على النحو التالي :

برق المغيّب قد أضأ بإعراض مثل الأضأ  
يشبه اشتعاله « بالنار في جزل الغضا » (٢)

(١) شرح مقصورة ابن دريد ص

(٢) كل ما بين هذه الأقواس « من شعر ابن دريد

« واتخذ التسبيد عيني مألفا لما جفا »  
 « وكنت ذا بأس فذ » ماندي صرف القضا  
 « رضيت قسراً وعلى القسر رضى من كان ذا »  
 « لي أسوة ( بن الزبير ) إذ أبى حمل الأذى »  
 « و ( ابن الأشج ) القيل ساق نفسه إلى الردى »  
 « وهكذا جد أبو الخير لادراك المني »  
 « وقد سما قبلي ( يزيد ) طالباً شأو العلي »  
 « وقد رمى ( عمرو ) بهم كيده قلب العدى »

... ..

وقد اختتم القصيدة ببيتين من شعر ابن دريد :

« فان أعش صاحبته دهرى طالما بما انطوى »  
 « وإن أمت فكل شيء بلغ الحد انتهى »

وهناك ما هو أطرف من هذا ، فقد أرسل الصفي قصيدة لأحد أصدقائه يذكره فيها بالوقائع التي قدم فيها الصفي له النجدة « وهو اليوم في حاجة إلى نجدة فلا ينجده . ولم ينظم الصفي من هذه القصيدة سوى صدر المطلع وصدر الختام « أما بقية الأبيات فليست من شعره « فقد عمد إلى عشرين بيتاً من لامية المعجم للطبراني - وهو مؤيد الدين أبو اسماعيل الحسين بن علي بن محمد ابن عبد الصمد المتوفي سنة ٥١٥ - التي مطلعها :

أصالة الرأي صانتي عن الخطل وحلية الفضل زانتي لدى العطل<sup>(١)</sup>  
 فأخذ أعجازها وخرج لها عشرين صدرأ اختارها من أعجاز قصيدة أبي الطيب المتنبي التي يعاتب بها سيف الدولة الحمداني « والتي أولها :

واحر قلباه ممن قلبه شيم ومن بجسمي وحالي عنده سقم  
 مالي أكتنم حباً قد برى جسدي وتدعي حب سيف الدولة الأعم<sup>(٢)</sup>

« وقد ناسب الصفي بينهما مناسبة عجبية توافق غرضه ، فجاءت وكأنه نظمها بنفسه في هذه المناسبة »<sup>(١)</sup> استمع إليه يقول :

قل للخلي الذي قد نام عن سهري (ومن بجسمي وحالي عنده سقم)<sup>(٢)</sup>  
 « نام عيني وعين النجم ساهرة »<sup>(٣)</sup> (واحر قلباه ممن قلبه شيم)  
 « فالحب حيث المدى والأسد رابضة » (فليت أنا بقدر الحب نقسم)  
 « فهل تعين علي غي همت به » (في طيه أسف في طيه نعم)  
 « حب السلامة يثني عزم صاحبه » (إذا استوت عنده الأنوار والظلم)  
 « فأن جنحت إليه فأنخذ نفقاً » (ليحدثن لمن ودعتهم ندم)  
 « رضى الذليل بخفض العيش يخفضه » (وقد نظرت إليه والسيوف دم)  
 « إن العلي حدثني وهي صادقة » (إن المعارف في أهل النعمى ذمم)  
 ... ..

وقد اختتم الصفي هذه القصيدة بأبيات تشير إلى هذا التضمين وهي :

« وبأخبراً على الأمرار مطالماً » (فيك الخصاص وأنت الخضم والحكم)  
 « قد رشحوك لأمر لو فطنت له » (تصاحفت فيه بيض الهند والدم)  
 « فافطن لتضمين لفظ فيك أحسبه » (قد ضمن الدر إلا أنه كلم)

### ٣ - منزلته :

كان الصفي يتمتع بمكانة ممتازة في المجتمع ، ولا عجب فهو ابن أسرة من أكرم الأسر العربية تمتد أصولها إلى قبيلة طيء . وهو يمتاز بأكرم الصفات وأفضل الخلق ، وقد وهبه الله عقلاً كبيراً وعلماً غزيراً ومالاً وفيراً . وكان

(١) ديوان صفي الدين ص ٣٤

(٢) الأشرط التي بين هذين القوسين ( ) للتاني

(٣) الأشرط التي بين هذه الأقواس » » للطفرائي



آباؤه وأقاربه ذوي سراكزهامة ومكانة ممتازة في الحلة فقد كان خاله (صفي الدين ابن حمزة) صدر الحلة - كما مر بنا - لهذا كله كان يستطيع أن يدخل أي بلد من البلدان العربية معزراً مكرماً - مقدراً محترماً . وقد اختار ماردين وطناً له - للهدوء الذي كانت تتمتع به حين رحل من العراق - فأكرمه السلاطين الأرمنيون وأعلوا قدره واشتاق له سلاطين البلاد الأخرى . وقدره الناس واحترمه العلماء وقربه الملوك .

وكان الصفي مقدراً عند هؤلاء السلاطين كأنه واحد منهم - وكان يقضي معهم أكثر أوقاته وكانوا لا يرضون أن يفارقهم . . ويحضر معهم مجالس الأنس والطرب والحل والشراب ، وكان لا يخيب له رجاء عندهم ، وعرف الناس ذلك فصاروا يرجونه لقضاء حاجاتهم . وكان حين يمدح هؤلاء السلاطين يطلب أن يقضوا بعض حاجات الناس - وقد أثقل مرة على الملك الصالح بمدة حاجات فقضاها جميعاً ، فقال :

رعى الله ملكاً ما رمتني بربعه      مراحي النوى إلا بلغت مراميا  
وكم حاجة حاولتها من جنبه      وألحقت في قولي له وخطايا  
فلم يلق الحاسي بحب وإنما      أجاد التفاضي إذ أسأت التفاضيا

ومما يدل على منزلته أنه كان يرد على هدايا الملوك هدايا مثلها - فقد أرسل إليه (الملك الأفضل) صاحب حماة تحفاً وهدايا ، فأرسل له الصفي قصيدة ومعه مملوك تركي وقاش من ماردين - ومطلع هذه القصيدة :

سوى حسن وجهك لم يحل لي      وغيرك في القلب لم يحل  
ويقول فيها :

وكفرت عن زلة الانقطاع      بأحسن من كان في منزلي  
فأرسلته راجياً أنه      يحض عن زلة المرسل

والى هذا كله كانت منزلته الأدبية لا تقل عن منزلته الاجتماعية بأي حال . لأن شاعريته لم تكن طادية ، فهو شاعر فحل « ذو طبيعة مواتية سهلة ، وموهبة طبيعية فطرية . لا تبخل عليه شاعريته ولا تتعبه » وتمنحه ما يريد حيث يريد دون تعب وإرهاق ودون جهد أو تكلف . وكثيراً ما ارتجى الشعر فكان يتدفق من خاطره تدفق المين الثارة « ويجري على لسانه جريان الماء السلسال . ومن طريف ما يروى في ذلك أنه رد على قصيدة ابن المعتز ارتجالاً في مجلس نقيب الأشراف بالعراق بقصيدة قوية طويلة ...

وظل يصف مجلس السلطان الملك الصالح في المساء ، حين تحضر الشموع لتضيء المجلس « وصفاً جليلاً » والتزم ذلك لمدة شهر يرتجل كل يوم قصيدة رائعة منها هذه القصيدة :

أنجوم روض أم نجوم سماء	كشفت أشعتها دجى الظلام
أشرفن في حلل الظلام فحدقت	حسداً لمن كواكب الجوزاء
من كل هيفاء المعاطف قومت	قسداً كقد الصعدة السمراء

... ..

وأسمه ( الملك المؤيد ) وزناً طويلاً وقافية معينة وأخبره أن جماعة من الشعراء حاولوا أن ينظموا فيه فأخطأوا فارتجل الصفي هذه القصيدة على نفس الوزن :

إن قصر لفظي فإن طولك قد طال يا من فعل البر والجميل كم قال

... ..

والصفي من الارتجال غير هذا كثير « وخاصة في المقطوعات ، فالمقطوعات الهجائية كان يقولها بسرعة تدهش السامع « فهو حاضر البديهة ، مسيطر على اللغة والنظم ، لا يكابد فيه عصرأ ولا يلاقي عنتاً » واللمعة في يديه كالمجينة في يد المثال الماهر يصنعها كيف يشاء « ويكيفها حسب ما يريد ، وكأن ألفاظ اللغة مرسومة أمامه يختار ما يحتاج في أي وقت « فهو حين ينظم الشعر لا تتعبه قافية أو بشكل عليه نمبر ، فشاعريته من النوع الفذ الفريد الذي لا

يتأتى لكل إنسان . وكان شعره من النوع الذي يعجب السامعين فيسري على كل لسان ويفتشر في كل مكان . ولذلك ذاع صيته ، وتناقل الناس شعره . وحفظوه ، وصار الملوك يخطبون وده ليخلدتم في شعره . وها هو يصور ذلك مخاطباً الملك المنصور :

لقد حسد الأقوام لفظي وفضله      وقد غبطوا إحسانه ولسانيه  
ولولاك لم تمن الملوك بمنطقي      ولا خطبوا مدحي لهم وخطايه  
ولولاك لم يُعرف مُستَهَيّ بينهم      ولا أصبح اسمي في الممالك ساميه  
ولاسيما لما رأوني راغباً      عن الرغد لا أبغي من المال باقيا

فهو يبين لنا أن الملوك تمنى بشعره وتخطب وده . وأن اسمه يدوي في سائر الممالك ، وهو راغب عن هؤلاء الملوك لا يمدحهم ولا يفد اليهم . ويقول أيضاً :

وبك استعذب الملوك كلامي      ورعوا حق حرمتي وعهودي

ولهذا السبب طلب منه الملك الناصر أن يجمع ديوان شعره فجمعه في بلاطه . وكان صفي الدين شاعر عصره . وكبير الشعراء في ذلك الزمان دون منازع ، وقد اعترف بهذا معاصروه فقال الصفدي : « وهو شاعر عصرنا على الإطلاق » وصرح بمثل هذا كل من كتب عنه أو ترجم له . وكان الشعراء والأدباء والعلماء يحترمون منزلته ويهابون موهبته ويمجبون بعلمه وأدبه . وينظرون إليه جميعاً بعين الاكبار والاحلال . ويرون أنه هو الذي حافظ على روح الشعر العربي بجميع مميزاتة وخصائصه وصفاته . وأن شعره لا يقل في أي حال من الأحوال عن شعر الفحول المتقدمين أمثال المتنبي وأبي تمام والبحتري وغيرهم . وربما كان هناك من يفضله على من سبقوه إذ قال فيه الشاعر ( جمال الدين بن نياته المصري ) :

ياسائلي عن رتبة ( الحلي ) في      نظم القريض وراضياً بي أحكم  
للشعر حليان : ذلك ( راجح )      ذهب الزمان به « وهذا قيم <sup>(١)</sup>

بل يذهب إلى أبعد من هذا فيفضله حتى على البحري :

حبذا من إمام لفظ وفعل نشر الذكر في البلاد دطاته

ناظم يشتكي ( الوليد ) قموذاً حين تتلو رواته أبيان<sup>(١)</sup>

وقد قال فيه ( الشيخ شمس الدين عبداللطيف ) : « ما نظم الشعر مثله أحد من المتقدمين والمتأخرين » وهذا القول وإن كان فيه الكثير من المبالغة ، إلا إنه يصور لنا منزلة الصفي بين أدباء عصره وعند نقاد زمانه ، فقد كانوا يقدمونه على جميع الشعراء ، ويرفعونه إلى أعلى المراتب ، ويسمون بشعره إلى أرقى منزلة .

وقد عرف الصفي منزلته هذه فكان يدل بها في شعره ، وكان غالباً ما يختتم قصيدته مفتخراً بموهبته وشاعريته ، سواء أكانت القصيدة حماسية أو مدحاً أو رثاءً أو شكراً . . . أو غير ذلك ، يقول في خاتمة قصيدة مدح بها ( الملك المنصور ) :

فلئن رحلت فقد تركت بدائعاً غصبت فصول الحكم من لغمان

وخريدة هي في الجمال فريدة فهي الغريبة وهي في الأوطان

معتادة نهب الحليل صداقها نغراً على الأكفاه والأقران

لا عيب فيها، وهو شاهد حسنها، إلا تبرجها بكل مكان

وحين يرثي الملك الناصر يقول مفتخراً بشعره :

ولما نظمت الشعر فيك فلامداً تمت نجوم الليل لو أنها شعر

... ..

أو يقول مبيناً أن رثاءه خالد ، يكسب الخلود حين يرثي به أحداً ؛ قال في رثاء القاضي ( شهاب الدين محمد ) كاتب السر بدمشق :

فسوف ترثيك مني كل قافية بها لذكرك بين الناس تخليد

وأسمع الناس أوصافاً عرفت بها حتى كأنك في الأحياء موجود

وقد يتعالى فيفضل شعر نفسه على شعر أكابر الشعراء بمن سبقوه . . . فما هو يزري بشعر بشار :

كمونك من قشيب الشعر برداً يهجن شعر ( بشار بن برد )  
ويقول إن قصيدته تفخر على قصائد المتنبي :

علي ( أبي الطيب ) الكوفي مفخرها إذ لم أصغ مسكها في مثل كافور  
وقد يرجع إلى أبعد من ذلك فيرجع إلى الحطيئة وليبد بن ربيعة ، فيفضل شعره على شعرهما وشعر سواهما :

فاستمها بكراً حاهبا ضياء الحسن مني من ظلمة التقليد

هجت شعر كل من نطق الضاد جميعاً لا ( جرول ) و ( لبید )

أما أهل عصره فهم في اعتقاده لا يمكن أن يصلوا إلى مرتبته :

إذا رام أهل العصر نظماً لمثلها وجاءوا بلفظ دونها وتكلفوا

ظننت حبال السحر ما قد أتوا به وتلك عصا موسى لها تتلقف

وربما غالى في فخره بشعره فعده منزهاً عن العيب :

يسامرنى في الفكر كل بدیعة منزهة الألفاظ عن قدح طائب

فهو مؤمن بالنقد ، وبأن الشعر الجيد هو الذي يقف ثابتاً راسخاً أمام النقد ، فيعلو قدره وتسمو منزلته :

والشعر كالتبر يخفى حين تنظره عين الغي ويخلو حين ينتقد

غليس كل انسان يعرف قيمته ويقدر جماله :

والشعر ثوب ليس يعرف قدره من بعد صاحبه سوى بزاز

وبالرغم من أن الصبي كان يقول الشعر على طبيعته :

صفت القريض ولم أقله تكلفاً لكنه طبع لدي عزيز

إلا أنه كان - أحياناً - ينقح الشعر وبهذه ، استمع إليه بين رآيه في ذلك :

ليس لغات العرب لفظ الفرس كأتني لضيقه في حبس

فأترك الشعر شديد اليبس وإنما أجيل فيه حمسي

فإن تعب ما قلته بالأمس فلم أرد إلا زوال اللبس  
وإعما ففحت شعر نفسي وليس نظم الشعر شاه المس  
وهكذا كان شعر الصفي ، وهكذا كانت منزلته ، وهكذا كان يعرف منزلته  
العظيمة ■ مكانته الرفيعة بين شعراء عصره وشعراء سائر المصور .

## ٤ - تأثيره في أخلاقه :

كل مبرز في ناحية من نواحي النشاط الانساني لابد أن يشغل الناس ■  
ويذيع صيته بينهم ■ ولابد أن يكون له معجبون ■ ويكون هناك من يقلده  
في هذا النشاط فيتلمذ عليه ويتأثر به . وصفي الدين الذي طبقت شهرته الآفاق  
وذاع شعره في مختلف البلاد ، لا ريب في أنه أثر في كثير ، أو قليل ، من  
الشعراء الذين جاءوا بعده .

ولو كان تأثير الصفي هو محافظته على روح الشعر العربي فقط لكني ، فإنه  
وصل بين الشعراء المتقدمين وبين من جاء بعده من أجيال ■ ولولاه لانقطعت  
الصلة وبقيت هناك حلقات مفقودة وفصول ناقصة . فهو الذي حافظ للشعراء  
على ميزات الشعر العربي القوي الرصين الجزل المتين ■ السهل الرقيق ■ بكل  
أغراضه وكافة فنونه وجميع أنواعه . ولابد أنه قد تتلمذ على الصفي شعراء  
كثيرون ممن كانوا فرسان النهضة الحديثة في الأدب العربي . والمدقق في  
دواوين الكثير من هؤلاء الشعراء يجد آثار الصفي واضحة في شعرهم دون  
منازع ■ فهناك من ضمن أشعاره ■ واقتبس معانيه ، ألا تجد معي أن  
قول ( أحمد شوقي ) في رثائه لمحمد فريد :

كل حي على المنية غادي تتوالى الركاب والموت حادي  
كرة الأرض كم رمت صولجاناً وطوت من ملاهب وجياد<sup>(١)</sup>

مقتبس من قول الصفي في رثاء قاضي القضاة بمارد بن ( شمس الدين عبدا لله  
ابن المذهب ) :

غير أن الأيام بالخلق تجري لبلوغ الآجال جري الجياد  
كيف ترجو المقام والخلق سفر نحن ركب وحادث الدهر حادي  
وهناك أيضاً من شطر أو خمس أبياته . فهذا الشاعر الحلي الملا عباس بن القاسم بن  
ابراهيم الزبوري المتوفى سنة ٥١٣١هـ ، خمس أبياته في الامام علي فقال :  
صفي ذو الأصل مذ حدثت صمّا به الرحمان خصمكم و صمّا  
فقلت لمن به الانعام نمتا ( أمير المؤمنين أراك إما )  
( ذكرتك عند ذي حسب صفي لي )

... ..

براك الله للمخلوق آيا تحبك كي يبين لها السجايا  
فتمتاز الهداة من البغايا ( وهأنا مخبر عنك البرايا )  
( فأنت محك أولاد الخلال )

وقد كان لخنزعات الصفي الشعرية أثر في الشعراء الذين خلفوه أيضاً . وكان  
له تلاميذ في فن ( البديعة النبوية ) إذ هذا حذوه كثير من أسلافه حتى زادوا  
على ثلاثين شاعراً منهم : ابن حجة الجموي ، والموصلي ، والشاع والميوطي  
وغيرهم ممن مر ذكره ، فقد نظموا بديعيات على غرار بديعته بمدحون بها  
الرسول . وكان للصفي في هذا الفن تلاميذ من شعراء النصاري نظموا القصائد  
البديعية في مدح المسيح ورسله ، أشهرهم : ( الخوري نيقولا دس الصائغ ) .  
( والمطران جرمانوس فرحات ) ... والعجيب أن هؤلاء الشعراء لم يبرزوا الصفي  
ولم يزدوا على ما جاء به ■ بل ظل نجم الصفي متلألئاً لما عاى بهر نوره الناظرين  
دون أنوارهم أجمعين .

وأثر الصفي كذلك بفن ( الروضة ) الشعرية في شعراء كثيرين جاءوا  
بعده ■ بالرغم من أن شاعرين قد سبقاه إلى هذا الفن هما : ( أبو زيد

عبدالرحمن محمد الفاازي الجفشي ( الأندلسي المتوفى سنة ( ٨٦٣٧ ) صاحب  
( القصائد العشرية ) و ( مجد الدين أبو عبدالرحمن الشافعي ) البغدادي صاحب  
( القصائد الوترية ) . إلا أن قصائد الصفي ، الأرتقيات ، هي التي  
استطاعت أن تؤثر في الشعراء ، فتجعلهم ينظمون هذا الفن معترفين بأنهم  
يريدون أن يفعلوا ما فعله الصفي في أرتقياته « ويصلوا إلى بعض ما وصل  
إليه في هذه القصائد العظيمة . فهو أشهر من هذين الشاعرين اللذين سبقاه ،  
وشعره أوسع انتشاراً وأذيع صيتاً ، وأكثر سرياناً من شعرهما . وتتلذذ  
على الصفي في هذا الفن كثير من الشعراء منهم : ( محمد الغلابي الموصللي ) وله  
روضة في مدح ( أحمد الجليلي ) الموصللي « والشيخ ( ابراهيم بحبي العاملي )  
وله روضة بمدح بها الشيخ علي الفارسي أمير جبل عامل . و ( الشيخ صالح  
التميمي البغدادي ) وله روضة في مدح الشيخ محمد علي الحويزي ، و ( الحاج  
جواد بزقت السكر بلاني ) وله روضة في مدح الامام ( علي بن أبي طالب ) «  
و ( الشيخ حسن مصبح ) وله ثلاث روضات واحدة في الغزل والأخرى في  
مدح الامام ( علي بن أبي طالب ) والثالثة في رثاء الامام ( الحسين بن علي ) .  
وهؤلاء الشعراء لم يبلغوا أيضاً ما بلغه الصفي أرتقياته من حصن السبك وجمال  
الأسلوب ورشاقة اللغة وعذوبة الألفاظ والبعد عن التكلف .

---



## خاتمة

ولد صفي الدين الحلي السنجي الطائي في الحلة ، تلك المدينة التي أسسها المزيديون سنة ( ٣٩٥ هـ ) وحملت مشعل الحضارة الاسلامية ردحا من الزمن غير يسير ، وظلت ترقى سلم المجد حتى ولد الصفي سنة ( ٦٧٧ هـ ) وكان العالم الاسلامي يومذاك يتخبط في ظلام دامس بعد أن خيم الركود على الحياة الاسلامية وعم القلق والاضطراب في جميع نواحي الحياة سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية وأدبية . وكانت الحلة لا تزال نهضتها العلمية مزدهرة لم تمسها يد المغول بحوء بالرغم من تدمير مراكز العلم والحضارة والمدنية الاسلامية في العراق وخراسان .

وتربى الصفي في الحلة تربية ناعمة فيها كل ما في حياة أبناء الأشراف من عز وغنى ، فكان يتعلم الفروسية ويتدرب على الرمي بالسهم وصيد الحيوانات والطيور . وكان يمارس الألعاب المسلية ( كالترد والنشترنج ) . وقد بدأ تعليمه وتثقيفه منذ نعومة أظفاره « حفظ القرآن ودرس علوم الدين من فقه وأصول وتفسير وحديث ... وتلقى العلوم الأخرى من تاريخ وأخبار العرب وأيامهم وجغرافية وفلسفة ، وتعلم علوم العربية من نحو وصرف وعروض وبيان » ومال إلى قرض العمر فنظمه وجود فيه ولم يتمد العقد الأول من عمره بعد .

وكان الصفي يعتز باسلامه ، ويفخر به « ويذهب مذهب أهل بلده » يتعصب لعقائدهم الشيعة ، يحب آل علي ولا يرى غيرهم أحق بإمامة المسلمين . إلا أنه ما كان يتعرض لغيرهم بسوء ، ولا يجيز مجبهم كره سوام من الصحابة والتابعين « شأنه في ذلك شأن معتدلي الشيعة .

وقد طاش الصفي عقدين من حياته في وطنه . إلا أنه اضطر إلى مفارقتها بعد قتل خاله ( صفي الدين بن محاسن ) واشتراكه في معاركه للأخذ بئأره فالتجأ إلى ماردن وطاش في كنف الملوك الأرتقيين مدة غير قصيرة . ومدهم بقصائد طوال ووقف شعره عليهم وكان يحضر معهم مجالس اللهو والشراب فيصفها بشعر رقيق جميل ، ويخرج معهم للصيد فيبدع القصيد والأراجيز في وصف تلك الرحلات . واشتغل بالتجارة وجال البلاد وطاف الأقطار . ورحل إلى كل مكان فزار الحجاز وأدى فريضة الحج ، وغادر الحجاز إلى مصر . وكان له في مصر أصدقاء كثيرون . منهم ( جمال الدين محمد بن نباتة المصري ) الشاعر و ( صلاح الدين الصفدي ) الأديب المؤرخ و ( القاضي علاء الدين بن الأنير ) كاتب السر وهو الذي قدمه إلى الملك الناصر ، فأحتفى به وأكرمه وطلب منه أن يجمع ديوان شعره فجمعه في بلاطه . وعاد من مصر إلى ماردن ثم إلى العراق . وظل ينتقل من بلد إلى بلد حتى وافته منيته سنة ( ٨٧٥٠ هـ ) .

وقد خلف الصفي تراثاً أدبياً خالداً فيه آثار نثرية وآثار شعرية . فأما آثاره الشعرية فهي : ديوانه ، ودرر النحور في مدائح الملك المنصور ، والكافية البديعية .

فأما ديوانه فقد جمعه بنفسه في مصر وضمن فيه أكثر شعره ، وقسمه اثني عشر باباً . تحتوي على ثلاثين فصلاً ، كل فصل في فن من فنون الشعر المختلفة . وقد طبع هذا الديوان عدة مرات . وهناك كثير من النسخ الخطية مبثورة في مصر والعراق وإيران وغير ذلك من البلاد .

وأما ( درر النحور في مدائح المنصور ) فهي القصائد الأرتقيات التي نظمها في الملك المنصور في ماردن حين لجأ إليه فأحسن وقادته وأجزل صلته . ويضم ( تسعاً وعشرين قصيدة ) مرتبة على حروف الهجاء كل قصيدة ( تسعة وعشرون بيتاً ) ، كل بيت منها يبدأ بنفس حرف الروي فيكون للقصيدة قافيتان .

وشعرها جميل ليس فيه تمسف أو تكلف . وقد قال الصفي إنه أول من نظم هذه القصائد في هذا الفن . غير أنني وجدت شاعرين لها مثل ذلك كانا متقدمين على الصفي بزمان غير قصير . أولهما العلامة الفقيه ( أبو زيد عبد الرحمن الفازازي الجفشي الأندلسي ) المتوفى سنة ( ٦٣٧ هـ ) ، وله ( القصائد العشرية ) في النصائح الدينية والحكم والزهد . وثانيهما ( مجد الدين أبو عبد الله محمد البغدادي الشافعي ) المشهور بالوتري المتوفى سنة ( ٦٦٢ هـ ) وله ( الوترية ) في مدح الرسول وسماها ( معدن الافاضات في مدح أشرف الكائنات ) . ولعل الصفي أول من نظم مثل ذلك في مدح الملوك والسلاطين . أو لعله لم يطلع على آثار من سبقه في هذا الفن .

وأما البديعية ، فهي القصيدة التي مدح بها النبي ونظمها على وزن وقافية بردة البوصيري وقد ضمنها أنواع البديع فجعل في كل بيت نوعاً أو نوعين منه . وهي ( ١٢٥ ) بيتاً تشتمل على ( ١٥١ ) نوعاً من أنواع البديع . ويقول الصفي انه هو الذي اخترع هذا الفن وحذا حذوه كثير من الشعراء فيما بعد ، والواقع انه سبق الى هذا الفن ، ولكنه أول من نظم البديعية في مدح الرسول الكريم ( ص ) .

وقد مر شعر الصفي في مراحل ثلاث : الأولى مرحلة الصبا . أيام كان يعيش في الحلة شاباً مترفاً مدلاً . وكان شعره في طور التكوين . فكان يقلد الشعراء المتقدمين ويحذو حذوهم ويفيد من قصائدهم . وكان شعره في هذا الطور سهلاً لا تكلف فيه ولا تعقيد . يقتصر على بعض الأغراض . والمرحلة الثانية أيام كان يعيش في ماردين . فكان شعره وفقاً على الأرتقيين . إذ مدحهم بكثير من القصائد الجميلة ، وقد ظهر في شعره التعقيد والصناعة البديعية والمحسنات اللفظية . وأول ما ظهر ذلك في قصائده الأرتقيات . وأما المرحلة الثالثة فهي التي كان يقول فيها الشعر في مختلف الأقطار ؛ في العراق وماردين ومصر والحجاز والشام ، منذ أن بدأ يرحل للتجارة حتى

وكانه . وقد ظهر التعميد في شعره أثناء هذه الفترة بجلاله ووضوحه وتزايد حبه للصناعة حتى أصبح لا هم له إلا ترصيع شعره بأنواع التجنيس والمطابقة والاستعارات والتشبيهات . ونظم القصائد المعجزة والمهمة والقصائد التي تقرأ طرداً وعكساً أو عمودياً وأفقياً . حتى أنه اخترع ( الجنس المجنح ) . وقد زادت أغراضه في هذه الفترة أيضاً فزاد الزهد والتصوف والأدب والحكم والمجون ، حتى تكاملت موضوعات شعره . وقد جمع ديوانه في هذه المرحلة . في بلاط الملك ( الناصر محمد بن قلاوون ) .

ويمتاز شعر الصفي في جميع مراحلها بكثرة الصناعات البديعية فيه . وانتشار روح الحماسة ، فبالإضافة إلى القصائد السكثيرة والمقطوعات الجملة من شعر الحماسة نحس بالروح الحماسية في أكثر موضوعات شعره كالمديح والثناء والاخوانيات وحتى الغزل . ويمتاز كذلك بروح المبالغة فمجده يزيد في تهويل الصورة التي يريد أن يعرضها لنا . كما كان ذلك منتشراً في عصره . وكان هذا الشعر في أسلوب رقيق جميل متين رصين ، فلم يتأثر الصفي بضعف أساليب عصره وإنما تأثر بقوة أساليب أسلافه من فحول الشعراء . وأما ألفاظه فسكانت عربية فصيحة موسيقية سهلة ليس فيها غريب . والصفي يهتم بمعانيه وهو مفتن بالغوص باحثاً عن المعنى الجميل . فيرسم الصورة الرائعة ويختار لها أليق إطار .

وطرق الصفي كل أبواب الشعر من حماسة ومدح وثناء واخوانيات وغزل وخمريات ووصف وطرديات وغير ذلك . ولم يقتصر الصفي على القصيد فحسب بل طرق الفنون الأخرى المستحدثة في الشعر العربي . كالموشح الذي أجاد فيه إذ نجد له ( ١٢ ) موشحة جميلة سلك فيها ما سلكه الوشاحون القدماء ، ثم انه اخترع فناً جديداً من الموشح سماه الموشح المضمن ، ويضمن فيه إحدى قصائد الشعراء المتقدمين كما وجد عنده الموشح المجنح . وهناك الفنون الشعرية العامة وهي ( الزجل ) و ( الموالي ) و ( السكك ) و ( القوما ) .

وقد نظم الصني منها نماذج لم تخرج مما أوجبه فيها مخترعوها من شروط ،  
وقد ضاع أكثر هذه الأَشعار فلم نثر إلا على نماذج قليلة ذكرها الصني في  
كتابه ( العاقل الحالي ) الذي درس فيه هذه الفنون .

وقد بدأ الصني حياته الشعرية بتقليد غيره من الشعراء المتقدمين الذين كان  
يعجب بهم ويحفظ شعرهم . وتأثر بهم وبأن هذا الأثر في تضمينه شعرهم  
واقتباسه معانيهم وتخصيصه لأشعارهم ومعارضته لقصائدهم ... ولكن سرطان  
ما استطاع الصني أن يكون له شخصية خاصة في الشعر فأبدع القصائد الرائعة  
والمعاني الجميلة ، واخترع الفنون الطريفة ، حتى أصبحت له منزلة عظيمة  
بين شعراء عصره لا تدانيها منزلة ، واشتهر في الآفاق وطار صيته ، فأحبه  
الناس ورغب الملوك في مدحه وتقريبه اليهم . فأصبح أكبر شعراء عصره  
دون منازع . وكان له تلاميذ عديدون أثر فيهم فأقتبسوا معانيه وضمنوا  
أبياته وخسوا قصائده . ونهجوا نهجه في مختلف فنون الشعر كالبدعيات  
وغيرها .



وإذا كان من اللازم على المتقدمين ببحوث علمية أن يأتوا فيها بمجديد  
من عندهم فإني أستطيع أن أقول إن هذا العمل المتواضع الذي أتقدم به ،  
إن هو إلا ثمرة مجهودي الشخصي ، إذ لم يكتب أحد عن الصني شيئاً ذا بال ،  
وكل ما كتب نتف يسيرة جداً لا تسمن ولا تغني من جوع . وقد استطعت  
أن أكتب عنه هذا البحث مستمداً في تصوير حياته ومراحلها المختلفة ،  
وثقافته المتنوعة وعقيدته ، على ديوانه الذي أمكنني بواسطته أن أكشف  
عن كثير من النواحي المختلفة . وأما شعره فقد درستُه دراسة طويلة ،  
وعشت معه زمناً غير قصير ، مع مختلف آثاره الشعرية حتى استطعت أن  
أقدم هذا البحث الذي تناول شعره ومختلف فنونه وأغراضه وبين نواحيه  
المختلفة المتعددة .

ويعلم الله أنني لم أقل هذا زهواً أو نفراً ، فليس في العلم زهو أو نفار ، وإنما قلته لاحقاق الحق ، فيجب أن تمتاز البحوث العلمية بالحق والصراحة . ويعلم الله أنني ما فكرت في يوم من الأيام أن أجمل هذا البحث غاية من الغايات أو هدفاً من الأهداف ، أو نهاية شوط كنت أجده لأبلغه ، وإنما كنت ولا أزال ، أفكر في أن هذا البحث إن هو إلا باب أستطيع أن أُلج منه عالم البحث والدرس والمجد ، وأصل به عهداً يتصف بالعمل المستمر والجهد المضني ، لأستطيع أن أكشف عن بعض الكنوز الأدبية الكثيرة ، والمواهب الشعرية المغمورة في وطني . والله أسأل أن يلهني الصواب وأن يهديني سواء السبيل .



# مراجع البحث

## ١ - المخطوطات :

- ١ - أبيات شعرية - مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٩٦٦ .
- ٢ - أعيان مصر وأعوان النصر - صلاح الدين الصفدي .  
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٠٩١ تاريخ
- ٣ - أنوار الربيع في أنواع البديع - علي خان -  
نسخة مخطوطة في مكتبة دار المعلمين العالية برقم ٤٨٦ ع
- ٤ - البداية والنهاية - ابن كثير عماد الدين أبو الفداء ج ١٣  
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١١١٠ تاريخ
- - تاريخ ماردين - عبدالسلام المارديني قاضي ماردين .  
مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٨١٣ تاريخ
- ٦ - درر النحور في مدائح الملك المنصور - صفي الدين الحلبي  
مخطوطتان بدار الكتب المصرية برقم ٣٩٤٨ أدب ورقم ٣٢١ أدب
- ٧ - ديوان صفي الدين الحلبي - صفي الدين  
أربع نسخ مخطوطة بدار المكتبة المصرية وأرقامها : ٥٣٥ و ١٣٩٩  
و ١٣٩٩ و ٥٠٩٥ أدب .
- ٨ - ديوان صفي الدين الحلبي - صفي الدين  
نسخة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٢٢٤٧
- ٩ - العاقل الحلي والرخص الغالي في الأزجال والموالي - صفي الدين  
نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٢٩٦٥ أدب

- ١٠ - الكافية البديعية — صفي الدين  
مخطوطتان بدار الكتب المصرية برقم ١٢٨ بلاغة و ٥٦٧ بلاغة  
١١ - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي — أبو المحاسن بن تغري بردي  
نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ١٢١٢٦ تاريخ  
١٢ - الوافي بالوفيات — صلاح الدين الصفدي  
مخطوطة لدى الاستاذ سيد العقاد

ب — المطبوعات :

- ١ - أمل الآمل — محمد بن الحسن بن علي الحر العامل  
طبعة محمد حسن السكر بلأني سنة ١٣٠٧ هـ — العراق  
٢ - الأدب العربي وتاريخه — محمود مصطفى ج ٣ ط . البابي الحلبي ١٩٣٧  
٣ - البداية والنهاية لابن كثير — مطبعة السعادة — مصر  
٤ - تاريخ آداب اللغة العربية — جرجي زيدان . طبع مطبعة الهلال  
٥ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري — آدم ماز  
ترجمة الدكتور عبدالمهدي أبي ريدة — طبعة لجنة التأليف والترجمة  
والنشر ١٩٤٧ .  
٦ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة — المنسوب إلى كمال  
الدين بن القوطي البغدادي، نشر وتحقيق الدكتور مصطفى جواد . بغداد  
٧ - خزانة الأدب ونهاية الأرب — تقي الدين أبو بكر بن حجة الحموي .  
المطبعة الخديوية بمصر سنة ١٢٩١ هـ ■  
■ - الحيوان — عمرو بن بحر الجاحظ . طبع الحاسي ٣٣٢٣ هـ ■  
٩ - دائرة المعارف الاسلامية — العربية  
١٠ - ■ ■ ■ — الانكليزية مواد : ( ماردين ) و ( أرتق )  
١١ - دار الطراز — لابن سناء الملك المصري . طبع دمشق ١٩٤٩



- ١٢ - دراسات في تاريخ الممالك البحرية — علي ابراهيم حسن . مطبعة  
الاعتماد ١٩٤٤ .
- ١٣ - الدرر الكامنة لاعلام المائة الثامنة . شهاب الدين بن حجر الحقلاني  
طبعة دائرة المعارف الاسلامية بالهند
- ١٤ - الدولة الخوارزمية والمغول — حافظ أحمد حمدي . مصر ١٩٤٩
- ١٥ - ديوان ابن المعتز — المطبعة المحروسة ■ مصر ١٨٩١
- ١٦ - ديوان ابن نباتة المصري — مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٥
- ١٧ - ديوان أبي تمام الطائي — طبع بيروت سنة ١٣٢٩ هـ
- ١٨ - ديوان أبي نواس — المطبعة العمومية ١٨٩٨
- ١٩ - ديوان صفي الدين الحلي — طبعة دمشق ١٣٠٠ ■
- ٢٠ - ديوان صفي الدين الحلي — طبعة بيروت ١٨٩٣ م
- ٢١ - ديوان صفي الدين الحلي . طبعة النجف — المكتبة العلمية ١٩٥٦
- ٢٢ - ديوان الطغرائي — مطبعة الجوائب قسطنطينية سنة ١٣٠٠ ■
- ٢٣ - ديوان المتنبي — شرح المكبري طبعة الحلبي بمصر ١٩٣٦ م
- ٢٤ - رحلة ابن بطوطة المطبعة الأزهرية
- ٢٥ - رحلة ابن جبر مطبعة ليدن — الطبعة الثانية
- ٢٦ - العاقل الحلي والمرخص الغالي في الأجزاء والموالي — صفي الدين الحلي  
نشر لجنة الاستشراق في مجمع العلوم والآداب في ألمانيا ( ولهم هونرباخ )
- ٢٧ - العبر وديوان المبتدأ والخبر — ابن خلدون طبعة بولاق ١٢٨٦ هـ
- ٢٨ - العمدة في صناعة الشعر ونقده — ابن رشيق القيرواني مصر ١٩٢٥ م
- ٢٩ - الفن ومذاهبه في النثر العربي — الدكتور شوقي ضيف  
طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — مصر ١٩٤٩ م
- ٣٠ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب — الشيخ عبدالحسين أحمد الأميني النجفي  
طبع الحيدري — طهران .

- ٣٦ - فوات الوفيات — ابن شاکر الکتبی طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ
- ٣٧ - للقاموس المحيط — لجد الدين الفيروز آبادي — طبعة السعادة ١٣٣٢ هـ
- ٣٨ - القصائد الأرتقيات — صفي الدين الحلبي — المطبعة الوهبة ١٢٨٣ هـ
- ٣٩ - القصائد الأرتقيات — — — — — المطبعة الأزهرية للطوخي ١٢٩٩ هـ
- ٤٠ - القصائد العشریات في النصائح الدينية — أبو زيد عبدالرحمن الفازري  
اليجفشي الأندلسي — طبعة الحلبي ١٣٤٤ هـ
- ٤١ - السکامل في التاريخ — ابن الأثير المطبعة الأزهرية ١٣٠١ هـ
- ٤٢ - لسان العرب — أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور
- ٤٣ - المدائح النبوية في الأدب العربي — الدكتور زكي مبارك  
مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٣٥ م
- ٤٤ - معجم البلدان — ياقوت الحموي طبعة ليبزج ١٨٦٧ م
- ٤٥ - معدن الافاضات في مدح أشرف السکائنات — مجدالدين محمد بن أبي  
بکر الورتري . طبعة بيروت ١٩١٠ م
- ٤٦ - مقامات الحمذاني — طبعة بيروت ١٨٨٩ م
- ٤٧ - مقدمة ابن خلدون — طبعة بولاق ١٣٩٦ هـ
- ٤٨ - مقصورة ابن دريد — أبو بکر محمد بن الحسن بن دريد . الهند ١٣٤٤ هـ
- ٤٩ - الموشح في الأندلس والمشرق — الدكتور محمد مهدي البصير مطبعة  
المعارف بغداد سنة ١٩٤٦ .
- ٥٠ - النجوم الزاهرة في أخبار ملوک مصر والقاهرة — جمال الدين بن تفری بري  
طبعة دار الکتب المصرية .
- ٥١ - وفيات الأعيان — ابن خلدون طبعة بولاق ١٢٩٩ هـ
- ٥٢ - يتيمة الدهر في شمراء أهل العصر — أبو منصور عبدالملك الثعالبي  
طبعة دمشق .

# فهرس الأعلام

[ أ ]

ص	ص
اسماعيل شرف الدين بن أبي	آمنة بنت وهب ٩٩
بكر المقرئ ١٢٩	ابراهيم الخليل (ع) ١٩٨ ، ٨٥
الاصمعي ٣٨	ابراهيم بن العباس بن الاحنف ٦٥
الاعشى ٢٠٠ ، ١٨٤ ، ١٦٨	ابراهيم الكفعمي الحارثي ١٣٠
الافضل - ايوب ٦٠ ، ١٤٨ ، ٢٣٠	الشيخ ابراهيم بن يحيى الطيبي ٢٨٧ ، ١٢١
٢٨٠ ، ٢٣٧	أرتق بن اكسب ١٧
امرؤ القيس ٢٦٠ ، ٢٣٤ ، ٥٠	ابن الاثير ١٠
الامين العباسي ٨٧	أحمد الجليلي ١٢١
انوشروان ٩٩	أحمد شوقي ٢٨٥
ايبك ١٩	الشيخ أحمد بن صالح البحراني ١٣٣
[ ب ]	أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ١٣١
البحري ٤ ، ٣٦ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣	أحمد بن مروان ٣٦
بديع الزمان الهمداني ٢١٧	الأحنف العكبري ٢١٨
البرزالي ٤٧	الأخطل ٢٠٠
بروكلان ١٢٨ ، ١٢٣	أردشير بن بابك ٢١٧
بشار بن برد ٢٨٤	أسامة بن لؤي بن طيء ٤٥
ابن بطريق الأسدي ٦٥ ، ٣٥	اسماعيل بن الفضل - المؤيد ٦٠ ،
ابن بطوطة ١٢	٢٨١ ، ٢٣٩ ، ١٨٤ ، ١٧٩ ، ٧٦

ص	
٩٠٧	جعفر الصادق
٢٨٦ ، ١٣٠	جلال الدين السيوطي
٤٧	جمال الدين بن تغري بردي
٢٥١	جمال الدين بن الجوزي
	جمال الدين أبو منصور - العلامة
١٠١ ، ٣٦	الحلي
١٩٣ ، ٩٠ ، ٦٤	جميل بثينة
٢٨ ، ١٦	جنـد-كيز خان
٢٨٧ ، ١٢٢	جواد بزقت
٣٢	الجويني

### [ح]

٢٧٤ ، ٧٣ ، ٤٦	حاتم الطائي
١٨٠	الحارث بن عوف
٨٢	حبيب - زين الدين
١٠٠ ، ٩٩ ، ٤٧	ابن حجر العسقلاني
١٣١ ، ١٢٩ ، ١٢٦	ابن حجة الحموي
٢٨٦ ، ١٣٣	
٣٦	حسام الدين تيمورطاش
٢٠٠ ، ١٦٨	حسان بن ثابت
١٢٢	الشيخ حسن مصبح
١٨٨	أبو الحسن المباسي
٩٠٣	الحسن بن علي (ع)

ص	
٢٣٣	أبو بكر تقي الدين المغربي
٢٤٣	أبو بكر بن قزمان
٨٨	بلقيس
٢٩٠ ، ١٦٩ ، ١٣٣	البوصيري
٢٩	بمسري بن عبدالله الصالحى
٢٢	ابن البيضاوي
٢١٨	البيهقي

### [ت]

٢٦٨	تاج الدين الآوي
٣٦	تاج الدين بن معيه الديباجي
١٨٣ ، ٥٠	تاج الدين بن وشاح الحلي
٢٠	التاج الكففي
٣٥	تقي الدين بن داود
٦٥ ، ٥٠ ، ٤٦	أبو تمام الطائي
٢٦١ ، ٢٥٨ ، ١٦١ ، ١٣٥ ، ٩٠	
٢٨٢ ، ٢٧٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٦	

### [ث]

١٨٧	الثعالبي
-----	----------

### [ج]

٢١٨	الجاحظ
١٢	ابن جبير
٢٨٦ ، ١٢٩	جرمانوس فرحات - المطران



ص  
شمس الدين عبدالله بن المهذب ٢٨٦، ٩٦  
شمس الدين بن الواعظ ٢٥١  
شوقي ضيف  
شهاب الدين أحمد ٢٤٧  
شهاب الدين محمد ٢٨٣  
شهاب الدين محمود ١٨٧، ١٨٣  
[ص]

الصاحب بن عباد ٢١٨  
الصالح شمس الدين صالح ١٥، ١٨،  
٣٦، ٤٢، ٥٤، ٥٦، ٥٩، ٦١، ٦٢،  
٦٣، ٦٤، ٦٦، ٦٨، ٧٦، ٨١، ٩١،  
٩٦، ١١٣، ١٣٩، ١٤٧، ١٥٢، ١٦٨،  
١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢،  
٢٠٠، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٧٥، ٢٨٠،  
٢٨١

صالح بن درويش التميمي البغدادي

٢٨٧، ١٢١

صخر ٩٠، ٨٨

صفي الدين بن حمزة ١٣، ٥١، ١٣٦،

١٨٦، ١٨٧، ٢٨٠، ٢٨٩

صلاح الدين الصفدي ٤٧، ٦٥، ٦٩،

٧٢، ٨٢، ٨٥، ٩٩، ٢٨٢، ٢٨٩

ص  
ابن زيدون ٦٠، ١٨٤، ٢٣٩، ٢٦٠  
ابن زبلاق المصري ٢٦٠  
[س]

ساسان ٢١٧

سطيح ٩٩

سعد ابن أبي وقاص ١٨٩

السكاكي ١٢٣

سلار المصري ٢٧، ١٩

السموول ٩٠، ٩٢، ٢٣٦، ٢٤٠،

٢٤١، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠

ابن سناء الملك المصري ٢٢٦

سفيس ٤٧

سوار بن شراعة - الناشي\* الأصفر ٦٥

سهبويه ٢٤٣

سيف الدولة الحمداني ١٦٧، ١٨٠،

٢٦٠، ٢٧٨

سيف الدولة صدقة المزبدي ١١، ٧٣،

سيف الدين أبو بكر السلامي الحلبي ١٨٩

[ش]

ابن شاكر الكتبي ٤٧

شرف الدين التيفاشي ١٢٤

شعبان بن محمد القرشي ١٢٩

شمس الدين عبداللطيف ٢٨٣

ص

الشيخ عبد القادر الحسيني

الأزهري الطربلسي ١٣٢

عبد القادر بن محمد المكي ١٣١

عبد اللطيف محمد الخطاط ١٣٤

عبد الله بن الزبير ٢٧٨

عبد الله بن عباس ٢٧٠ ، ١٠٥

عبد الله بن محمد المرواني ٢٢٥

عبد الله بن المعتز ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ،

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ،

٢٨١ ، ٢٧٢

الشيخ عبد الله بن يوسف الحلبي

١٣٢

عبد الوهاب بن أحمد الجبري ١٢٨

عبد الهادي - جمال الدين - بن

ابراهيم الحسيني الزيدي ١٢٩

عبيد الله بن قيس الرقيات ٦٤

عبيد الله بن محمد العلوي ٢٧٥ ، ٥٢

عثمان بن عفان ١٠٧

عروة العذري ٩٠ ، ١٩٣

المسكري - أبو هلال ١٢٣

علاء الدين بن الأثير ١٩ ، ٢٦ ، ٢٨٩ ، ٦٥

علاء الدين خوارزمشاه ٢٨

علاء الدين عطا ملك ٣٢

ص

[ ط ]

الطرماح ١٩٢

الطغراني ٢٧٨ ، ٩٨

[ ظ ]

الشيخ ظاهر بن صالح بن أحمد

الجزائري ١٣٢

[ ع ]

عائشة بنت يوسف الباعونية ١٣٠

عاد بن شداد ٨٨

عبادة بن القزاز ٢٢٥

عباس الزبوري ٢٨٦

عبد الحميد السكاك بن الأشج ٤١

عبد الرحمن بن الأشعث ٢٧٨

عبد الرحمن بن أحمد الحميدي ١٣٠

عبد الرحمن بن محمد زين الدين

الشافعي ١٣٠

عبد الرحمن بن محمد الفازازي

اليجفشي ١٢٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠

عبد الرحمن السكناني ١٠٢

عبد الرحمن بن ملجم ١٠٢

عبد علي الحويزي ١٢٢

الشيخ عبد الغني بن اسماعيل

الحفني النابلسي ١٣١

ص	ص
٢٧٨	صمرو بن ربيعة بن نصر
٣٣	الصمري
١٨٨	ابن الصميد
١٤٣، ٨٥	عيسى بن صميم
١٢٩	عيسى بن حجاج السعدي
[ غ ]	
٥١، ٢٧، ١٨	غازان
	غيث الدين عبد الكريم
١٨٦، ١٠٦	النقيب
٢٣٢	غيلان الغول المصري
[ ف ]	
١٦٩	ابن الفارض
١٠٣	فاطمة
١٦٩، ٩١	الفرزدق
٨٥	فرعون
٢٥، ٢٢، ١٠	ابن القوطي
٧١، ٧٠	الفيروز آبادي
[ ق ]	
	الشيخ قاسم بن البهكره جي
١٣١	الجلي
٣٥	أبو القاسم المحقق
٤١	القاضي الفاضل
٢٠	قتادة

ص	ص
١٦٥	علي بن أحمد الخراساني
١٩	علي بن بهادر
١٦٩، ٩١	علي بن الحسين (ع)
	علي بن الحسين عز الدين
٢٨٦، ١٢٩	الموصلي
١٣١، ١٢٤	علي خان الحسيني
٨٩، ٤٥، ٩	علي بن أبي طالب (ع)
١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤	
١٠٥، ١٢٢، ١٣٣، ١٧٦، ١٩٨	
٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨	
	الشيخ علي بن عثمان أمين الدين
١٢٥، ١٢٤	الأربلي
١٠١	علي بن مزيد الأسدي
٢٦١، ٦٦	علي بن منصور الحاجب
٢٧٧	عماد الدين علي
١٩	عماد الدين القزويني
	عماد الدين ناصر بن محمد
١٦٤، ١٠٨	الدلقندي
٢٧٠، ١٠٧، ١٥	عمر بن الخطاب
١٩٣	عمر بن أبي ربيعة
٢٣٩	عمر بن العفت
٢٤٣	عمر بن غرلة
١٥٤	عمر بن المنصور



ص

[م]

ماردين بن ملك الفرس ١٤

المأمون بن الرشيد ١٧

المبرد ٩٠

المتقي ٥٠، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٩،

١٣٥، ١٥٣، ١٥٧، ١٦١، ١٦٥،

١٦٦، ١٦٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٨٢،

٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢،

٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٨، ٢٨٢،

٢٨٤

مجد الدين بن الاثير ٢٧

مجد الدين أبو عبدالله البعادي

الوتري ١٢١، ٢٨٧، ٢٩٠

مجد الدين أبو الفوارس النقيب ١٨٣

مجد الملك ١٩

محمد بن أحمد بن جابر الاندلسي ١٢٥، ١٢٦

محمد الجنبى القاضى الناصري ١٣٣

الشيخ محمد بن حمزة القسري

الحلي ١٣٢

محمد بن حميد الطوسي ٢٦٥

محمد بن الشيخ خليل المقرئ

الحلي ١٣٠

محمد السفس ٤٦، ٢٧٤

ص

٤٥

قدامة بن جعفر ١٢٣

قصير ٨٨

قطري بن الفجاءة ٩٢، ٢٤٠، ٢٦٠

قطز ١٩، ٢٧

قلاوون ٢٦٣

القلقشندي ٣٣

قيس بن ذريح ٩٠، ١٩٣

قيصر ٨٨، ٩٥، ٩٨

[ك]

كانور الأخشيدي ٦٩، ١٦٥، ١٨٢

كتبغا ١٩

كثير عزة ٦٤، ٩٠، ١٩٣

كسرى ٨٨، ٩٥، ٩٨

كعب بن زهير ١٦٨، ١٧٧

الكيت بن زيد ١٦٩، ١٨٤

كوهر خان ٥٥

كيخانو ٢٦

[ل]

لاجين ١٩

لبيد ٢٨٤

لسان الدين بن الخطيب ٢٢٦

ص	
٢٤٣	مخلف بن راشد
٢٣٩ ، ٢٦٠	مدرك بن علي الشيباني
٢٤٣	مدغليس
٨٧	مراجل
٥٥	المسترشد العباسي
٨٧	المستمع بالله
٢٧١	أبو مسلم الخراساني
١٢٩	المسيح (ع)
١٢٦ ، ١٠٧ ، ١٩٠	المصطفى
٥	مصطفى السقا
٦٩ ، ٦٨	المطلب بن عبدالله الخزاعي
٢٧٠ ، ١٧٧ ، ٤٥	مماوية بن أبي سفيان
١٤٨	معبد
٢٢٥	المعتصم بن صامح
٨٧	المعتصم العباسي
١٠١	الشيخ المفيد
٢٢٥	مقدم بن معافر القبري
٤١	ابن المقفع
١٧	ملكشاه السلجوقي
٢٧٢	المنازي
٢٠٠	المنخل اليشكري

ص	
٦٥	محمد بن شرشير - الناشي الأكبر
١٨٥	محمد بن الحاج صالح
	الشيخ محمد صالح بن ميرزا فضل
١٣٢	المازندراني الحارثي
٢٢٥	محمد بن عبد ربه
١٣٠	محمد بن عبدالرحمن الحموي
١٣٠	محمد بن عبدالقادر حكيم زاده
١١٢ ، ٩٦ ، ١١٢	محمد بن عبدالله (ص)
١٨١ ، ١٢٦	
	الشيخ محمد بن عبدالله الضرير
١٣٢	الأزهري
١٥٥	محمد عبدالوهاب - الموسيقى
١٢٩	محمد شمس الدين بن علي الهواري
٢٨٧	محمد علي الحويزي
٦٥	محمد بن علي الخبمي
٢٨٧ ، ١٢١	محمد الفلامي
٢٨٥	محمد فريد
٥	محمد كامل حسن
١٢٣ ، ٦٥ ، ٤	محمد بن نبانة المصري
٢٨٩ ، ٢٨٢ ، ١٩٠ ، ١٦٨	
٢٦٥	محمود مصطفى
٢٦٠ ، ٢٤٠	محيي الدين بن زيلاق

ص	
٢٧٧	ناصر الدين محمد
١٠٦، ١٠٢، ١٠٠، ٤٦ (ص)	النبي
١٤٣، ١٣٣، ١٣٢، ١٣١، ١٢٤	
١٧٧، ١٧٦، ١٦٩، ١٦٨، ١٦٧	
٢٩٠، ٢٧٠، ٢٦٩، ٢٠٧	
■ ■	نجم الدين ايلغازي
٢٦	نجم الدين حيدر
١٩	نجم الدين كاتب الجريد
١٩	نجم الدين يحيى
٣٢، ٢١	نصير الدين الطوسي
٢٠٦	النظام
٨٨	النعمان بن المنذر
٢٥٣	ابن نقطة
٣٥	ابن نما الربيعي
٨٥	نمرود
١٣٥، ٦٩، ٦٤، ٥٠	أبو نواس
■ ٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠٢، ١٩٩، ١٩٦	
■ ٢١٢، ٢١١، ٢١٠، ٢٠٦، ٢٠٥	
٢٧٦، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٣١، ٢٢٢	
٣١	نور لدين زنكي
٣٣	النوري
١٢٩، ٢٨٦	نيقولا دس الصائغ - الخوري

ص	
١٥، ١٨، ٣٦، ٤٢، ٥٤، ٥٥	المقصود نجم الدين غازي بن ارق
٥٦، ٥٧، ٦١، ٦٦، ٧٣، ٧٦	
٩٦، ١١٣، ١١٨، ١١٩، ١٢٠	
■ ١٥٤، ١٥٣، ١٤٥، ١٤١، ١٣٩	
١٦٧، ١٦٨، ١٧٨، ١٧٩، ١٨١	
١٨٢، ١٨٤، ٢١٠، ٢٢٩، ٢٣٦	
٢٣٧، ٢٦٠، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٨٢	
٢٨٣، ٢٨٩	
٢٨٤، ٨٥ (ع)	موسى بن عمران
٦٥	ابن المولى
١٨٩، ١٤١	مذهب الدين النحوي الحلبي
١٦٩	مهييار الديلمي
١٨٨	المينكلي

[ ز ]

٩١، ٥٠	الماينة الديباني
٢٥٤، ٣٧	الناصر العباسي
٦٥، ٢٨، ١٨	الناصر بن قلاوون
٦٦، ٦٧، ٧٠، ٧٦، ٩٦، ١١١	
١١٣، ١٤٣، ١٥٩، ١٦٥، ١٦٨	
١٧٩، ١٨١، ١٨٥، ١٨٦، ٢٦١	
■ ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨١	
٢٩١	

ص	[ ي ]	ص	[ و ]
١٤ ، ١١	ياقوت الرومي	١٣٢	الواردي المقرئ
١٧	ياقوتي الأرتقي	١٢٩	وجيه الدين النجفي
٢٧٨	يزيد بن المهلب	٩٥	ولهلم هونرباخ
٨٥	يعقوب ( ع )	[ ه ]	
١٢٩	يوسف الفاخوري - الخوري	١٨٠	هرم بن سنان
٨٦ ، ٨٥	يونس بن يعقوب ( ع )	٣٥ ، ٢١ ، ١٥ ، ١٣	هولاكو
٨٥	يونس ( ع )		

## الفهرس

صفحة	
٣	الاهداء
٥	تصدير
٧	المقدمة
١١ - ٤٢	تمهيد
١١	١ - البيئة الطبيعية
١٥	٢ - الحياة السياسية
١٨	٣ - الحياة الاجتماعية
٢٤	٤ - الحياة الاقتصادية
٣٠	٥ - الحياة العلمية
٣٦	٦ - الحياة الأدبية

## ٤٣ - ١٠٨ الباب الأول

سيرته من شعره

### الفصل الأول — حياته

٢٥	١ - نسبه ومولده وأنشأته
٥١	٢ - في الامصار الاسلامية
٧٠	٣ - صفاته وأخلاقه وطباعه
٨٠	٤ - وفاته

صفحة

الفصل الثاني — ثقافته وعقيدته

- |    |                      |
|----|----------------------|
| ٨٣ | ١ - ثقافته           |
| ٩٥ | ٢ - عقيدته الإسلامية |
| ٩٩ | ٣ - تشيعه            |

الباب الثاني

شعره ١٠٩ - ٢٨٨

الفصل الأول — آثاره الشعرية

- |     |                                       |
|-----|---------------------------------------|
| ١١١ | ١ - الديوان                           |
| ١١٩ | ٢ - درر النحور في مدائح الملك المنصور |
| ١٢٣ | ٣ - البديعية                          |

الفصل الثاني — مراحل شعره

- |     |                       |
|-----|-----------------------|
| ١٣٥ | ١ - ابتداء صنعة الشعر |
| ١٣٩ | ٢ - ظهور التعقيد      |
| ١٤٣ | ٣ - اشتداد التعقيد    |
| ١٥١ | ٤ - صفات عامة         |

الفصل الثالث — موضوعات شعره

- |     |             |
|-----|-------------|
| ١٦١ | ١ - الحماسة |
| ١٦٧ | ٢ - المديح  |

صفحة

١٦٨	أ - المدائح النبوية
١٧٨	ب - مدح السلاطين
١٨٣	٣ - الرثاء
١٨٧	٤ - الاخوانيات
١٩٢	٥ - الغزل
١٩٩	٦ - الحمريات
٢٠٦	٧ - الطرديات
٢١٢	٨ - الوصف
١١٧	٩ - القصيدة الساسانية
٢٢٠	١٠ - الأغراض الأخرى

الفصل الرابع - الفنون المستحدثة

٢٢٥	١ - الموشحات
٢٣٣	٢ - المسمطات
٢٤١	٣ - الرجز
٢٤٧	٤ - المواليا
٢٥٠	٥ - الكان وكان
٢٥٣	٦ - القوما



الفصل الخامس - منزلة في الشعر العربي

٢٥٧	١ - تقليده
٢٧٣	٢ - ابداعه